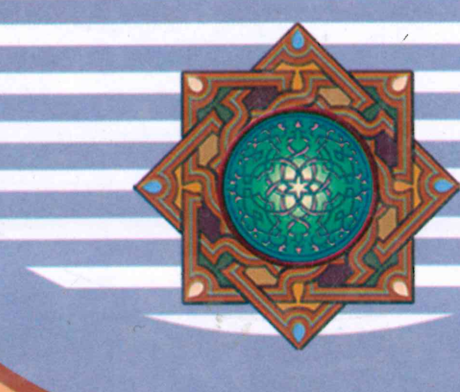


دراسات إسلامية في الاجتماع



دكتور محمود محمد محمد عمارة
أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة جزيرة الورد

دراسات إسلامية

في

الاجتماع

دكتور. محمود محمد محمد عماره
الأستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان ـ المنصورة
٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب :	دراسات إسلامية فى الاجتماع
تأليف :	د. محمود محمد محمد عمارة
الطبعة :	الأولى
الناشر :	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع :	١١٨٥١/ ٢٠١٠

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفى لجامعة الأزهر

ت: ٠١٢٢١٠٨٤٩٣ / ٠٢/٥١١٤٣٧١

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

٠١٢٩٩٦١٦٣٥ / ٠١٠٠١٠٤١١٥ / ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ / ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦



تقديم

تقديم

بينما كنت أحاول انتزاع البحث الجديد من واحد من أدراج المكتبة تمهيدًا لقراءته ، ثم مناقشته ، إذا بالمفاجأة التى كانت من تدبير الله عز وجل كواحد من أسباب التيسير التى يديرها القدر الأعلى سبيلاً إلى أمرٍ ما :

وهذه المفاجاة هى :

سقوط حزمة من الورق على رأسى ، ثم تناثرها على أرض الحجرة ؟!

وفاحت من حول الحزمة رائحة القدم التى أغرتنى بملاحقة الأوراق المبعثرة ، ثم تأملها ، فإذا هى : مجموعة من أفكار علم الاجتماع الذى كان يقوم بتدريسه المرحوم : الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى الستينات من القرن الماضى .

وقد ذكرنى الطعن ، وقد كنت ناسيًا !!

ذكرنى بأستاذى المرحوم ، والذى كان نعمة أنعم الله تعالى بها علينا .

وحين نقول (كان نعمة) فإننا نذكر قول الله عز وجل :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

فالنعمة فى ظاهرها واحدة : لكنها مضمومة على مجموعة من النعم :

يقول الرازى هنا :

(إذا أراد الإنسان أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع ، فعليه أن يتأمل فى شىء واحد ! ليعرف عجز نفسه عنه :

فقد ذكر الأطباء أن الأعصاب قسمان : منها دماغية . ومنها نخاعية :

أما الدماغية : فهى سبعة ، ثم أتعبوا أنفسهم فى معرفة الحكم الناشئة

من كل واحد من تلك الأرواح السبعة ، ثم مما لا شك فيه أن كل واحد من الأرواح السبعة تنقسم إلى شعب كثيرة : وكل واحد من تلك الشعب أيضًا إلى شعب دقيقة أدق من الشعر)

(وإنك إذ أخذت اللقمة الواحدة ! لتضعها فى الفم ، فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها)

وكذلك كان المرحوم الدكتور محمد الغمراوى :

لقد كان فى مرأى العين شخصًا واحدًا ، ولكنه كان مضمومًا على قيم كثيرة ليس على الله بمستنكر ـ أن يجمع العالم فى واحد !

وقد جمع الله ما تفرق فى الناس من عواصف الخير :

١ـ كان ورعًا :

يبدأ فى الدرس منذ الدقيقة الأولى ، ولا يتوقف حتى يجلي الفكرة المعروضة وإن تجاوز الوقت الرسمى .

٢ـ وكان دقيقًا :

ويكفى أن تعرف أننا كنا نضبط ساعاتنا على حضوره . . الذى لم يكن يتأخر ثانية واحدة !

٣ـ وقد تعلمنا منه النظام فى زمان كان للفوضى سدنتها !

٤ـ وأهم من ذلك كله : غيرته على الإسلام غيرة تتصدى لكل شاردة أو واردة من أجنبى يحوم حول الآية الكريمة أو الحديث الشريف .

هذه الآية وذلك الحديث الذى يعلق عليه تعليقًا يكشف عن دخيلة الأجنبى بقدر ما يذكر من المعانى بما لم يسبق إليه .

وقد اتخذت القرار الصعب عندئذ وهو :

محاولة جمع هذه الأفكار لتكون كتابًا ، مدفوعًا باحترام عِلْم ينبغى أن

أن ينشر .. وإلاَّ فبقاؤه فى الأدراج كتمان له !

لقدَ قررت أن أستدبر «الثوم» و«العدس» و«البصل» لأعيش مع هذا المن وهذا السلوى ؟!!

مع العلم بأن هذه الأفكار كانت فى يد الرجل «بذورًا» تحتاج إلى «فلاّح» يسقيها . ويرعاها ..

وقد حاولت أن أكون ذلك الفلاح !!

مع العلم : بأننى كنت أتلقى عنه ، ثم أكتب ،وقد أسأله ، وقد يجيب بآية أو حديث ، أحاول أنا التعليق عليهما .. طبق ما علمنا ، وقد أستشهد بآية أخرى لم يذكرها ..

وقد تكون الفكرة متناثرة أقوم أنا بتنسيقها وتبويبها .. فضلاً عما أضفته مما أراه جديدًا فى الباب .

وعلى أى حال فهو لون من الوفاء للعلم ، وللعالم ، يرجى أن يكون فى ميزان حسناتنا فى زمان قل فيه الأقوياء ، وتراجع فيه العلم القيم .. ليغدر الغثاء .. وعلى رجاء أن يحزو تلاميذ اليوم حذونا .. شكرًا لنعمة أنعم الله بها علينا : نعمة العلم والعمل معًا :

ولقد أذكر أننى قلت للمرحوم الأستاذ البهي الخولى ـ وكان قد رأى حرمانى من الوصول إلى الجامعة لما رآه منى تقليدًا للغير فادحًا فى استقلال الباحث الأزهرى قلت له : لئن حرمتنى من مواصلة المسير .. فيكفينى أننى تعلمت منك ومن الشيخ الغزالى . ومن الدكتور الغمراوى .

تعلمت العلم والعمل معا ..

ولا أرغب فى المزيد .. حيث لا مزيد !!

لا مزيد على علم حصلته من هذه الرموز الخالدة .

وقبل هذا . وفوق هذا تعلمت العمل الذى هو مقصود العلم .

وبهذا المفهوم أكون قد نجحت فيما قصدت إليه من الالتحاق بالدراسات العليا بالأزهر الشريف :

إنها صحبة الأخيار الأبرار الذين رحلوا عن دنياى ، ولكن بقى لهم عندى ذكر حسن . .

وبعد قراءة هذا الكتاب أتوقع أن يوافقنى القارئ العزيز فيما أقول . . وعلى الله قصد السبيل .

د . محمود محمد عمارة



الفصل الأول

الفصل الأول

تمهيد :

يهتم علم الاجتماع ببحث الظواهر الاجتماعية التى تسود المجتمعات المختلفة . من حيث نشأتها وعللها وتطورها . مستخلصًا من هذه الدراسة سنن الله تعالى التى تخضع لها هذه الظواهر .

ويتم بحث هذه الظواهر عن طريق الملاحظة والتجربة التى تلاحق الظاهرة الإنسانية بالتحليل والموازنة إلى أن يقف العقل على منشأ الظاهرة . وما يكون وراءها من أسباب تعين فى النهاية على فهم أوثق للحياة وحكم أصدق عليها . . يتيح للإنسان حياة أفضل . يصل فيها المجتمع إلى أكرم الصيغ ملاءمة لفطرته .

السنة والقانون :

التعبير (بالقوانين الاجتماعية) هو التعبير الشائع فى مجال الدراسات الاجتماعية . .

ولكننا آثر كلمة «السنن الاجتماعية»

أولاً : لأنها كلمة قرآنية . . ومن ثم فهي أولى .

وثانيًا : فلم تحتفظ كلمة «القانون» بهيبتها عبر القرون أمام أهواء البشر :

فقد سمعنا وما زلنا نسمع عن تعديل القوانين وتطويرها ، بل وتغييرها .

فلم يعد للكلمة من الحزم والصدامة مثل ما لكلمة «السنة» التى ما زالت تحتفظ بهيبتها . .

فلله تعالى فى خلقه سنن لا تحابي ولا تجامل . . ولا تتأثر بجنس أو لون فى تصريف شؤون الدنيا . . ولا يملك الناس لها تبديلاً ولا تحويلاً .

شبهة .. وردها

فى تعبير لأحد الكاتبين قال :

(لعدم دقة المقاييس الاجتماعية)

وإذا كان هناك فى الدراسات ما هو ثابت وما هو أثبت .. فربما جاز لنا أن نقول :

إن السنن فى المجال الاجتماعى أثبت منها فى مجال الطبيعة !

وذلك بعض ما يشير إليه قوله ﷺ :

« **يا بنى هاشم اعملوا .. فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئًا يا فاطمة بنت محمد :**

اعملى .. فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا » .

ومن ذلك أيضًا قوله لخاله سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه :

« **أطب مطعمك .. تجب دعوتك** »

ومعنى ذلك :

أولاً : أن لفظ السنة لفظ قرآنى .. فهو أولى من لفظ « قانون »

ثانيًا : أن المقاييس الاجتماعية أدق من أختها فى مجال الطبيعة المادية .

والفروق التى سولت لهذا الزاعم أن يقول هذا مذكورة فى غير هذا الموضع

ونحاول أن نزيد الأمر إيضاحًا فنقول :

إن محاولة البحث عن اللقمة الحلال يعنى نظافة القلب والعقل والجوارح الباحثة فى هذه الدائرة الشريفة ..

ومثل هذه النفس ذات الدوافع النبيلة تكون صلتها بالله قوية .. فهى

أقرب إليه سبحانه وتعالى . .

وبالتالي يجيب الله دعاءها . .

بخلاف ذلك الإنسان الذي يلح فى الدعاء ، بينما مطعمه حرام وملبسه حرام فأنى يستجاب له .

إن الاستجابة فى الأولى .

والخيبة فى الثانية لم تأت اعتباطا ، ولكنها حدثت طبق سنة الله تعالى فى عبادة مناقشة الدكتور عبد الباسط فى نصه المنقول عنه :

على أن تعقيب الدكتور عبد الباسط مع اتفاقنا معه فى إمكان تطبيق المنهج العلمي فى الدراسات الاجتماعية ـ هذا التعقيب فيه نظر :

(١) فقد عطف القوانين على النظريات ـ فيما نقلناه عنه آنفًا ـ وهو تساهل في التعبير ! للفرق الكبير بين النظرية والقانون .

(٢) إذا كانت القوانين قد استكملت نصيبها من الدقة والإحكام . . وإذن فالتعبير بالاقتراب من الدقة والإحكام » لا مجال له حيث قد وصلت إلى ذلك فعلاً حين صارت قوانين .

(٣) عندما تصل قضية ما إلى درجة كبيرة من الدقة فهي لا تزال فى منطقة الرجحان ، ولا تسمى حتى نظرية

فالقانون أو السنة لا يكون كذلك إلا إذا بلغ درجة اليقين ليمكن بعد ذلك الرجوع إليه فى تفسير الظواهر الاجتماعية التى يستطيع هو تفسيرها كلها وعلى مدى الزمان كله . .

أما قبل ذلك ، فلا يستطيع ذلك ! مادام نظرية تحتمل الخطأ والصواب . .

وما بمثل هذا تصلح الشعوب

ونقرأ هنا قولهم :

اقرأ :

فعل أمر . .

والقراءة . . إنما تكون بعد تعلم الكتابة .

وهذه الكتابة . . وتلك القراءة تصبان معًا فى غاية واحدة . . حددها الفقهاء الذين قرروا : وجوب تعلم القرآن . والذى يعنى :

(الوقوف على ما فيه من أوامر ونواه تتعلق بالعبادات والمعاملات . وفضائل الأعمال)

وإذا كانوا فى الكونيات يقولون :

ربما لو وقع إنسان من فوق مات شهيدًا ، ليفوز بخلاف الإنسانية . . فلابد فيها من عقاب . .

يقول ابن خلدون فى خفاء العلل الاجتماعية :

(ومن الغلط الخفى فى التاريخ

الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال . . بتبدل الأعصار . ومرور الأيام .

وهو داء دوى شديد الخفاء .

إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة . . فلا يكاد يتفطن له أحد إلا قليلاً من أهل الحقيقة .

وذلك : أن أحوال العالم وعوائده . لا تدوم على وتيرة واحدة . . لكنها تتطور وتنتقل من حال إلى حال) (١) .

إن بحيرة صغيرة قد نأخذ منها قدرًا من الماء . . فلا يظهر لذلك أثر . . لكنها تنقص فعلاً وفى الواقع :

---

(١) المقدمة / ٣٤ .

وهكذا الجرائم :

فكل جريمة وإن لم يـظهر أثرها . . وكل علاج وإن لم يبـد أثره فسوف يبدو مع الأيام .

كما أنك لو واصلت نزح البحيرة لجفت

أهمية الدراسات الاجتماعية

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

تشير الآية الكريمة إلى حقائق منها :

١ـ هناك أمم درجت على الأرض قبلنا .

٢ـ وكانت لهذه الأمم أخطاء بلغت حد التكذيب بآيات الله .

٣ـ ثم حلت بها عقوبات إلهية رادعة .

٤ـ ولم تكن هذه العقوبات ضربة لازب ، بل إنها حلت بالأمم المكذبة طبق سنته تعالى ، التى لا تتخلف ولا تجامل .

٥ـ ونحن مأمورون بدراسة أحوال هذه الأمم على نحو تكتشف به سنن الله تعالى فى المكذبين ، فلا نكتفى بالوقوف عند حجم العقوبة ، بل لا بُدَّ أن نأخذ الموقف الايجابى حيالها :

أ ـ نعود إلى الماضى فى محاولة للدراسة الميدانية على الطبيعة . .

فلا نقتصر على القراءة من كتاب يحكى قصص الماضيين . . (. . سيروا . .)

ب ـ أن تكون لنا نظرة واعية تتجاوز الشكل إلى المضمون [فانظروا] . . ولا تكونوا فقط آلات تصوير أو تسجيل !

ج ـ ألا يكون سيرنا «على» الأرض . . سطحيًا ضحلاً . . بل هو السير فى الأرض استغراقًا وتأملاً يستبطن الأحداث .

د ـ وأن يصل بنا كل ذلك إلى تبين كيفية العقاب : بتتبع مظاهر الحياة

فى الأمة المكذبة . .

وكيف كان عقابهم نتيجة طبيعية لسلوك غير طبيعى . . ثم تكون العبرة . . والحذر من تكرر مثل جرائمهم حتى لا نواجه مثل مصيرهم .

وخلال هذه الرحلة المستبصرة فإن الحق تبارك وتعالى معنا يبين المعالم ويضبط الخطو ويهدينا إلى سواء الصراط . . هداية نستحق بها قبول توبتنا . . وتنقية حياتنا من أوزار الذين ظلموا . . فى الوقت الذى يحاول فيه أعداؤنا صرفنا عن إتمام هذه العودة المباركة المثمرة . . إبقاء على غفلتنا ! ليتم لهم استغلال طاقتنا المادية والمعنوية . . وذلك قوله عز وجل :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨]

لقد واصل غيرنا جهودهم فى مجال الدراسات الاجتماعية ، وقطعوا أشواطًا بعيدة . مكنتهم من اكتشاف بعض سنن الحق تعالى فى الاجتماع . . ثم استغلوا هذه المعرفة فى استنزاف خيرات بلادنا زمنًا . .

ونحن مدعوون بنص الآيات الكريمة إلى أن ندرس . .

ونوازن . . ونختار . ليكون لقاؤنا مع أعدائنا على أساس علمى .

وإذا كانت الآية الكريمة تأمرنا بالسير والنظر . .

وإذا كان البشر ـ منذ القدم ـ يسيرون وينظرون بحكم طبيعتهم البشرية . . فلا بد أن يكون السير المأمور به فى الآية الكريمة هو نظر خاص فى صحبة نظر من طراز خاص ينفذ إلى ما وراء الظواهر . . وصولاً إلى سننه تعالى فيها . . والتى نسير فى ضوئها فلا نصطدم بالحياة . . بل نتعامل معها طبق قواعد ثابتة . . بعيداً عن التخبط والاضطراب وهذا هو مفرق الطريق بين

المؤمنين والملحدين :

فالملحد يمضى ـ فى غيبة الايمان بالله تعالى ـ متعثر الخطا . .

إلى أهداف غير واضحة ولا محددة . . وطبق دستور ـ من صنع البشر ـ قابل للتغيير والتحوير . . ومن ثم يظل متخبطًا فى التيه . .

أما المؤمن . . فهو ـ فى صحبة إيمانه بربه محددًا الهدف ، يمضى إليه على نور من ربه ـ أو هكذا يجب أن يكون ـ ومن هنا يصبح أقدر على اكتشاف سنن الله تعالى فى خلقه اكتشافاً يمكنه من امتلاك ناصيتها لحساب الإسلام . .

متى بدأ التفكير الاجتماعى

منذ فجر الحياة والإنسان ـ مدفوعًا بغريزة حب الاستطلاع ـ يتأمل ما حوله من ظواهر .. ثم هو ـ مدفوعًا بغريزة حب البقاء ـ يحاول السيطرة عليها والإفادة منها .

ولكن السؤال هو :

متى بدأ التفكير الاجتماعى يأخذ شكله العلمى المنظم بعد مرحلة التأمل الفردية ؟

يرى بعض الباحثين أن اليونانيين أول من بدأ هذا اللون من التفكير ..

يقول الدكتور عبد الباسط حسن :

(برع اليونانيون فى كثير من نواحى النشاط الإنسانى .

وبلغوا شأوًا عظيمًا فى العلوم التأملية التى تستند إلى النظر العلمى المجرد...

وكانت فلسفتهم تعبر عن روح العصر وطبيعة المجتمع الذى يعيشون فيه .

فالمجتمع اليونانى فى مرحلة انهياره كان مجتمعًا عبوديًا طبقيًا ينظر إلى كل عمل يدوى على أنه عمل غير دمث .

لذلك : فكل دراسة تحتاج إلى التجربة كانت فى نظرهم سوقية إلى حدٍّ ما .

وكان ينظر إلى الفكر والتأمل على أنهم من نصيب السادة ، أما العمل والفاقة فهما من نصيب العبيد) [١] .

بيد أن هذا القول وإن أفاد سبق اليونان فى هذا المضمار إلا أنه لا ينفى

---

(١) أصول البحث الاجتماعى / ٥٩ .

جهود الشرقيين أيضًا باعتراف المؤلف نفسه والذى تحدث عن قدماء المصريين فقال :

(لم تكن فكرة البحوث الاجتماعية غريبة عليهم :

فقد سجل هيرودوت الأبحاث التى كان يجريها ملوك مصر عن : السكان . . والثروة . لمعرفة حالة السكان واحتياجاتهم وحاجة كل إقليم من الغلال . والمقدار الذى يجب أن يحفظ لكل إقليم) [١] .

كيف نبدأ :

إذا كان علماء الاجتماع ـ في غيبة الإسلام ـ قد تنكبوا طريق الحق . . فلم يحققوا ما كان معقودًا عليهم من آمال . .

فإن قانون السير والنظر المفهوم من الآيات الكريمة السابقة ـ يفرض علينا الوقوف على خط انحراف القوم وأسباب ذلك الانحراف . .

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ الأنفال:٤٢] . والتخلية قبل التحلية . .

فما هى أسباب الانحراف ؟

منشأ الانحراف :

١ ـ فهم الباحثون هناك أن الخلق بدأ بنفسه . . بلاخالق .

ففقدوا بذلك بديهية الإيمان بالله عز وجل . .

وهذا التصوير الفاسد . . سوف ينعكس على كل قضية يبحثونها . . وسوف لا يصلون فيها إلى قرار . . بعد أن فقدوا ملكة التمييز بين الحق والباطل . . والتى هى أثر من آثار الإيمان بالخالق سبحانه

٢ ـ الخضوع للمزاج الشخصى وما يثمره من خلاف . .

(١) أصول البحث الاجتماع ٥٩ .

وتعدد النتائج بتعدد الباحثين .. ومن ثم سار الباحثون فى خطوط متوازية بحيث استحال اللقاء على كلمة سواء .

٣ ـ وحتى الذين يخضعون فى دراستهم للمنهج العلمى .. لم يكن خضوعهم إلا لونًا من التعصب الأعمى لذلك المنهج .. وقياس أفعال الله تعالى على أفعال البشر .

٤ ـ الخلط بين ما يمكن بحثه من الظواهر وما يستحيل أوقع الباحثين فى أخطاء أدت بهم إلى نتائج غير مسلمة ..

٥ ـ الاقتصار أحيانًا عند النظر فى الظواهر الممكنة على بحث قدر غير كافٍ منها لا يمكن الباحث من الوقوف على سنة الله تعالى فيها ..

مع فقدان الملاحظة العلمية الدقيقة .. والموازنة الواعية .. المؤدية فى النهاية إلى الحق فى الموضوع .

٦ ـ عدم الإلمام الكافى بحقائق التاريخ يجعل الدراسة مبتسرة .. ولا تسلط الأضواء فيها على كل زوايا الظاهرة موضوع البحث ..

٧ ـ طبيعة الإنسان نفسه حيث كان ذلك الإنسان فإنها تميل إلى ما يوافق مزاجها .. وتفر بطبعها مما يقيد هذا المزاج ..

والإيمان بالله عز وجل خير ضمان لعلاج هذا الخلل .

٨ ـ وكان الخطأ الأكبر ماظنه بعض الباحثين من أن الظواهر الاجتماعية لا يمكن إخضاعها لقوانين ثابته كما هو الحال فى مجال الطبيعة المادية ..

وكان لهذا الاعتقاد الخاطئ أثره الخطير فى حياة الناس .. من حيث زين لكثير منهم المعصية .. ما دام الأمر هكذا فوضى .. لا يخضع لنظام صارم ..

ومن هنا كان انحراف علم الاجتماع المادة .

أمثلة لما يبحثه علم الاجتماع

فى تطـور المجتـمع التدريـجى تعتـريه أمـور .. فى محـيط العـائلة أو الأسرة.. وعلى مستوى الأمة كلها ..

فى محيط الأسرة .

أحيانًا كان يسمح للرجل بتعدد الزوجات ..

وأحيانًا أبيح للمرأة أن تعدد الأزواج

وتارة لا يسمح بالتعدد كما فى المسيحية ..

ثم هناك الزواج الجماعى .. ومشاكل الطلاق ..

وفيما يتـعلق بنسبة الولد : فقد كان ينـسب تارة لأبيه وتارة لأمه .. أو إلى غريب ..

كل هذه الظواهـر يبحثهـا علم الاجتمـاع فى مزاملة لها بـغية تفسـيرها والوصول إلى سنن الله تعالى فيها .

بالإضـافة إلـى ما يـطرأ على المجـتـمع من أمـور فى جـوانبـه الدينيـة والاقتصادية .. والسياسية .. واللغوية والقضائية .. ثم النظم الأخلاقية .. كظاهرة الظلم .. والترف ..

فهناك مـجتمعـات زراعية وأخرى صنـاعية .. وثالثة تجـارية .. ولكل سماته وقوانينه الحاكمة ..

كما وأن هنـاك فى مجال الحكم نظمًـا ديكتاتورية وأخرى ديمـقراطية .. وأحيانًا سلطات شائعة : فلا حاكم ولا محكوم ..

ويأخذ علماء الاجتماع على عاتقهم تحليل هذه الظواهر تحليلاً يجعل من عبر الماضى ركيزة لحياة أكثر سعادة وأمنًا .

منشأ هذه الظواهر

اختلفت الآراء :

فمن قائل :

١ ـ الفرد : كنتيجة لتفاعل الأفراد تفاعلاً ينشأ عنه (عقل جمعى) ولكن هناك اعتراض : وأين هذا العقل الجمعى ؟

والجواب : الإنسان قد يقبل به وهو فى جماعة ما لا يقبله وهو وحده.. (لو طلبت من كل طالب اقتراح ميعاد للمحاضرة أنسب فكل له ميعاده المناسب من وجهة نظره .. لكن عند الاجتماع وتناطح الآراء ربما يعدل الفرد عن رأيه إلى رأى آخر بهذا العقل الجمعى ..

ومثل ذلك مثال المركب الكيميائى :

فالمركب يختلف فى خواصه عن العناصر الداخلة فيه

كذلك العقل الجمعى .. وعقل الفرد .

٢ ـ البيئة .. والطبيعة .. ؟

وقد اعترض على هذا الرأى :

أ ـ فالإنسان هو الذى يؤثر ..

ب ـ قد تكون البيئة واحدة .. واللغة مختلفة .. والعادات أيضًا والزرع يسقى بماء واحد ومع ذلك مختلف

ج ـ بل داخل الأمة الواحدة يحدث الاختلاف .. وعلى مراحل .

٣ ـ العامل الاقتصادى : وأجيب بالاعتراض أيضًا :

أ ـ فالاستقراء ناقص .. فقد تكون هناك عوامل لم تكتشف

ب ـ اعترفوا بوجود عوامل عقلية ودينية .. فلم لا ترجع الظواهر إليها

ج ـ وسائل الانتاج تتغير وتتطور . . أليس الفكر هو الذى يغيرها ؟

د ـ فى ظروف اقتصادية متشابهة . . ويحدث اختلاف .

فالإسلام والمسيحية . . نشأ فى بلادنا جنبًا إلى جنب

وهنا على هذه الأرض أسلم الولد وكفر الوالد والعكس مع وجود الحياة الواحدة . .

هـ ـ كان المفروض قيام الشيوعية فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا لتطور وسائل الإنتاج فيها . . لكنها قامت فى روسيا مع قدم نظامها . . قامت على أثر فكره فى رأس أحدهم وانتقلت بالعدوى إلى الدول العربية والإسلامية :

و ـ الإنسان بإيمانه هو مبدأ التغير ووراء تطور الحياة وحركتها . . وصولاً إلى التقدم مثال الخنساء : بكت على أخيها . ثم دفعت بأولادها للمعركة . ومن الرجال عكرمة وابنه عمر . .

فكل الأمم بتجاربها التى تتم خارج الإسلام فقضى عليها . بالفشل وهى تتحرك فعلاً ولكنها الحركة إلى أمام تارة وإلى الخلف أخرى . . وربما يعودون لنفس النقطة فيثبتون كروية الأرض !!

ولكن المسلم يجعل هذه الحركة تقدمًا حين يتحرك لحساب الإسلام . . وهذا هو الفرق بين نظرة البصر . . ولمحة البصيرة . . بين الحركة والتقدم . . بين الأرض والسماء

وفرة النتاج :

ولا تعود للعامل الاقتصادى كما يزعمون . .

وإنما كما قال الخالق عز وجل :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾

وفى الإسلام :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾

وفى النظام الشيوعى : يقود العمال لفساد النظام ؟!!

١ ـ رأى مونتسكيو :

من أهم العوامل المؤثرة فى الظواهر الاجتماعية ـ فى رأيه ـ العامل الجغرافى ، حتى إنه ليلحظ تأثيره على ميول الناس وأخلاقهم وطبائعهم وعاداتهم وتقاليدهم وطرق تربيتهم وتدينهم ، إلى غير ذلك من الظواهر الاجتماعية ؛ فالمناخ البارد مثلاً يزيد نشاط الناس وقوتهم ، فيولد فيهم الثقة بالنفس ، وتقل رغبتهم فى الانتقام وفى الملذات ، بعكس المناخ الحار الذى يقلل النشاط إن لم يعدمه ، ويولد عدم الثقة بالنفس ، والجبن والخوف ، وعادات وأخلاقًا سيئة . وشعوب البلاد الحارة خجولون مثل الشيوخ ، وتزداد فيهم أيضًا الرغبة فى الملذات . والمناخ أيضًا يؤثر فى الحساسية والانفعال ؛ ففى جل البلاد الحارة يضطرب الرجل لأول شيء له علاقة باتحاد الجنسين ، بينما يظل رجل البلاد الباردة جامدًا محتفظًا بهدوئه .

ولما كان ذلك كذلك وجب سن تشريع حكيم لأهل البلاد المتوسطة ، فهم فى حاجة إليه أكثر من أهل البلاد الباردة ؛ فقد انعدمت عند هؤلاء التشاريع فى عهد الرومان ، ومع ذلك استطاعوا الوقوف ضد سلطتهم . ويفسر مونتسكيو ظاهرة تعذيب الهنود لأنفسهم وتحملهم هذا التعذيب بجلد، مع أنهم من أهل البلاد الحارة ، بأن هذا قوة فى ضعف ؛ فالطبيعة التى منحتهم ضعفًا جعلهم خجولين ، قد منحتهم أيضًا خيالاً جعلهم يعتقدون أن هذا العمل خير لهم .

ويجب أن يعمل المشرعون حسابًا للعامل الجغرافى ، فيراعوا طبيعة كل أمة وما يلائمها من القوانين ، وما يكفل لها التقدم والرخاء . فالأمة كالطفل

يجب أن يتمرن على العمل تدريجيًا ، ويعجب مونتسكيو بتقاليد الصين فى احتفالهم بشق الأراضى ، وفى مكافأة الامبراطور لأحسن زارع ، ويرى أن فى ذلك تشجيعًا لهم وترغيبًا فى الزراعة .

وفى رأيه أن تحريم الإسلام للخمر فيه فائدة بالنسبة للبلاد الحارة فقط لا بالنسبة للبلاد كلها ، حارة كانت أو باردة ؛ فحاجة الفرد فى المناخ المختلف كونت طرق العيش المختلفة ، وهذه كونت شتى القوانين .

ويقرر مونتسكيو أن الاستعباد السياسى يعتمد على المناخ ، وكذلك يعتمد الاستعباد المدنى عليه ؛ فأفراد أمة واحدة يتميز بعضهم عن بعض ، يكون من الخطأ أن يظن أنه فى أمة حارة يكون جميع الأفراد عبيدًا ، وأن فى أمة باردة يكونون كلهم أحرارًا ، وإلا لما سارت الأمور فى مجراها الطبيعى . . . ويضرب مونتسكيو لبيان أثر العامل الجغرافى فى الاستعمار السياسى مثلاً وهو :

أن آسيا خضعت ثلاث عشرة مرة للاستعمار ، بينما أوربا لم تخضع أكثر من أربع مرات .

هذا من ناحية العامل الجغرافى ، أما من ناحية العامل الدينى فإن مونتسكيو لا ينظر إلى الأديان إلا باعتبار الخير الذى يعود منها على الدولة المدنية ، ويرى أن للعامل الدينى تأثيرًا كبيرًا فى الظواهر الاجتماعية ؛ فالدين المسيحى دافع كبير لتشريع القوانين ، والحد من سلطة الحاكم الذى يرى فى نفسه العجز عن القيام بكل شىء . فهذا الدين إذن مانع لقيام الاستبداد ! لأن الله أوصى فى الإنجيل بالمعاملة الطيبة . والأديان غير السماوية أيضًا لها تأثير فى الظواهر الاجتماعية ؛ إذ إن الدين حتى ولو كان خاطئًا هو أفضل ما وصلت إليه الأمم فى إصلاح شعبها . ويرى مونتسكيو أن التدين يجب ألا يشغل الناس عن أداء واجباتهم بكثرة التأملات .

فهو
ذلك مر
معتدلة
على غا
بعيدون
والرقى
المتوسط
الحكوم
يعدم اب
العـرب
وتلطف
الاعتدا
المناطق
المعتدلة

العامل الجغرافى

(فلهذا كانت العلوم والصنائع والملابس ، والأقوات والفواكه .. بل والحيوانات .. وجميع ما يتكون فى هذه الأقاليم ـ المعتدلة ـ الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال . وسكانها بين البشر أعدل أجسامًا وألونًا وأخلاقًا وأديانًا حتى النبوات .. فإنما توجد فى الأكثر فيها .

ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم .

وأخلاقهم قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله

وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فنجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم .... وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال ..... فأهلها أبعد من الاعتدال فى جميع أحوالهم..... وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم ... والسبب فى ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال بقروب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم فى الديانة أيضًا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو فى الأقل النادر)

مقدمة ابن خلدون فصل فى

المعتدل من الأقاليم والمنحرف

رد مزاعم الشيوعية
بتفرد العامل الاقتصادى بالتغيير الاجتماعى

يتلخص الرد فى أمور :

١ ـ تراجع «انجلز» زميل «ماركس» عن رأيه فى تفرد العامل الاقتصادى بالتغيير فى قوله :

(إنه هو و«ماركس» قد بالغا فى تقدير أهمية الأسباب الاقتصادية) [(١)] .

أى أنَّ سدنة التفسير المادى للتاريخ يعودون إلى ما يقرره الإسلام من وجود عوامل أهم من العامل الاقتصادى الذى لا يستأهل هذا التركيز .. وأن أثره فى التغيير الاجتماعى محدود .

٢ ـ من مقررات الشيوعية :

أنّ الثورة السياسية تابعة للثورة الصناعية .. مع أن الواقع الشيوعى يكذب هذا الاتجاه .. فقد حدثت الثورة الروسية بعد الحرب العالمية الأولى.. وكانت روسيا فى ذيل القائمة من الناحية الاقتصادية .. ولكن حدثت النهضة الصناعية بعد الثورة السياسية .. وما يقال فى روسيا يقال فى الصين :

فقد اخترعت الإبرة المغناطيسية مثلاً بعد ثورتها السياسية عقب الحرب العالمية الثانية .

٣ ـ على مدار التاريخ تظهر عباقرة .. فهل هم نتاج العامل الاقتصادى؟ .

وإذا كان الأمر كذلك فلم لم يكن كل الناس عباقرة ؟!

---

(١) الشيوعية نظريًا وعمليًا «لكاريو هنت» ٦٤ .

٤ ـ مع وحدة الوضع الاقتصادى للمجتمع إلا أن هناك تناقضات فى التفكير بين أعضائه . . فبماذا نفسر هذا التباين . .

إنه الفكر الواقف وراء هذا التغيير . . وليس هو العامل الاقتصادى . .

٥ ـ قد يحصل الجائع على الخبز . . لكن يظل مستعبدًا مقيدًا ! (١) .

٦ ـ إن البيئة كانت كذلك مع الإنسان البدائى . . ومع ذلك لم يتطور . .

لكنه لما انفصل عنها . . سيطر عليها وأخضعها لإرادته .

وكيف تساوق البيئة ـ وهى مظهر مادى ـ تطور المجتمع بينما هو سريع فى تغيره وتطوره ؟

يقول باحث :

[ويمكن وبلغة العصر ـ أن نسمى تفكير مشركى مكة ومثله معه بالتفكير المادى . . الذى يجعل للمادة المحسة ولقوانينها السلطان الذى لا سلطان وراءه فى التغيير . .

ولو صدقت نظرتهم لما هلك الذين من قبلهم ولما دمر الله عليهم . مع أنهم كانوا أشد قوة وأكثر آثارًا وعمرانًا .

وإنما الصواب أن تغيير المجتمعات أو استمرارها رهن بتأثير القوى المادية التى هى مظهر لقوى أخرى أغلب هى : القوى الروحية الفاعلة أصلاً وهذا هو الأمر .

وإلى هذا الرأى ذهب المرحوم الأستاذ العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام. وأباطيل خصومه » . . قال :

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل

---

(١) من مقال للدكتور غريب الجمال بتصرف .

خصومه » : « ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن لعامل من العوامل الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من الحركات المؤثرة فى حركات الأمم فإنما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة ، فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة ، هذه القوة لا تضارعها القوة العصبية ولا قوة العرف ولا قوة الوطنية ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين إذا كانت هذه القوة ، إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام ، أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، وآباد لا تحصى فيما يتكشف عنه عالم الغيوب ، وهذا على الأقل ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى وغايتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور] إذن .. فالإنسان هو مبدأ التغيير وأداته ..

طبيعة الصبى

إن الله ـ سبحانه ـ فطر الطفل على حب الاستطلاع والتشوق إلى معرفة المجهول ، وذلك كى يتعلم ويفهم هذا العالم الغريب الذى دلف إليه . والمشكل أن فى تقاليدنا الثقافية الموروثة ما يقف حجر عثرة فى هذه السبيل ، حين استقر فى أذهان معظم الناس أن طرح الأسئلة أمارة على الجهل ؛ لذا فإن هناك عزوفًا شديدًا عن السؤال ، وهذا مخالف للرؤية الإسلامية التى يمثلها ابن عباس رضي الله عنه الذى كان ثمرة ناضجة من ثمار التربية النبوية . . حين قال له :

يا غلام : « احفظ الله يحفظك » . . الحديث . .

ثم وعى الحديث . . فأداه كما سمعه مع أنه كان صبيًّا

ومن أسباب الطلاق أيضًا :

ست اخواتها . . سبب الطلاق :

بعد مرور عامين من الزواج . . رزقهم الله بتوأم ولد وبنت . . ووافقت الزوجة على إطلاق اسم حماها وحماتها على الولد والبنت بشرط أن يحدث العكس فى حالة المواليد الأخرى . . ووافق الزوج رغم أن العلاقة لم تكن على ما يرام بينه وبين أهل زوجته وشاءت الأقدار بعد مرور خمس سنوات أن تحمل الزوجة . . وكانت المفاجأة توأم آخر . . ورزقهما الله للمرة الثانية بولد وبنت وعلى الزوج أن يفى بوعده . . لم يمانع فى اسم (حماه) على الولد . . واعترض على إطلاق اسم حماته على البنت . . لأن اسمها (ست اخواتها) . . فغضبت الزوجة وغادرت منزل الزوجية ورمى عليها اليمين ، وتدخل العقلاء من أهالى الطرفين وتوصلوا لحل وسط . . هو إطلاق اسم دلع الحماة على البنت ووافق الطرفان . . وأصبحت البنت «هانم» . . والدلع «الست هانم» .

ولقد تذكرت الآن ما قاله واحد من الكاتبين : إنه فى داخل كل رجل شرقى: قرار سرى بالطلاق . البعض يعلنه على الملأ . والبعض يظل قراره واقفًا فى (زوره) لا يستطيع ابتلاعه .. ولا يملك شجاعة الإفراج عنه فى الهواء الطلق . والحمد لله أن قرر أن ذلك داخل « الرجل الشرقى » وليس الرجل المسلم ..

المسلم الذى يعلم من دينه أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق .. ومن ثم لا يتورط فيه إلا بعد نفاد كل محاولات الإصلاح ..

هذا الدين الذى كان بسببه صابر واحد من الصالحين مشاكسة امرأته .. ولما سئل لماذا لا تطلقها قال :

أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيرى .. فأدخل بسببه النار ..

ولابد لك من البحث عن جذور هذه المشكلة الآخذة بخناق الأسرة المسلمة.. ونقرر سلفًا . أن البناء القائم على أساس متين . لا ينهار ..

وتبقى القوة تقول :

إن الأسرة التى لم تشيد على الدين ابتداء .. فإنها قائمة على شفا جرف هارٍ.. سرعان ما يتهاوى أمام هبة النسيم . وقد حاول المجربون من علمائنا تتبع جذور هذه المشكلة .. فماذا وجدوا ؟

يقول أحد الباحثين :وإذا كان المطلوب هو الاقتراب من الجيل الجديد إرادة فهمهم وسلامة التعامل معهم ، فهذا ما تكفل به المنهج الإسلامى فى التربية :

أولاً: يسجل ابن جماعة فى كتابه القيم « أدب العالم والمتعلم » أسلوبًا من الأساليب المعتمدة عند المربين فى عصره لاكتشاف طاقات الأفراد وإمكاناتهم إذ جعل (من واجبات المعيدين وهم أكثر اختلاطًا بالطلاب وأكثر معرفة بقدراتهم أن يخبروا المعلمين عن الأذكياء النابهين منهم لتزداد عناية

المعلمين بهم وليقدموا لهم من التعليم ما يناسبهم وما يتلاءم مع قدراتهم)

وثانيًا : و(كما قيل بحق): يحفز الناس على التعلم والاكتشاف والنظر ، يقول الله ـ سبحانه ـ : ﴿ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان:٥٩] إن طرح الأسئلة لا يقل أهمية عن تقديم الأجوبة . والسوية الذهنية التى يتطلبها كل منهما كثيراً ما تكون واحدة . علينا ألا نضيق ذراعًا بأسئلة الأطفال ، بل نجيب عليها بحرص واهتمام . وإذا كنا لا نعرف الأجوبة ، فلنجهر بذلك ولنعد بمحاولة العثور على جواب ما نسأل عنه . وإذا ألقى الطفل سؤالاً غير مناسب ، فلنقل له : سوف تكبر وتعرف الجواب ، أو نقول : إن الجواب لا يفيدك الآن فى شىء . المهم ألا نحبط شهية الأطفال للمعرفة . قد يكون من المفيد أن نطرح نحن الأسئلة على الأطفال ، ونستمع إلى إجابتهم، ونصحح لهم تلك الإجابات على نحو يشعرهم بارتياحنا لتداول التساؤل وتداول المعرفة .

مِنْ هدى السنة :

سأل أبو هريرة رضي الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم : من أحق الناس بشفاعتك: فقال : « "كنت أعلم أنه لا يسأل هذا السؤال غيرك » .

فالمدرس يعرف تلاميذه . ويشجعهم على السؤال والحوار . . وخلال ذلك تبدو استعدادات الطالب الذى يوجه إلى ما يحسنه من تخصص.

وهنا نذكر :

ابن جماعة ـ أحد كبار المعلمين المسلمين ـ الذى يجعل من أولى مهمات المعلم اكتشاف قدرات ومواهب طلابه لتوجيهها الوجهة النافعة ، فيقول : (كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يلقون شباك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع به الناس فى حياتهم ومن بعدهم)

ولا شك أن طرقهم فى التدريس ووسائلهم الخاصة التى يحصلونها

بالتجربة هى التى كانت تساعدهم فى اكتشاف هؤلاء النوابغ .

والإمام الغزالى فى إحيائه يعقد فصلاً طريفًا لبيان وسائل اكتشاف النفس والحكم عليها فيحددها فى أربع وسائل ينقد ثلاثًا منها ويرفضها ويقبل الرابعة ويحبذها ، فالوسيلة الأولى هى : الاستبطان الذاتى ، والوسيلة الثانية هى : ملاحظات ونصائح الصديق الصدوق ، والوسيلة الثالثة هى :اتهامات العدو الكاشح، والوسيلة الرابعة هى : ملازمة الشيخ الربانى .

وهذا الأسلوب الفريد المعطاء الذى تميزت به التربية الإسلامية تسعى التربية الحديثة للوصول إليه إيمانًا بمنافعه . ولكن دون جدوى . وقد حاولت بعض التجارب التربوية الحديثة للحركات الإسلامية إحياء هذا الأسلوب وأثبت بالفعل نجاحًا فكان ما كان من ثبوت صحته . . بل وتفرده . . فى إنشاء جيل جديد من الأبناء . . مستعد لتحمل الأمانة .

المشكلة .. والحل :

تلك هى المشكلة . . أما الحل فهو : اظفر بذات الدين فإذا لم تكن ذات دين . . فلتتحمل نتيجة اختيارك :

نقول هذا للرجل والمرأة على سواء :

وبدون هذا الأساس لا يكون وفاق . . ومهما حاولت الزوجة اللجوء إلى « دكان العطار » وصولاً إلى امتلاك قلب الزوج . . فسوف تضيع جهودها سدى وأهم من ذلك كله هو : تنمية المناعة بالرضا الذى تكون به أغنى الناس . . فإذا لم ترتفع إلى أفق الرضا . . فهناك أفق الصبر . . فلا تنزل عنه هذا الصبر الذى يصنعه « الدين » والذى يمنحنا القدرة على مواجهة المواقف الصعبة:

وصدق الله العظيم : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤]

الولد البكر

ويحتل «الولد البكر» مساحة اهتمام الوالدين كلها :

فقد تطلعت النفوس إليه . وتعلقت القلوب بحبه ، الأمر الذى يتغاضى الوالدين مراعاة الحذر فى تربيته . . حتى لا يفسده الدلال والقاعدة تقول لرب الأسرة :

لا تحب كلفًا ولا تبغض تلفًا ! بمعنى :

لاتبالغ فى حبه . . ولا تبالغ فى بغضك للآخرين . . ولتكن وسطًا فى الأمة الوسط . وهكذا الأب الناجح :

إنه يمر من «غربال» الزمن يجتاز به كل المراحل منتصراً . . متجاوزًا أيضًا عامل السرعة . . وما يهرف به اللائمون :

إن (شكسبير) لم يعرف إلا بعد وفاته بمائة وخمسين عامًا ؟!

وبطل « الرواية» نجيب محفوظ وصفته مجموعة من النقاد بأنه : كان عقبة فى طريق الرواية ؟!

وإذن . . فتمهل . . موقناً بأن نجاح التربية غاية عليا . . لا يعدلها كنوز الأرض جميعًا . وخذ هذا مثالاً دليلاً على ذلك :

ذهب المعتصم ليعود عاملاً من عماله ، وكان لهذا العامل ولد «ذكى» الفؤاد ، سريع الخاطر ، حاضر الجواب . فلما رآه المعتصم قال له : دارى أحسن أم دار أبيك ؟ فقال الغلام : ما دام أمير المؤمنين فى دار أبى فهى أحسن فَسُرَّ منه ثم أراه خاتمة الذى بيده وقال له : هل رأيت أحسن من هذا الخاتم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اليد التى هو فيها . فسر المعتصم لذكاء الغلام وسرعة خاطره ، وانتزع الخاتم من يده وكافأه به . وأنشد قائلاً :

نعم الإله على العباد كثيرة   وأجلهن نجابة الأولاد

التربية الاستقلالية

ونقرأ فى التربية الاستقلالية . . التى تجعل من الابن رجلاً مستقلاً : نقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ [ص: ٣٠ ـ ٣٧] .

هكذا يستقل الابن بقراره . . فلا يكون نسخة مكررة من أبيه وبذلك تمتد الحياة . وتزكو . وتجدد .

ونحن اليوم نصنع المتاعب . . ثم نشكو منها !؟ نتسابق وراء المال وإذ تهبط قيمة هذا المال فإننا نسرع أكثر!! مع أن سعادتنا فى قلوبنا التى لا تطمئن إلا بذكر الله . . وفى ذرياتنا التى هى امتداد أعمارنا

ويتم ذلك . . مادامت التربية قائمة على أصولها وهى :

الأولى : اكتشاف المواهب . .

والثانية : إعلاؤها . وحمايتها من كل ما يحيط مفعولها .

ومن وسائل (الأولى) : الملاحظة . .

ومن أمثلتها : (وصية الرسول ﷺ . إلى جابر بن عبد الله عند إقباله على الزواج :

إذ دعاه لإمعان النظر . . وأباح تكراره . ليتخذ القرار السليم .

كما نجد كذلك وصية عمر رضي الله عنه فى اختيار القادة .

وقد حققت هذه التربية هدفها . .

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى (الإحياء) :

قال الوالد لولده : يا بنى : إنى سألت ربى أن يهبك لى .. لتقر عيناى بك .

فقال له ابنه « يحيى » : يا أبت : إن جبريل أخبرنى بأن بين الجنة والنار مفازة .. لا يقطعها إلا كل بكاء .

فقال « زكريا » : يا بنى : فابكِ !![1]

(١) الإحياء / ج٤/ ١٩٢ .

مسؤولية الوالد

ويتم ذلك كله بشرط أن يؤهل الوالد نفسه أولاً . . وقبل أن يحاول أخذ ولده بعزائم الأمور . . وقد قالوا :

إن الرجل القذر : لا تغنيه قطعة الصابون يحملها . .

وكريه الرائحة . . لا يشفع له أنه يحمل زجاجة عطر !

ومن هؤلاء الآباء العظام : لقمان :

قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى : عليك بمجالس العلماء . .

واستمع كلام الحكماء . فإن الله يحيى القلب الميت بنور الحكمة . كما يحيى الأرض بوابل المطر. وإياك والكذب . . وسوء الخلق . فإن من كذب . . ذهب ماء وجهه . . ومن ساء خلقه . . كثر غمُّه . . ونقل الصخور من موضعها أيسر من إفهام من لا يفهم !!

من معانى التربية

وهكذا كان الآباء يربون أبناءهم . . وتأمل معنى التربية . . فماذا ترى .

يشتق معنى التربية من الفعل الماضى (ربا) بمعنى نما . . وزاد . . على وجه التدرج

وهى فى النهاية كما يقول المربون :

(تشكيل اتجاهات الفرد وفق قيم معينة . وإعانتهم على تكوين النظرة السليمة إلى الحياة .

وهى مقترنة بالتعليم :

الذى يصقل ملكات الفرد . وينمى مواهبه فى شتى مجالات الحياة)

غريزة الأبوة

وإذا كان الولد يحب والده .. عاطفة ..

فإن حب الوالد ولده : غريزة ..

ومن أجل ذلك .. كانت وصية القرآن للولد أن يرعى والديه.. لأن نهمه الولد فى مستقبله :

مع زوجه .. وأولاده .. مستدبراً والديه..

ولم تكن العاطفة بقادرة على الوفاء بحقهما لهذا السبب ..

أما الوالد : فلأن حبه لولده مغروز فى كيانه .

فلم يكن بحاجة إلى الوصية ببضعة منه يحبها فطرة ..

قيل : ولد سليمان بعد أن تجاوز داود السبعين وذلك يعنى :

أننا لا ندرى أى البنين أنفع : من ولد فعلاً .. أو ما سوف يأتى به القدر. .المهم أن يكون صالحًا ..

وأهم منه : ألا نفكر فى الإجهاض اكتفاءً بما هو موجود من أولادنا .. فنحن لا ندرى أى الولدين خير مقامًا ؟!

ومن معانى ذلك : أنه إذا كان الزوجان سيجد كلاهما عوضًا .. فإن خسارة الأولاد لا تعوض !

وتلك هى نتيجة تسرع الأجداد الذين اتخذوا قرار الزواج رغم أن الزوجين معاً تحت العشرين. لقد كانت حجة الأجداد داحضة عندما اتخذوا من الزواج سبيلا إلى (فرحتهم) بأبنائهم .. بيد أنهم لم يدركوا الثمرات المرة التى يمكن أن يسفر عنها الواقع الأليم : وكان قرار (الطلاق) مر المذاق ..

وقلت للجدود : إن صغر السن مانع من نضوج الرأى فى ذهن الصغير:

وفى العمر متسع لتغير الآراء التى نشكو منها الآن :

لقد وافق (الصغير) على الزواج تلبية لرغبة والديه . . وقبل أن تنضج الفكرة فى ذهنه تمامًا . .

فلما رأى وسمع بعد ذلك تبين له أنه كان متسرعًا . .

وهنا يثور والد الزوجة عاتبًا . . بل غاضبًا : كيف يتحول (الولد) عن ابنته إلى غيرها إرادة الزواج منها ؟

وكان من الممكن أن يخفف من حدة الانفعال إذا تصور أن (الولد) لأنه صغير . . ففى عمره متسع لتغيير رأيه . .

وحتى إذا تزوج بأخرى . . فسوف يدرك أن ذلك الإجراء لم يكن له ما يسوغه . .

ومن أجل ذلك لن يكون الفراق هو الحل . . وإنما هو الصمت فترة من الزمان يدرك فيها كل طرف حجم خسارته لو تم الطلاق .

أجل يدرك فيه الزوجان عنف الصدمة . . ومرارة الحياة فى حس الصغار الذين تعارك الأسود . . فدمرا ما تحتهم من الأعشاب الخضراء . . تحت أقدامهم ! الثقيلة المتدافعة !!

لماذا نقترح الطلاق حلا لمشكلة يمكن حلها دون اللجوء إليه ؟!

دعوا الناس يتحدثون . .

ودعوا الأجداد يتفكرون . .

ودعوا الأزواج يتأملون : كيف كانوا . . ثم كيف أصبحوا . .

وقلت للزوجة المفتونة بما قرأته عن الزوجات الأجانب :

حتى فى أوروبا .. النساء مظلومات !

برغم الإنجازات التى حققتها المرأة الأوروبية خلال العقدين الماضيين،

والتى أصبحت حلماً لجميع الحركات النسائية فى العالم الآن دراسة جديدة لجامعة كامبريدج البريطانية تقول : إن النساء فى أوروبا مظلومات وإن حالهن لم يتغير عما كان عليه قبل عقدين من الزمان ، فالمرأة تعمل أكثر وتتقاضى أجرًا أقل وهى الأقل فرصة فى الترقى والنساء يتحملن عبء العمل المنزلى أضعاف ما يتحمله الرجال وعملن ساعات إضافية فى أماكن عملهن سعياً للحصول على أجر أعلى وكل هذا الأعباء الإضافية التى تتحملها المرأة تأتى على حساب تجويدها لعملها وتقلل من فرصها فى الترقى ، فى الوقت الذى يكون فيه الرجال أكثر تركيزاً . الدراسة أكدت أن واحدة من بين ست نساء فى ٢٧ دولة أوروبية شملها البحث وصلن لمناصب قيادية ، وإن أغلب النساء العاملات فى الجيوش الأوروبية تعهد إليهن الأعمال الإدارية والطبية والرعاية الاجتماعية وقليلات من يصلن لمناصب قيادية .

ويبقى الود . . ما بقى العتاب

لقد أمسك الأجداد أطراف الحديث . . فيما يشبه أن يكون دفاعا عن النفس . . مع أنهم سبب المشكلة الرئيسى .

ولأمر ما يقول عز وجل : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾

المهم ألا يتدخل الوالدان هنا :

فقد رأيت شدة تمسك الأجداد بآرائهم . .

هذه الشدة التى يقف من ورائها : شدة تعلقهم بأبنائهم . .

وعليهم أن يفسحوا الطريق أمام (حكماء) العائلتين . . فحكمهم أصوب. ورأيهم أشمل . وهذا حكم الله . . ومن أصدق من الله حكمًا ؟!

من آثار الزوج المتسرع

من خلال تعاملنا مع شرائح المجتمع المختلفة فى الحياة العامة والحياة الوظيفية نشاهد ونسمع عن كثير من النماذج ، فالزواج القائم على مصلحة دنيوية فاشل فى كل الحالات وبخاصة من جانب الشاب .. فعندما يشعر الشاب أنه حقق ما يريد يضحى بكل شىء من أجل الخلاص من هذا الزواج غير المتكافئ ، فعلى سبيل المثال نذكر أن مواطنًا تزوج بأجنبية قبل أكثر من عشرين سنة أغراه جمالها وأحلامه فى السفر والحصول على جنسيتها وإقامة فى بلدها .. فتزوجها وقضى معها أسوأ أيام حياته ، فتنكرت للعشرة وأذاقته الويل ومن ثم لم تعطه أولاده .. وهناك قصص كثيرة تحدث لشبابنا فى مثل هذا الزواج .

وتقول : يجب أن يكون الزواج مبنيًا على أساس سليم ، والأفضل أن يتزوج الشاب بمن يعرف دينها وأمانتها ، وأن يبحث عن الأسرة التى يعرف دينها وأمانتها وأرى ضرورة قيام العلماء والدعاة والموجهين بدور التوعية بخطورة وأضرار مثل هذا الزواج الذى يبنى على المصلحة الشخصية ، ولو أن هذا الشاب وأمثاله وقف مع نفسه فترة وجيزة ليفكر فى هذا الزواج الذى ربما يفشل بسرعة كبيرة فشلاً ذريعاً ومتوقعًا ومنتظرًا ما تقدم خطوة واحدة لإقامة هذه العلاقة .

ويظل الصغار هم الضحية .. وهم الذين يدفعون فى النهاية (فاتورة) الحساب .. وإذن فعلى كل من يزعم حب هؤلاء الصغار أن ينحاز لكل رأى يدعو إلى رأب الصدع .. ولمودة الشمل جميعًا .. كما كان .

لتظل الشجرة ظليلة : يأوى إليها الحران .. فى صحبة الدروس المستفادة مما حدث .. حتى لا يتكرر الخطأ .

أما بعد : فقد نوهت الأم بتفضلها لما وافقت على رفض الوظيفة . وقلت لها .

«شغل البيت» ليس مجانًا :

هل فكرت الزوجات غير العاملات من قبل فى تقدير قيمة شغل البيت ورعاية الأطفال ومواجهة الزوج بالمبالغ المستحقة عن ذلك ، بحث بريطانى جديد يقدر قيمة عمل المرأة فى بيتها بمبلغ ٣٠ ألف جنيه استرلينى وأن المرأة تقضى ٢٧٣ دقيقة يوميًا فى رعاية طفلها وهو ما يستحق عنه ٣٦,٨ جنيه وتقضى ٧١ دقيقة فى تنظيف البيت وهو ما يستحق ٧ جنيهات ويستهلك الطبخ من وقتها ما يعادل ١٧ جنيها وأن أية ربة منزل لو قامت بهذه الأعمال فى بيوت الآخرين لجنت ٣٠ ألف جنيه استرلينى سنويًا أو ما يعادل ٦٠ألف دولار أمريكى .

أما بعد :

فمن رعاية الإسلام للمشاعر : قوله للجار اشتر فاكهة ما شئت . .

ولكن . . ليكن شكرك لهذه النعمة :

١ـ أن تجعل لجارك نصيبًا منها .

٢ـ فإن لم تعطه . . فلا يخرج صغارك بها .

٣ـ ومن واجبك أن تفسر لهم حكمة الموقف .

أين هذا مما قد يحدث اليوم :

هناك جار «شبعان» لكنه يترك جاره جائعًا !

ومن هؤلاء من أجلس فى مدخل داره «تمثال أسد» بينما جدار جاره مائل ! !

ونعود على بدء لنقول للزوجات الواهمات : إنه بالمودة تتجدد صلتك بالزوج . . وتبقى . . بالمودة . . وليس بالروائح النفاذة ؟!

رأى ابن خلدون

يقرر ابن خلدون :

(أن البيئة الجغرافية هى السبب المباشر فى اختلاف البشر جسميًا وعقليًا ونفسيًا وخلقيًا وإدراكًا .

وهى التى تميز المجتمعات فى تقاليدها وعاداتها ومنازعها . واقتصادياتها وشئونها السياسة والقضائية والعائلية والدينية) [١].

فابن خلدون هنا يرجع للبيئة هذا التأثر الفعال فى حياة الفرد والمجتمع . .

وحتى نفهم رأى ابن خلدون على حقيقته نقول :

إن للإنسان وجودين :

(أ) له وجود مادى بـه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . وتجرى عليه السنن المادية .

(ب) وله أيضًا وجود إيمانى :

فهو رسالة ـ تستهدف غاية . .

فالوجود الأول يتأثر بالبيئة . . وينفعل بها . .

أما الوجود الإيمانى فهو سلاح التغيير . وحاجة العالم إليه ماسة .

لأنه روح ذلك العالم ـ كما يقول بعض العلماء ـ التى تتبدل الأرض من حوله وهو ثابت . وهذا العالم تراثه . . وحده لا يشاركه فيه أحد .

ثم يلفت نظره عليه السلام إلى ما سوف تسفر عنه المواجهة من صدام ينبغى أن يستعد له من الآن . .

---

(١) راجع المقدمة ٤٨ .

هذا الصدام الذى هو سنة من سنن الدعوة لا مفر من تحمل مسئوليته .. ماضيًا إلى الأمام .. غير حافل بمكر الماكرين ..

إن الكفاح من أجل الدعوة هو الحياة .. بقدر ما كان الجبن هلاكًا ودمارًا:

﴿ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾

إن القوى العدوانية التى سوف تتربص بك :

فارغة الكيس ..

فارغة القلب ..

فارغة الغمد ..

إنها الكيانات الهشة التى تخاف الموت ..

أما أنت .. فتقدم .. فأنت الذى يخاف منك الموت !

ذلك بأن آيات الله معك .. تشد من أزرك .. وتبلغ بك مأمنك :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾

ويطوى السباق الزمن هنا .. وكأنما يواجه موسى الأعداء فعلاً .. فى معركة تنتهى بانتصار الحق ..

وما يترتب على ذلك من إحساسه بالثقة والأمن قبل أن يخوضها فعلاً..

بل إن شحنة الثقة بالله تعالى لتقف به الآن موقف الاستعداد للمواجهة.. بادئًا بفرعون :

لأنه رأس الفتنة .. وقومه يحتطبون فى حبله ..

وهو الأشد كفرًا وطغيانًا ..

وهو الذى بلغ طغيانه مداه حين تطاول على مقام الألوهية العالى ..

ومن ثم .. كان أول المنذرين .. وكان لابد من الاستعداد لملاقاة هذا الخصم العنيد .

أهمية الوجود الإيمانى :

كان من الممكن أن يظل القرآن فى اللوح المحفوظ ليحكم الأرض من سماواته العلى ..

ولكن الله عز وجل أراد أن يبين لنا أهمية العنصر البشرى فى السير بالحياة إلى الأفضل .. فأنزله على رسوله ﷺ .. ليأخذ البشر دورهم فى حسم القضية بين الحق والباطل .. بما أوتوا من الإيمان بالله عز وجل ..

وفى تاريخنا الإسلامى شواهد على قدرة المؤمن على التغيير والتأثير فى مجرى الحياة .. بعيدًا عن كل الصور الأخرى التى اخترعها الإنسان :

(أ) عندما أرسلت قريش .. عتبة بن ربيعة .. إلى محمد ﷺ ليفاوضه.. عرض عليه المال .. وخاطب فيه غرائز السيطرة والجنس .. فأغراه بالرياسة والزواج بعشر نسوة لو أراد ..

لكنه ﷺ رفض كل هذه المغريات .. وليس وراء هذا الموقف الثابت إلا عامل الإيمان وهو أقوى من كل هذه المغريات جميعًا .

(ب) عندما وصل خالد بن الوليد من العراق .. إلى اليرموك ! ليقود المسلمين فى مواجهة الروم .. قال له نصرانى عربى :

ما أكثر الروم .. وأقل المسلمين ؟!

قال خالد :

أبالروم تخوفنى ؟!

إنما تكثر الجند بالنصر .. وتقل بالخذلان !

وايم الله لوددت أن « الأشقر » - يعنى فرسه - برئ من وجعه وأنهم

ضاعفوا عددهم !!

وكان تعداد الروم حينئذٍ : ٢٤٠٠٠٠ / مائتين وأربعين ألفًا يقابلهم من المسلمين ٣٦٠٠٠ ستة وثلاثون ألفًا !!

وتحقق النصر فعلاً

وصدقت نبوءة خالد :

فقد كان نظر هذا المثبط إلى الجيش بالعين المجردة .. ووزنه بميزان الأحجام والأرقام ..

خلفت نظرة خالد رضي الله عنه إلى أن ثقة الجندى بربه وأخذه بأسباب النصر تجعله أمة وحده إلى جانب قوى أرضية فقدت ثروة الباطن الإيمانية .. فخذلها هذا الخواء وإن كانت أكثر عدداً..

وانظر كيف تمنى خالد أن لو كان فرسه صحيحًا .. إذن لمال به الميزان وهزم به ذلك الجمع ..

وطبعى أن ذلك لا يتم إلا بفارس مؤمن يملك وحده ـ فى إطار من سنن الله تعالى فى النصر ـ أن يغير مسار الأحداث

(جـ) ويروى أن « هرقل » لما رأى المؤمنين يكتسحون الروم قال :

ويلكم : هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم .. أليسوا بشرًا مثلكم ؟

قالوا : بلى ..

قال : أنت أكثر أم هم ..

قالوا : بل نحن أكثر أضعافًا !

وهنا سأل مستشاره عن سر انتصارهم قال :

إنهم ينتصرون علينا لأنهم :

ـ يقومون الليل . . ويصومون النهار .

ـ يوفون بالعهد

ـ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

ـ يتناصحون بينهم .

ـ فرسان بالنهار . . رهبان بالليل

ـ لا يأكلون فى ذمتهم إلا بثمن

ـ فتطاير قلبه ، وقال :

لئن كنت صدقتنى . . ليملكن موضع قدمى هاتين)

وقد أدرك هرقل بفراسته أنهم يملكون عزمًا كعزم المرسلين . .

وهو عدة لا قبل لقومه بها . . إنها فضائل الإنسان وسلاحه الذى يغير به الواقع . . على خلاف ما يتوقع الماديون

وعندما أسر القديس « لويس التاسع عشر » فى المنصورة . . ثم عاد إلى فرنسا أكد لقومه :

أن هزيمة مصر لن تتم بالحديد والنار . .

بل بالتغيير الباطنى . . بإفراغها من إيمانها بربها سبحانه عن طريق الفكر الخداع . .

الأمر الذى يفرض علينا صياغة المسلم ليصلح لقيادة الحياة . .

بتغيير نفسه من الداخل . . بالتزكية . .

وتغيير أهدافه . . وآماله . . وحوافزه . . ونظرته إلى نفسه وإلى المجتمع . .

تغيير أعماقه . . بشحنها بفضائل الإيمان . . ليصلح . . ويصلح المجتمع من حوله . .

ودفعًا بالمسلم إلى هذا الأفق العالى . . يجيب « مالك بن نبى » عن هذا التساؤل : كيف يكون التغيير نقطة الانطلاق فيقول [١] :

١ ـ القدرة على تجاوز السكون . والهمود . بفضل إرادته التى تغير مجرى التاريخ

٢ ـ قدرته على استشعار الخطر . وتقدير حجم الكارثة . فلا يستقر ويعتريه « قلق محض » . كما يتجاوز المحن فيعود إلى فعاليته الإيجابية .

٣ ـ القدرة على « تلبس نفسية المتجاوز » لقضايا ثانوية وهامشية حتى تبدو الحياة ببهارجها وزخرفها تافهة .

فليسمو إلى المجد والخلود الذى ينأى به عن « الدونية »

الإنسان المسلم مبدأ التغيير :

وهو يقف بإرادته وعقيدته وراء حركة الحياة . .

الخنساء . . بكت صخرًا . .

ثم غيرها الإسلام . . فقدمت بنيها الأربعة للمعركة . .

« وعكرمة » . . وغيرهما . . كما أسلفنا

كل الأمم تتحرك . . لكنها لا تتقدم . .

تتحرك إلى الأمام . . ثم إلى الخلف . . متخبطة !

ولكن المسلم ـ بعقيدته ـ يجعل هذه الحركة تقدمًا . . إلى مستقبل أفضل دائمًا . .

إنه وحده الذى يملك إرادة التغيير .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

---

(١) بتصرف عن كتابه «حديث فى البناء الجديد» .

ومن هذا المثال التطبيقى يمكننا إجمال خصائص ومميزات الظاهرة الاجتماعية بصورة أكثر تحديداً :

١ ـ إنها إنسانية .. لا حيوانية: أى أنها مكتسبة .. فهى إذن متطورة متغيرة .. عكس صفات الحيوان .. فهى ثابتة .. فالأسد يولد أسداً .. ويعيش أسداً .. ويموت كذلك أسداً ..

٢ ـ عامة فى المجتمع : كله .. أوجله ..

٣ ـ إلزامية : يشعر بها الفرد أو لا يشعر وأحياناً يحس أنها محببة إليه .

٤ ـ تاريخية : بمعنى أنها جزء من تراث المجتمع وحياته ..

فالمسكن .. والملبس مثلاً مسبوقان ككل عادة ـ بمظاهر وأنماط .. تطورت حتى انتهت إلى الوضع الحالى .. فهى متغيرة مع الزمن .

٥ ـ لا تتحقق إلا فى ظل أفراد مجتمعين.

٦ ـ خارجية : فهى موجودة فى الخارج قبل أن يولد الفرد الذى تساهم هى بعد فى تشكيل طباعه إلى حد ما .

نماذج وصور من هذا الانحراف :

إذا كانت الأمور تتميز بأضدادها وإذا كان الإسلام من أمر الله تعالى ـ فإنه ـ ولكى ندخل إلى منهجه الاجتماعى على بصيرة ـ يلزمنا الوقوف حيال بعض نماذج من هذه المناهج المنحرفة نستبين بها مدى تنكب غيرنا لطريق الحق.. على نحو يقينا من الوقوع فى مثل هذا الانحراف .. بقدر ما يزيدنا اعتزازاً بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به ..

ومن هذه النماذج ما جاء فى علم الاجتماع الماركسى :

(إن العلم الاجتماعى الذى يلتزم اِلتزاماً صارماً بموقف المادية التاريخية هو وحده القادر على ممارسة وظيفته الجوهرية الخلاقة) [١].

---

(١) علم الاجتماع الماركسى : ف . كونستانيتنوف ـ ف . كيل ـ ترجمة سعيد صموئيله .

فعلم الاجتماع فى منطق الشيوعية لا يكتفى بأساسه المادى المقطوع الصلة بالله عز وجل .. ولكنه يلزم نفسه إلزامًا صارمًا بهذا الأساس مهما كان الثمن ..

ويتم ذلك كله فى إطار من الغرور الذى يزين لدعاته أن منهجهم ذلك هو وحده الكفيل بحل مشاكل الناس ..

مع أنه بأصله الفاسد يعتبر مشكلة تضاف إلى ما أحدثه من مشاكل تتجدد فى حياة الناس .. بسبب تجاهل الناحية الروحية الإنسانية .. التى ستظل فى حاجة ماسة إلى الإشباع ..

وحيث إن المذهب لا يفى بهذه الحاجة فستظل البشرية معذبة بهذا الخواء الروحى عذابًا يستحيل إلى قلق .. ثم إلى مقاومة تسيل بها دماء بريئة . كما هو مشاهد الآن فى الدول الاشتراكية من يحتطب فى حبلها .

ومن ثم يتنادى الإشتراكيون التقدميون بضرورة القتال هجومًا أو دفاعًا من أجل فرض مذهب لا يتجاوب مع فطرة الناس ..

يقول المؤلفان :

(ويتطلب كل ذلك من علماء الاجتماع إحساسًا عميقًا بالمسئولية والأمانة العلمية ، والإخلاص للمبدأ والنزاهة والموضوعية والالتزام الاشتراكى) [١].

وفى موضع آخر نقرأ :

(ينبغى على المرء فى دراسته لأثر القانون أن يكون قادرًا بدرجة ملائمة على تقدير الإمكانات المتاحة وعلى أن يقاتل من أجل تحقيق تلك التى تتوافق مع احتياجات التطور الاجتماعى التقدمى ومصالح الجماهير والطبقات الثورية التى تجسد هذه المصالح) [٢].

---

(١) المرجع السابق ٥٢ .

(٢) المرجع السابق ١٦ .

وإنك لتلمس التناقض الواضح بين القتل كوسيلة لفرض المذهب . . وبين ما يزعمونه من الالتزام بالنزاهة . . والموضوعية والأمانة العلمية ؟!!

وإنك لتحس على الفور كيف يحاول الفكر الشيوعى ستر منهجه الحقيقى بهذه الدعاوى الكاذبة . .

وإلا فلو كان ملتزمًا بصفة واحدة مما ذكر لحمله ذلك على نشدان الحق فى مظانه . . أو على الأقل لسمح لغيره من الأفكار أن يأخذ طريقه إلى قلوب طلاب الحق .

وإذا كان ذلك موقف أعدائنا فإن الولاء لديننا يفرض علينا أن نتقدم لنبين للناس ما خفى عليهم من قيم هذا الدين . . وبخاصة فى مجال البحث الاجتماعى .

وهكذا يفكر الشيوعيون . إنهم مجموعة من المرضى والحاقدين :

ولدوا فى بؤرة الشر: حياتهم عقد. ونظراتهم حسد. وأيامهم مؤامرات.

ظهروا على أكتاف المناسبات . وأمجادهم فرص ومشوا فى مواكب الوصولية: لا يعرفون لهم وطنًا . ولا أرضًا . ولا دينًا . ولا مذهبًا . اسمهم عند أنفسهم : شيوعيون . واسمهم عندى . وعندك : عملاء مأجورون .

لقد عجز القانون عن حراستهم . بل غدا هذا القانون فى حراستهم . .

وأين هم من عبد الرحمن بن عوف :

لقد أوتى يومًا بطعام طيب . . فتذكر الشهداء من إخوانه فبكى . وترك الطعام

أجل هكذا الشيوعيون ونوشك بالغفلة أن نكون مثلهم :

ذكر « ابن كثير » فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٦]

ذكر ـ من حديث مسلم وصحيحه ـ عن زياد بن لبيد . قال : ذكر النبى ﷺ شيئًا فقال : « **وذاك عند ذهاب العلم** » قلنا : يا رسول الله : وكيف يذهب العلم : ونحن نقرأ القرآن . ونقرئه أبناءنا . وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم . إلى يوم القيامة ؟ فقال : « **ثكلتك أمك يا بن لبيد !! إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون منها بشىء** » ؟!! .

وكانت أدلتهم فروضًا افترضوها ! لاثبات ما زعموه حقائق وليس كذلك .

وقد رفض أفلاطون زواج الحكام كى يتفرغوا لمهام الأمور . متجاهلا فطرة الإنسان الراغبة فى الزواج . . فالقدرة على تصريف الأمور .

وقالوا : الكون كرِّى . . لماذا ؟

لأن الكرة أجمل الأشكال .

والكون : هى عاقل . وما هو حىّ وعاقل خير مما ليس كذلك .

وقالوا : للأجرام السماوية نغمات مؤثرة . ولها أثر فيما يصيب البشر من نحس وسعود :

وقد تورط كثير من الباحثين المسلمين .: فقبلوا هذه الأوهام كأنها حقائق مسلمة . . إلى حد دفع « إخوان الصفا » على القول :

بأن إدريس عليه السلام هو : هرمس المثلث بالحكمة : صعدت روحه إلى السماء . وهامت مع بعض أجرامها ثلاثين عامًا .

وإلى هذا يشير ـ فى زعمهم ـ قوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

خصائص الظواهر الاجتماعية

يقول « دور كايم » ملخصًا طبيعة الظواهر الاجتماعية :

(إنها عبارة عن :

نماذج من العمل . والتفكير . والإحساس : تسود مجتمعًا من المجتمعات .

ويجد الأفراد أنفسهم مجبورين على اتباعها فى عملهم وتفكيرهم .

بل ويجدونها مفروضة عليهم : مثل :

واجبات المدرس . والطالب . والتاجر .

وهى الواجبات التى تؤدى تلقائيًا . . (وهى محددة . محكومة بسنن معروفة)

أما فى الإسلام :

تمهيد :

النظام التربوى لأمة محكوم بهدف يصاغ الفرد على أساسه :

(أ) فبعض الأمم : تعد أفرادها ليكونوا مستعمرين .

(ب) وبعضها يعد الأفراد . . ليكونوا علماء مستكشفين . .

أما فى الإسلام : فأمته صاحبة رسالة : فنظامها : عام : يشمل كل الأفراد .

ثم هو ملزم . . ولكنه فى نفس الوقت لا يلغى حرية الفرد : تمامًا كالضغط الجوى) :

إنه يقع علينا . . ولكننا لا نحس به !

وهناك عوامل خارجية تؤثر فى الفرد . . قبل أن يولد .

وعوامل تاريخية : مستمرة : ناشئة من تفاعل الأفراد فى سيرهم وتقلبهم : لا يصوغها شخص واحد : مثل : « أكسيد الحديد ».

الذى يظهر من تفاعل الحديد مع الرطوبة .

منهج البحث الاجتماعى عند المسلمين

أخطأ الباحثون الأجانب عندما حكموا المزاج القومى .. أو المذهبى .. فى تقرير الحقائق ..

بالإضافة إلى جهلهم أو تجاهلهم لأحداث التاريخ .. وفوق ذلك كله : عندما ارتبطوا بالمادة ونسوا الله فأنساهم أنفسهم . ومن ثم جاءت أبحاثهم قاصرة فلم تصور الأمور تصويراً واضحًا .. فجاءت أحكامهم فاسدة .

وعلى عكس ذلك جاءت مناهج علماء الاجتماع المسلمين ملتزمة بالمنهج الإسلامى ، فحققت ما لم يحققه الأجانب من حيث بنيت على أنقاض هذه المذاهب الأرضية .. مستضيئة بالإيمان بالله عزوجل .. وما يثمره الإيمان من قدرة على التمييز ودقة الموازنة وصدق الحكم ..

لقد اهتدى علماؤنا إلى المنهج الاستقرائى فى البحث عن الظواهر .. والذى حدد الحسن بن الهيثم أصوله فى قوله :

(نبتدئ فى البحث باستقراء الموجودات . وتصفح حال المبصرات . وتمييز خواص الجزئيات)

« فهو بذلك يدعو إلى البدء بدراسة الحقائق الجزئية . واستخدام الملاحظة العلمية المقصودة فى دراسة الحقائق تمهيداً لاكتشاف خواصها . ومعرفة صفاتها . والوصول إلى القوانين التى تحكمها) (١).

فليس من شأن الباحث المسلم أن يقف عند ظواهر الأشياء المادية المرئية

---

(١) أصول البحث الاجتماعى ـ دكتور عبد الباسط محمد حسن / ٦٢ .

بالعين . . ولكنه يجاوز ذلك إلى تأمل خصائصها المشخصة لها . . وأحوالها المتقلبة . . ليستطيع بهذا التأمل فى زواياها المتعددة أن يصل إلى تصور كامل لها . . ليستقيم بعد ذلك حكمه عليها . . واكتشاف القوانين التى تتحكم فيها. وفى أمثالها من الظواهر . . هذه القوانين المجردة الصارمة . . البعيدة عن التحيز لمذهب أو جنس أو لون . .

وحتى يصل الباحث إلى درجة اليقين فيما يقرر من حقائق عليه أن يواصل بحثه . . فيكرر ملاحظاته العلمية (باستقراء أكبر عدد ممكن من الظواهر تحت ظروف مختلفة) [١].

ثم يركز ابن الهيثم على ضرورة التجرد من الهوى . .

(ولنجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه : استعمال العدل لا اتباع الهوى .

ونتحرى فى سائر ما نميزه ونتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء) [٢].

وفى ضوء هذا المنهج تبين خطأ الباحثين الأقدمين أمثال سقراط وأرسطو وأفلاطون ممن فتن بهم بعض الباحثين عندنا :

فقد كان ـ سقراط مثلاً ـ يلجأ فى الاستدلال على الصحة أو البطلان إلى طريق التأمل الذاتى وهو جالس على كرسيه . . دون ملاحظة أو تجربة !

ثم خلف من بعدهم خلف أضافوا إلى هذا القصور فى النظر تقصيرهم فى المنهج حين استدلوا على الصحة أو البطلان بأن هذا الرأى يوافق أو يخالف ما قرره سقراط !؟

وبدلاً من أن يخضعوا الظاهرة مثلاً لقوانين ثابتة . . ردوها إلى رأى فلان أو علان من القادة وزعماء الإصلاح . .

(١ ، ٢) المرجع السابق .

فكان ما يروى عن زعيم أو مصلح يعتبر حجة دون أن يكلف الباحث عن نفسه عناء تمحيص رأى هذا الباحث أو ذاك . .

وكان هذا مصدر شر كبير على حد تعبير بعض العلماء الذين ردوا كثيراً من الشبه الواردة فى علم الكلام مثلاً إلى هذا التقليد الأعمى المجافى لروح الإسلام الداعية إلى البحث الموضوعى .

فلما جاء ابن الهيثم . . وابن خلدون وأضرابهما من علماء الإسلام حرروا الحقائق الإسلامية المفترى عليها والغائبة فى غمرة هذه الظنون والأوهام.

وكان مما قرره ابن خلدون فى هذا المجال قوله :

(النفس إذا كانت على حال من الاعتدال وقبول الخير . أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه .

ولكن إذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة . . فإن هذا التشيع يجرد الباحث من حريته . . ويجعله أسيراً لهذا الرأى) (١) .

ثم يقول :

(فالناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة .

وليسوا فى الأكثر راغبين فى الفضائل ولا متنافسين فى أهلها) (٢) .

فابن خلدون يتيح للباحث أكبر قدر من الحرية حين يدعوه إلى التجرد من الهوى . . أو التبعية لباحث معين . .

وإذن فما يزعمه الأجانب من التحرر فى أبحاثهم ضرب من المغالطة غير مسلم . . فالحرية الحقيقية أو تتجرد للحق . . بعيداً عن التعصب . . أما

---

(١) المقدمة ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

(٢) المرجع والموضوع السابق .

الحرية المزعومة عند القوم فهى حرية اتهام الإسلام بلا دليل .. وافتراض كل احتمال فى تقديرهم للإسلام إلا احتمال أن يكون الإسلام صالحًا لكل زمان ومكان !!

وهو ما يقرره المنصفون منهم اليوم !!

ويصدر ابن خلدون فيما يقرر هنا عن معرفة تامة لطبيعة النفس البشرية المفتونة بالدنيا .. المتطلعة إليها . النافرة من الحق نفورها من كل قيد ضابط ..

ومن ثم فهو فى تقريره للحق محكوم بالمنهج الإسلامى الكفيل بالوصول بنا إلى سنن الله تعالى فى الكون والحياة وصولا يضع حدًا لآلام البشر الضاربين فى الأرض على غير هدى . السائرون على الدرب هيكلا يتكئ على عصاه ..

لكنه يسقط فى القاع غير مأسوف عليه !!

حتى لا تهب العاصفة

يقولون المجربون :

ينبغى ألا نتعامل مع الغضبان بما يفعله .. بل بما يستريح به !

وهكذا تفعل الزوجة مع زوجها الغاضب : ولكن : كيف ؟

نتركه يشتفى بما يقول .. ولانعوّل على ذلك .. فلسَوف يأتينا معتذرًا . نادمًا .. لأنه إذا عومل على حالته ومقالته .. ربما تمكنت منه العداوة .. ثم .. وبعد الإفاقة من سكرة الغضب جاوز المدى فى عقاب من أغلظ له القول ..

الأمر الذى يفرض على الزوجة أن تحسن تعاملها مع زوجها ساعة غضبه: فلا تقابله بما يقول ولا بما يفعل كما هو مقتضى الحكمة (وما يعقلها إلا العالمون)

عندما يغيب العقل :

ولكن العقل قد يغيب .. فتضيع فرص التفاهم .. ثم يكون « الطلاق » ولأتفه الأسباب .. والتى يخبرنا بها واقعنا الأليم .. ومن هذه الأسباب : ما نشرته الصحف نشرت الصحف أخيراً :

يطلق زوجته بسبب طبق مكرونة :

طلق زوج سعودى زوجته وأم أطفاله الخمسة فى ثورة غضب عارمة انتابته إثر اكتشافه تقديمها طبقًا من المكرونة لأحد أطفال الجيران دون علمه . الزوج الغاضب لم يتمالك نفسه فانهال بالضرب المبرح على زوجته متهمًا إياها بالإسراف ، وتبديد خيرات البيت على الغرباء مؤكدًا أنها تستحق الطلاق . الزوجة بررت فعلتها بأن الطفل طلب بعضًا من المكرونة أثناء لعبه مع أولادها عندما شم رائحتها الشهية ، ولم تكن تعلم أن ذلك سيتسبب فى

طلاقها وإبعادها عن أطفالها الخمسة الذين عانوا من بخل والدهم .

وقد كان لابد مما ليس منه بد : بعدما تجاهل آداب الإسلام الذى يأمر بإعطاء الجار مما تأكله .. فإذا لم يكن عطاء .. فحرى بالجار أن يحمى أطفال جاره من رائحة طعامه حتى لا يسيل لعابهم ؟! ..

ومع أن الحق مع الزوجة .. لكن ذلك لم يمنع من وقوع الكارثة !

الأساس القرآنى لهذا المنهج

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء:٣٦]

هذه الآية وأمثالها فى القرآن الكريم أساس وطيد لهذا المنهج العلمى الإسلامى الضابط لمسار الفكر الإسلامى فى كل مجالاته .. والذى يرد فى نفس الوقت ما وضعه الأجانب من مناهج لا تغنى عن الحق شيئًا .. أشرنا إلى بعض مآخذها والتى لا تبقى لها شيئًا من سمات المنهج العلمى المزعوم .

وتطالعنا الآية الكريمة بما يأتى :

(١) فالإسلام ينهى المسلم عن اتباع الظن .. والجرى وراء أمور لا يملك الاستدلال عليها .

(٢) لا تقبل من القضايا إلا ما كان يقينيًا مؤيدًا بالدليل .

(٣) ومن لوازم ذلك التجرد للحق بالتحرر من الهوى .

(٤) مسئولية الإنسان عن سمعه وبصره وفؤاده ، وهى منافذه إلى المعرفة.. ومن تمام هذه المسئولية استخدامها فيما خلقت له .

(٥) ولن يكون التنفيذ كاملاً إلا باستخدام الملاحظة والتجربة وهما طريق الوصول إلى الحق فى الموضوع وذلك عن طريق العين والأذن وغيرهما من الحواس .. وعدم الاكتفاء بالعقل وحده .

وتلك هى سمة المنهج الاستقرائى فى مقابلة المنهج القياسي :

فالمنهج القياسى أحكام ذهنية مجردة .. والمحسوسات متشخصة .. فالتطابق بينهما مستحيل .. فكان لا بد من الاستقراء ـ وهو رأى ابن خلدون طريقًا إلى المعرفة السليمة .

(٦) وهذه الحيطة الواجبة تفرضها ندرة الحقائق التى تتقاضانا البحث عنها

ثم تحريرها من الظنون وما أكثرها . ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾

(٧) ومتى وضح الحق فى الموضوع فقد وجب الالتزام الصارم به وفاء بهذه المسئولية المنوطة بالإنسان المسلم .

وإذا جاز لباحث أن يلتمس العذر للباحثين اليونانين فى قصور تجربتهم التى كانت تعبر عن روح عصرهم . .

فإن من حق المستشرقين علينا أن نلتمس لهم العذر إذا جاءت بحوث قدماء المصريين مبتسرة ـ لأن هذه هى طبيعة الخطوة الأولى فى كل فن :

تبدأ فجة ضحلة . . ثم تأخذ سبيلها رويدًا إلى ما قدر لها من كمال وكل جهد بشرى يأتى بعد ذلك يقتبس منها . ويؤسس عليها .

وإذا كان من المهم أن نعرف : من بدأ . . فإن الأهم أن نعرف : كيف بدأ . . وطبق أى المناهج سار . . وهل آتت تجربته أكلها ؟ لقد اعتمد اليونانين على الأقيسة المنطقية . . وهى أحكام ذهنية غير خاضعة للملاحظة أو التجربة . . بالإضافة إلى أساسها الطبقى المنافى لإنسانية الإنسان .

وهو المعنى الملحوظ فى تراثنا الشرقى والذى أخذ فى اعتباره كرامة الإنسان . . وذلك فيما خلف من آثار تقدر العلاقات الإنسانية قدرها

وإذا سلمنا جدلاً بسبق اليونان فى مجال الدراسات الاجتماعية . .

وإذا سلمنا أيضًا ـ وبحق ـ أن تطور الحضارة يقوم على تأثر الخلف بالسلف على نحو ما . . وأن الباحثين فى الشرق تأثروا بزملاء لهم فى الغرب . . فإننا نشير إلى حقيقة غير خافية على باحث منصف وهى أن الباحثين المسلمين قد أضافوا إلى الثروة العلمية جديدًا . حين حكموا الملاحظة والتجربة سبيلاً إلى تمحيص الحقائق . .وإذا جاز لبعض الباحثين أن يتحدثوا عن علمائنا بعنوان كونهم عربًا . . فإننا نذكرهم بأن العرب لم يكونوا شيئًا إلا بالإسلام . .

علم الاجتماع
وتطبيق المنهج العلمى

هل يمكن تطبيق المنهج العلمى الصارم فى مجال الدراسات الاجتماعية ؟ ليكون لهذا التطبيق أثر فى تحقيق الإصلاح المنشود ؟

اختلفت الإجابة عن ذلك السؤال تبعًا لاختلاف تصور الإنسان للكون والحياة:

يرى بعض الدارسين استحالة تطبيق المنهج العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية لأسباب منها :

(١) المواقف الاجتماعية معقدة ومتشابكة ، فاختلاف المؤثرات حول الإنسان من النواحى الثقافية والاجتماعية والجغرافية يجعل من الصعب التحكم فيها . . ثم الحكم عليها .

(٢) استحالة إجراء التجارب فى الاجتماع البشرى . . فللإنسان كرامته وله حقه فى الحياة .

(٣) ظواهر الاجتماع غير مقيدة بزمان ولا مكان . . ومن ثم فلا يلاحظها إلا من رآها . . بخلاف المظاهر الطبيعية فى الكون فهى ماثلة أمام الناس .

(٤) لا تخضع الظواهر الاجتماعية لمبدأ الحتمية . بسبب ما يتمتع به الإنسان من حرية مطلقة . . ثم ما يطرأ على المجتمعات من تطورات تجعل تطبيق مبدأ ثابت أمرًا صعبًا إن لم يكن مستحيلاً .

(٥) الظواهر الاجتماعية ذاتية : بمعنى أنها مؤسسة على نوازع الإنسان الداخلية ومن ثم لا ترى جذورها فكيف يستقيم الحكم لها أو عليها ؟!

(٦) عدم دقة المقاييس الاجتماعية : فالعلوم الطبيعية تخضع للمقياس

الكمى . . هذا المقياس الذى لايكتفى مثلاً بتسجيل أنّ الجوَّ حارٌ . . بل يخبرنا بدرجة الحرارة بالتحديد .

وفى تعقيب للدكتور عبد الباسط حسن يقرر[١] :

(أ) صعوبة التجارب فى مجال الاجتماع البشرى مثل صعوبة دراسة أول ظاهرة تبدو . . فالخطوة الأولى دائمًا عسيرة

(ب) يجب التفريق بين ما هو صعب . . وما هو مستحيل عند تطبيق المنهج .

(ج) يمكن التغلب على ذلك بمحاولة الوصول للحق عن طريق التجارب المستمرة (ليتمكن من الوصول بالقوانين والنظريات الاجتماعية إلى درجة كبيرة من الدقة والإحكام)

رأى الدكتور أبو المجد :

يقول الدكتور أحمد كمال أبو المجد[٢] : (والمجتمعات أيضًا مليئة بالقوانين. وقد لا تكون فى دقة القانون الطبيعى . . لأنها تتعامل مع البشر والبشر مكلف حُرٌّ .

والحر يقول : نعم أحيانًا . . ويقول : لا . . أحيانًا أخرى .)

فالدكتور أبو المجد يرى فى القانون الطبيعى وحده ما يليق به من صرامة ودقة وثبات بخلاف القوانين الحاكمة للمجتمعات البشرية فإنها لا تصل فى دقتها وصرامتها إلى درجة القانون الطبيعى الذى لا يتخلف ولا يجامل . .

وقبل مناقشة هذا الاتجاه لابد لنا من الإشارة إلى منشأ الفتون بقوانين الطبيعة ـ التى لا يختلف عليها أحد ـ وأنه قد يكون تابعًا للإيمان بالطبيعة ذاتها مفصولة عن خالقها سبحانه . .

---

(١) المرجع السابق بتصرف .

(٢) منار الإسلام ، يونية ١٩٧٧ .

بالإضافة إلى ما تميز به الماديات من سهولة اكتشاف قوانينها .

ثم ما يترتب على ذلك من تحلل الأفراد من الضوابط الخلقية مادامت قوانينها ليست فى صرامة السنن الطبيعية . .

وسوف يتحايل الناس عليها فى محاولات للتحلل منها . .

ولا بأس فى ظل هذا الفهم الخاطئ أن يسرق الفرد . . ويزنى . . ويخون . . مادامت نتائج هذه الخيانة غير مؤكدة . .

وهو الأمر الذى يرفضه الإسلام . . لأنه تأليه للطبيعة . . واعتقاد تأثير السنن الكونية بذاتها بلا خالق . . !

وإنكار لشريعة إلهية تضبط السلوك حتى لا يضل بقوانين أشد من قوانين الطبيعة صرامة وجدية .

تجديد الخطاب الثقافى إذن ليس تغيير الأدلة اللغوية المستخدمة فى توصيل الأفكار والتأثير على المستمعين ، وليس مخاطبة الناس على قدر عقولهم وليس مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، لكنه إعادة النظر فى المنطلقات الفكرية التى نبدأ منها، وفى المسلمات التى نؤسس عليها ما نبذله من جهد وما نقوم به من نشاط لنفهم الواقع وندرك الحقيقة ونجسدها .

نحن لا نستطيع أن نفهم الواقع إذا ظللنا نعتقد أن هذا الواقع بسيط واضح ، نصفه كما يبدو لنا ونطلق عليه الاسم الذى يتفق مع رؤيتنا له ،كأن كل ما فيه ظاهر ملموس ، أو كأنه خلية واحدة ، وكأنه ثابت لا يتغير ، فلنا أن نصفه كما نراه ، وأن يكون حكمنا عليه ثابتًا نهائيًّا كما كانت أحكام القدماء ثابتة نهائية ! لأنهم تعودوا أن يتلقوا هذه الأحكام وأن يمتثلوا لها ، وأن يخافوا من أنفسهم ، ويتشككوا فى عقولهم ، ويتشبثوا بما فرض عليهم من أفكار وما ورثوه من تقاليد.

هذه الثقافة الجامدة المستبدة هى التى يجب أن نخرج منها لندخل فى ثقافة العصور الحديثة التى نضجت وأدركت أن الحقيقة الإنسانية متعددة الوجوه ، وأن القانون الطبيعى نفسه متقلب ، يصدق بشروط ، ولا يصدق إذا تغيرت الشروط ، فهو مجرد احتمال ! لأنك لا تعبر النهر مرتين كما كان يقول الفيلسوف اليونانى القديم ، وكل شيء فى العالم يتطور ويتغير، ويتبدل ويتحول ،فعلينا أن ندخل فى هذه التحولات ، وأن نسابق الزمن لنصبح من هذا العصر ولا نكتفى بأن نضع قدمًا فيه وقدمًا فى العصور الماضية.

إنها دعوة صريحة للخروج من الماضى . .

ثم الدخول فى عالم آخر . .

ومنطلق هذه الدعوى هو :

أن نجاح غيرنا فى عالم المادة دليل نجاحه فى عالم الاجتماع . .

صرامة السنن الإلهية

كان الجهل بسننه تعالى فى المجتمعات سببًا فى فشلنا فى تشخيص الداء.. فجاء العلاج ضاراً مما زاد الطين بلة !

وفى القرآن الكريم آيات بينات تؤكد صرامة هذه السنن وكيف أنها لا تحابى أحدًا ، بل هى ماضية على رءوس العباد :

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٣ ـ ٤٥]

وفى سورة محمد : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٠ ـ ١٣]

وفى سورة فاطر : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]

وفى سورة الزمر : ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الزمر: ٥٠، ٥١]

وفى سورة ص : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٥]

وفى سورة الجن : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧]

وفى سورة الدخان : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧]

وفى سورة غافر : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢]

فى نفس السورة : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥]

وفى سورة الروم : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم: ٩، ١٠]

وفى سورة الأنفال : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]

جناية الأجداد على الأحفاد

كانت الأسرة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان .

وكان كل من الزوجين فى عين الآخر على ما يقول الشاعر :

كالبدر من حيث التفت رأيته   يهدى إلى عينيك نوراً ثاقباً

كالشمس فى كبد السماء وضوؤها   يغش البلاد مشارقاً ومغارباً

أو على ما قيل تعبيراً عن عرامة الوجد :

وقف الهوى بى حيث أنت   فليس لى متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة فى هواك لذيذة   حباً لذكرك .. فليلمنى اللوم !!

وفجأة : يهب الإعصار .. فيتغير كل شىء : ماذا حدث !

تذكر هنا قوله عزوجل :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥]

لقد تهدمت القرية : سقطت سقوفها على جدرانها .. وكم من بئر ذهب ماؤها بعد فوران .. وكم من قصور شيدها الود القديم : فخلت تلك القصور من أهلها . وأقفرت منهم . وخلت الآبار من روادها بعد الحركة الدائبة ..

وأخطر من ذلك كله : كيف سرى ذلك الاختلاف بين الزوجين بالعدوى .. وصار الأمر على ما قيل :

أنيميا الخلافات الزوجية :

علاقة لا تخطر على البال بين الإصابة بفقر الدم أو الأنيميا وبين الخلافات الزوجية .

كشـفت دراسة للمركـز القومى للبـحوث الاجتمـاعية والجنائـية عن أن الخلافات الزوجية مسئولة عن إصابـة الأطفال بانخفاض ملحوظ فى معدلات الهيموجلوبين بالـدم والأنيميا ، كما أنها مسئولة عـن إصابتهم بمرض النشاط العدوانى الزائد وأن هذه الـنسبة تزيد لدى البنين عن البنـات ، كما أوضحت الدراسة أن ٩٨٪ مـن الأطفال يعانون عـدم التركيـز وأن ٢١٪ يعانون التعـثر الدراسى ، كما أكدت المتابعة الاجتماعية إلى أنهم يميلون إلى إيذاء النفس .

حساسية دور الوالد

هذه الحياة :

كتاب ضخم .. لم يقرأ الطفل منه إلا سطرًا واحدًا ..

أو هى :

رحلة طولها ألف ميل .. لم يمش منها إلا خطوة واحدة ..

فلا بد من العمل :

فما أقوى العامل .. ولو كان أخيرًا

وما أضعف الخامل .. ولو كان أميرًا

وكان هناك آباء صدق نصحوا لأبنائهم :

ومنهم ذلك الوالد الذى رفض أن يأكل ولده بقايا فريسة الأسد !

لأن الله تعالى يحب معالى الأمور .. ويكره سفسافها .

من التطبيقات العملية فى « أحد »

يقول الله عز وجل : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

تمهيد :

كان من رحمة الله تعالى بهذه الأمة تذكيرها بسنن الله سبحانه وتعالى لتعلم من علم الاجتماع ما لم تكن تعلم . .

وذلك بتأمل أحوال القرون الخالية . .

فإذا أحاطت بسننه تعالى فى العصاة من قبلهم كان ذلك تمهيدًا يمنعهم من الوهن والحزن على ما حدث لهم فى أحد . . بمعنى :

(أن هذا الذى حدث لا يصح أن يضعف عزائمكم :

فإن السنن التى قد خلت من قبلكم تبين لكم كيف كانت مصارعة الحق للباطل . . وكيف بكى أهل الحق أحيانًا بالخوف والجوع . والانكسار فى الحرب . ثم كانت العاقبة لهم فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين للرسل المقاومين لهم : فإنهم كانوا هم المخذولين المغلوبين . . وكان جند الله هم المنصورين الغالبين . .

وإذا كان الأمر كذلك . . فلا تهنوا . . ولا تحزنوا . . لما أصابكم فى «أحد») .

وإدراك سنن الله تعالى فى الأمم من قبلنا . . يعيننا على تجاوز المحن بسلام . الأمر الذى يرشدنا إلى ضرورة جعل هذه السنن علمًا من العلوم نستديم به صلاحيتنا للبقاء أشداء على الكفار . . وفى هذا يقول العلماء :

(أمرنا الله ـ عزوجل ـ أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها . ومعرفة حقيقتها) :

(فإذا نحن سلكنا سبيل الصالحين : فعاقبتنا كعاقبتهم .. وإن سلكنا سبل المكذبين فعاقبتنا كعاقبتهم)

وفيه من تحذير الأمة من اتباع المنحرفين ما فيه ..

ذلك بأن مشيئة الله فى عباده ماضية على سنن حكيمة قويمة .. وقد طبقت عليكم فى أحد .. فلا تحاولوا البحث عن أسباب الهزيمة خارج ذواتكم .. فالأمر كما قال عزوجل : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ ..

وهذه الآيات الكريمة تشير إلى ما يلى :

(١) الكفار الأشداء الذين وعظناكم بهم .. هؤلاء الكفار قد عذبوا بما كذبوا .. فكفاركم أولى بهذا العذاب ! لأنهم كذبوا وليسوا بخير منهم حتى يكونوا بنجوة من العذاب .. ولم يكن لكم ولا لهم براءة من العذاب فى الكتب الآتية من عنده سبحانه .. فكيف تأمنون من العذاب وقد عُذِّب من هم خير منكم . وأشد منكم ؟

وربما ظنوا أنهم صف جميع : غير قابل للاختراق .. وهيهات سيهزم الجمع ويولون الدبر .

وكما أن الرسول ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل .. فكذلك هم . لن يكونوا بدعًا بين المكذبين . فهم مثلهم . بدءا ونهاية .

وغدًا . سيهزم الجمع .. وهذا هو العذاب الأليم

ويولون الدبر وذلك هو العذاب المهين !

(٢) توبيخ الكفار وإنكار عليهم أنهم لم يسيروا فى الأرض معتبرين بمصير من قبلهم من المكذبين والذين أهلكهم الله تعالى بالعذاب الهاجم عليهم بغتة .. وأنهم ماداموا يسيرون على نفس دربهم فسوف يصب الله تعالى عليهم عذابًا مثله ..

(٣) وإذ يغريهم المال والرجال . فقد كـان أسلافهم أقوى منهم وأغنى . ولكن ذلك لم يغنهم من العذاب شيئًا .

(٤) ومع هذا فباب التوبة مفتوح لمن أراد أن يتوب التوبة النصوح . فمن رحمة الله تعالى ما تشير إليه الآية الكريمة :

﴿ إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨] .

(٥) إن الله تعالى عـليم قدير : أحاط عـلمًا بكل شىء . . وهو تـعالى قادر على التنفيذ . لا يعجزه شىء . . فليحذر الذين يخالفون عن أمره .

(٦) الأمم المكذبة ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧] وإذن . . فهم لا يعرفون سنن الله تعالى . . وترتب على ذلك تخبطهم . فتيقنوا فى مواطن الظن . . وظنوا فى مواطن الـيقين . . فعاقبتهم الخسران . . وإن كانت لهم جيوش وعُدد !

ثم جاءت الآيات التالية تمكن لهذا المعنى فى قلوب المؤمنين :

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

فأنتم « المتقون » . . وبهذه التـقوى فأنتم المؤهلون لإدراك هذه السنن . . دون أمم الأرض جميعًا . .

ثم إن مما يقـوِّى عزائمكم أنكم أنتم الأعـلون . . بالإيمان . . لأن ذلك الإيمان يعنى : الصبر . والثبات . .

ولِمَ الحزن : وما فاتكم شىء تحزنون عليه :

إن الحزين حقا هو : من فقد ما لا عوض عليه . .

وأنتم مـجزيون بما فقـدتم أعظم الجزاء . . ثم إن المسـتقبل لكم (فـأنتم الأعلون) وإذ قد هزمتم فعلاً . . فليس فى هذا ما تبكون عليه :

(لما فى الهزيمة ـ أحيـانًا ـ من التأديب الإلهى للمؤمنين . وتـعليمهم أن

يأخذوا بالاحتياط . ولا يغتروا بشىء يشغلهم عن الاستعداد وتسديد النظر)

ثم . . لماذا البكاء ولستم وحدكم الذين وقع فيهم القتل : فقد أصيب المشركون منكم فى بدر بأضعاف ما أصابوا منكم فى أحد . .

إن النصر ليس « مفصَّلاً » على جبهة دون أخرى . .

وإنما هو فقط لما عرف الأسباب . . فعمل بمقتضاها

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

ليعلم الله سبحانه وتعالى من هو المستعد لدفع ثمن الانتصار ثم ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

وتلك بشارة بمآلكم . . المنتهى بواحد من إحدى الحسنيين :

النصر . أو الشهادة . .

وذلك مالا يفعله سبحانه بالظالمين من الكافرين

وهناك حقيقة يجب ألا تغيب عنكم فى فورة الانفعال :

فقد كنتم تتمنون الموت سبيلاً إلى الشهادة . . ولقد حقق الله تعالى هذه الأمنية . . فَلِمَ البكاء إذن ؟ على أمر قد باشرتم أسبابه ؟!

مسئولية رب الأسرة

تمهيد :

مع عظم حق الوالد على ولده . . لكن حظ الوالد من الميراث أقل من ولده . . لماذا ؟

تجاوبًا مع الحياة الآتية . . ورعاية لجيل المستقبل . الذى يستعد لتسلم زمام الحياة من بعد والده !

والسؤال الآن :

كيف بعد الجيل القديم : جيل الآباء . . كيف يهيئ الجيل الجديد لامتلاك المستقبل من بعد رحيله ! . . ذلك ما نحاول بيانه فيما يلى :

كان « المأمون » يوصى ابنه ، فيقول له :

يا بنى : اكتب أحسن ما تسمع . واحفظ أحسن ما تكتب . وحدث بأحسن ما تحفظ .

ومن الذين سمعوا . ثم كتبوا وحفظوا . وحدثوا : عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : لقد صحب ابن عباس الرسول ﷺ ثلاثين شهرًا . وكانت ثمرة تلك الصحبة المباركة . أنه روى عنه ٢٦٦٠ حديثًا .

لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يسبق سنه بمراحل . فكان صاحب اللسان السؤول . والقلب العقول .

خطاب المحبين :

وإذًا كان الواقع شاهدًا بأن طريقة التعامل مع المحبين ليست كطريقة التعامل مع الظالمين .

فإن ذلك مشتق من أحداث أحد . فالله عزوجل ـ فيم يتعلق بقانون السير والنظر يتكفل تعالى بتوجيه الكفار إلى ذلك كما ذكرت الآيات الكريمة:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾

وفى ذلك ترهيب لهم . . مع ما ينطوى عليه من مزيد الإنكار والتوبيخ . .

أما بالنسبة للمؤمنين . . فلأنه تعالى يحبهم . . فهو يأمر رسوله ﷺ أن يأمرهم بالسير والنظر . . أمرًا خاليًا من هذا التوبيخ رحمة بهم . وحنانًا من لدنه تعالى : ﴿ فَسِيرُوا ﴾

ونذكر هنا قوله عزوجل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾

والتقوى : عمل بالأسباب .

أما النتائج : فإلى الله عزوجل . .

الله تعالى : هو خالق هذه الأسباب وتلك السنن . . وهو وحده القادر على خرقها . وتعطيل عملها .

وعندما قال قوم موسى :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ اعتمادًا على الأسباب . .

قال لهم موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ :

لقد تعلق القوم بالأسباب العادية . . ولكن موسى عليه السلام يحتمى بالأسباب غير العادية !!

ولا ننسى فى الآية الكريمة « إن » وما تلقيه من شك فى إيمان القوم الذين قد يهبون معتصمين بالإيمان مجدين الاستمساك به . . فرارًا من الشك الذى ـ إن حدث ـ كان تحقيقًا لأمنية الكافرين . . وهيهات .

أما بعد

فمن دروس أحد :

أنه قد أخطأ بعض المسلمين . . فى « أحد » فنزلت الآي تقول

للمخطئ: أخطأت

وبعد ذلك :

يقال للمنحرف والمخطئ : أنت مـخطئ . . وأنت منحرف دون محاولة تبرئة الأشخاص :

لأن تبرئتهم تجيء على حساب المنهج . .

وتبرئة الأشخاص تشويه للمنهج :

والأشخاص محكومون بالمنهج : بالسنة

إن الحق حق دائمًا . أما الشخص فيـمكن أن يكون محقًا . أو مبطلاً . أو منافقًا . أو فاسقًا .

الأخلاق فى الإسلام

تمهيد :

لم تكن للمشركين معرفة بالإسلام . .

وإذن فقد كان من السهل أن يسلموا بعد أن يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . .

أما اليهود والنصارى فقد كانت عندهم فكرة سابقة عن محمد ﷺ فى كتبهم . . وكانوا على وعى بدوره الخطير . . ومن ثم كانت المعركة معهم حامية . . معركة سلاحها القلم والفكرة . . والدس . . والوقيعة . . وتحريف الكلم عن مواضعه . .

معركة تهون إزاءها معركة السيف والدم . . وهى اللغة التى كان يتعامل بها الرسول ﷺ مع المشركين . . ولكنها معركة شريفة . .

لأنها كانت محكومة بالأخلاق .

فما هى الأخلاق فى الإسلام ؟

وقبل هذا . . ما هو أساسها الاعتقادى ؟؟

الأسس الاعتقادية للأخلاق فى الإسلام

أولاً : الإنسان مستخلف فى هذه الأرض لعمارتها استخلافاً محدود الأجل بالحياة . . وذلك بعض ما يشير إليه قوله عزوجل :

﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة:٣٦]

وثانيًا : هذا الإنسان مكلف من الله تعالى بمنهج وسلوك عليه الالتزام به وبقواعد هذا السلوك :

مركز الإنسان بين الملائكة والجن :

ساء الظن بالإنسان . . حتى قيل :

﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾

﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾

وتطلع البعض إلى قوى غيبية كالملائكة والجن :

ولكن الآيات الكريمة تفوقه على الملائكة . وعلى الجن :

وذلك مفهوم من قوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِم ﴾ [البقرة:٣٣]

ثم قوله عزوجل :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف:٢٩]

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن:١]

وبذلك . . برزت شخصية الإنسان . . واستعد لاستئناف دوره فى الحياة

وبماذا يستأنف دوره ؟

(أ) بدوافعه الطبيعية على مافيها من جنوح إلى الشر ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

(ب) بالعلم الذى يمكنه من الانتفاع بالحياة التى جعلها الله له كما أشارت الآية السابقة على القصة ﴿ هو الذى جعل لكم ... ﴾ وهكذا بدأ عوده يشتد:

كما تقوى العضلات بالرياضة..

كما يقوى الذهن بالمسائل الحسابية

وكما تقوى الروح بمقاومة الشيطان ..

وبدأت المعركة ..

ولكن الله دائمًا مع عباده فلقن آدم كلمات يدعوه بها.. ثم تاب عليه..

وتمت التجربة التى ستزامل البشرية فى سيرها .. والتى اقتضت حكمته تعالى أن يرسل هداة إلى البشر يأخذونهم .. ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أى : بالاتباع وليس العلم فقط ..

والإنسان حر بمقتضى خلافته .. فهو مسئول .. لكن فى حدود منهج الله سبحانه ..

(ج) ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾

وفيه : الضمير

وهو ذلك القبس النورانى الذى أودعه الله كيان الإنسان ليضبط خطوه على الطريق ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧]

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥]

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ... ﴾ [البلد: ٨، ٩]

(إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه) « الديلمى مسند الفردوس صحيح من طريق أم سلمة . ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » .

والخيرية تتمثل فى :

(١) الواعظ ملازم لا يفارق .

(٢) من نفسه هو بعيداً عن الرقباء .

(٣) ثم هو فعال إيجابى يأمر وينهى يعنى يؤدى دوره فهو حارس يقظان . . لا ينام !

(٤) وإذن فالشاب الذى تفتح له الدنيا أبوابها وينطلق يعب من نعيم الحياة بلا واعظ يردعه . . . فهو مسكين يستحق منا لرثاء . .

شبابنا إلى أين ؟

أعداؤنا يريــدون أخذ الناشئة بمـا يدينون به من مناهــج . يريدون بذلك مسخ الشخصية المسلمة حتى يظل المسلم تابعًا لهم . .

ومن معانى ذلك : أن التعليم عندهم ليس حياديا . . ولكنه موجه لخدمة أغراضهم .

وقد فطن « الشيوعـيون » إلى ذلك . . فرفضوا استيراد النظم الـتعليمية من وراء ما يسمى « الستار الحديدى » إلى الحد الذى قال عالم منهم :

(إن العلم الروسى ليس قـسمًا من أقسام العلم العـالمى . وإنما هو قسم مستقل بذاته) . .

وإذا كان مجال الشبـاب هو ساحتهم التى يتحركون علـيها فى محاولات لاستقـطاب شبابنا . . إرادة إفـراغ الأمة من عنصر قوتـها وحيويتـها . . فإن الغيارى من أمـتنا كانت لهم صيحـاتهم الراشدة إرادة النجاة بشـبابنا من هذا الشرك المنصوب : فقالوا :

تضع الدولة قضية الشباب على رأس قائمة اهـتماماتها ، باعتبار الشباب هم رجال الغد وأمـل المستقبل ، ولا توجد قـضية تشغل ، بل تسـيطر على عقول وقلوب كتابنا ومفكرينا ومثقفينـا أكثر من انشغالهم واهتمامهم بالشباب الذى سيتـولى أمانة مسئـولية بناء مصر المسـتقبل وخوفهم مـن تيارات وافدة وأفكار مستـوردة قد تؤثر بالسلب فى سلوكـيات بعضهم وتصنع منـهم شبابًا مستهـترًا غير قادر على تحـمل المسئولية ، تتـركز أحلامهم فى اقتـناء السيارة وإغراءات الـكسب السـريع على حـساب القيـم والمبادئ ، يقـتنى عـشرات الكاسيتات الهابطة ولا يقتنى كتـابًا واحدًا يرتقى بفكره وينمى مداركه ويصنع منه شابا مكافحًا واعـيًا مثقفًا تتجسد فيـه روح الانتماء والولاء لهذا الوطن ، ويكون امتدادًاحقيقيا لجيل البسطاء من أبناء الطبقة الوسطى الذين بنوا حضارة

مصر بكفاحهم وعرقهم وأصبحوا علامات مضيئة فى تاريخ هذا البلد العريق. . كل هذه المعانى الجميلة راودتنى وأنا أتصفح اخر إصدارات مطابع نهضة مصر كتاب شباب شباب ـ لأديبنا الكبير أنيس منصور ، تشعر وأنت تقرأ فصوله وعناوين موضوعاته أنه جلس بالفعل مع قطاعات كبيرة من شبابنا يستمع إليهم ويستمعون إليه ، يتبادل حواره معهم فى أبوة خالصة يتعرف على مشكلاتهم ولا يتركهم إلا بعد أن يصف لهم الدواء لأنهم فى رأيه فلذة أكباد جيل قديم أعطى الكثير والكثير لهذا البلد العظيم .

فى البداية يقول أنيس منصور فى كتابه «شباب شباب» :

ما نزال نحن الجيل القديم نملك مقدرات الأجيال القادمة ، وهذه الأجيال صناعتنا وأكبر اعتراض علينا وهم لا يعترضون على أننا مرتبطون بهم ، بل على أنهم مرتبطون بنا ، ولذا كان الاعتراض علينا رفضًا لنا ومهما حدث للشباب ومنهم فلا بد أن نقترب منهم أكثر ونستمع إليهم أطول ، ونفكر فيهم أعمق ، ونحلل أهدأ وبدون ذلك يستحيل أن نعرف الداء أو نصف الدواء ! لأن المريض هو حاضر مصر ومستقبلها أيضًا ، ومن مظاهر رفضهم لنا، أنهم لا يؤمنون بكثير من الذى نؤمن به فى السياسة والدين ، لا لأننا على خطأ وهم على صواب ، لكن لأنهم يريدون أن يختلفوا عنا وفى هذا الاختلاف يؤكدون ذواتهم فى مواجهتنا ، وليس هذا جديدًا ولكن حدث فى التاريخ وفى سورة لقمان فى القرآن الكريم ، وفى الإصحاح الأول والثانى عشر من سفر أيوب فى التوراة ، وفى مسرحية هاملت لشكسبير ، وعودة الروح لتوفيق الحكيم ، وروايات نجيب محفوظ وسوف يبقى هذا الاختلاف مادام هناك شباب وشيوخ وجيل قوى يذهب وجيل جديد يريد أن يتعجل النهاية ويرث الجيل الأكبر سنًا ا.هـ

أهمية الأخلاق :

جوهر الرسالة محدد فى قوله ﷺ : «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»

البخارى / الأدب المفرد .

ولقد بدأت مكارم الأخلاق مع أول خطوة للإنسان :

وذلك قوله عزوجل : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾

هذا الإنسان :

والإنسان مادة وروح .. ويعنى ذلك : أن الخلق هو : صحة الجسد . وصحة الروح على ما يقول عزوجل :

﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦]

وقوله ﷺ : « **المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** » .

ويعنى ذلك : أن قوة الإيمان أربى والأسوة فى ذلك هو الرسول ﷺ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]

صنائع : فاق صانعها .. ففاقت وغرس : طاب غارسه .. فطابا .

مقياس الأخلاق

يتساءل العلماء :

ما الذى يحدد للإنسان سلوكه . . ويدفعه كى يسير على طريق السداد؟

هل الإحساس بالشىء هو الذى يدفع للعمل به ؟

والجواب : لا . . لماذا؟

لأن الفنان وإن كان شاعراً بفكرته . . لكنه غير ملزم بتنفيذ فكرته .

هل هى الجماعة أو المجتمع ؟

والجواب : لا . .

لأن حرية الفرد فى المجتمع الإسلامى أمر مقرر ومعروف . .

وبهذه الحرية قد يحاول الفرد تحقيق ذاته . . ولو على حساب المجتمع . . ونقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]

فقد رفضوا الحق ـ وهو حياة المجتمع ـ مدفوعين بغريزة التقليد . .

ونتساءل :

هل المقياس هو المصلحة أو المنفعة الاجتماعية . . بتنازل كل فرد عن بعض منافعه ؟؟

والجواب : لا . . . ولماذا ؟

لأننا نتساءل هنا فنقول :

منفعة مَنْ هذه ؟ :

ومنفعة قريبة أو طويلة الأمد ؟

ولو تعادلت منفعتان أحيانًا . . فأيهما تفضل . . بعد المفاضلة بينهما ؟!

وقد يقول قائل :

فليكن المقياس هو :

مصلحة السادة . . ومصلحة العبيد

والجواب :

(أ) هل يفعل القوى كل ما يشاء

(ب) وما موقفه من قوى مثله

(ج) وهل كل ما يفعله القوى حميد ؟!! وما يفعله غيره مذموم ؟!!

الضمائر الخربة

ولكن . . ما هو الضمير الذى نستضىء به . .

إنه الضمير الذى يستمد حياته من الإيمان

أما الضمير اليونانى :

فقد أباح الرق

والضمير الرومانى :

أباح امتلاك الزوجة والبنت كذلك

والضمير فى الجاهلية :

أباح وأد البنات

والشيوعيون اليوم يقولون :

إن الضمير يتأثر بالعامل الاقصادى بينما هو : المؤثر فيه

وإذن . . فيمكن تطويعه للهوى والتهرب من العقاب فهو سلاح ذو حدين :

وهو عاجز عن جلب الخير بعد أن عجز عن دفع الشر ولابد من ضمان أخلاقى . .

وذلك هو : الإسلام (الذى لم يتعلق)

المقياس الحقيقى

والمقياس الحقيقى من الله عزوجل :

عن طريق « المسئولية » التى تضبط نوازع الإنسان ليفعل ما يليق . وينتهى عما يليق : إنه « الإلزام » وهو العنصر النووى هنا

وذلك بواسطة العقل . وبواسطة الضمير . .

أما العقل :

فهو المرشد الآمر :

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الطور: ٣٢]

تلك القوة التى ينميها العقل ببيان أنها مناط تكريم :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]

وطبيعة الإنسان نفسه خير ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]

المسئولية

فى التركيز على هذه المسئولية نقرأ قوله عزوجل :

﴿ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

وهو مقياس الكمال والجمال فى كل خصله :

إن كل خصلة فى الإسلام إنما يقاس جمالها وكمالها :

بمقدار ما فيها من وازع إنسانى ملزم . من داخل النفس :

بوازع الضمير وحده :

ونقرأ فى ذلك هذه الآيات الكريمة :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾

وهذا هو واجب القوى الذى يجود بعافيته فى سبيل الله لا أن يدى بها وصحيح أن « الخلُق » قوة :

فالصبر قوة : لأنه انتصار على الجذع .

والشجاعة قوة : لأنها انتصار على الجبن

والحلم قوة : لأنه مزيج من الصبر والثقة

وهذا القوى : لماذا يشاء أمرًا معينًا . . ولا يشاء سواه ؟

وقد يقول فيلسوف :

إن المقياس هو : السعادة . . أو الغنى . . أو العلم . .

والجواب : لا .

لأن الواقع الصارم يؤكد أنه :

قد يسعد الحقير . ويشقى العظيم

وقد يسعد الفقير . ويشقى الغنى

وقد يسعد الجاهل ويشقى العالم

ولا يتم الإسلام إلا بالأخلاق العملية . . وبها سيتحقق التوازن :

وتأمل قوله عزوجل فى سورة الإسراء : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٣٩]

والحكمة هى :

وضع الشىء فى موضعه . .

وإنك لترى الأخلاق فى سورة الإسراء . . كأنما كانت صورة تطبيقية للعبادات .

وإلا . . فلو تركنا هذا الجانب العملى . . لم تحقق العبادات مدلولها . وصارت الأمة كهذا المفلس المشار إليه بقوله ﷺ :

« أتدرون من المفلس ... ؟ »

مع ملاحظة أن الدول الشيوعية من منطلق فهمها لخطورة الأخلاق العملية. . فإنها لا تسمح للأقليات الإسلامية إلا بأداء صور العبادات . . أما الجانب العملى . . فلا !!

الأمر الذى يفرض علينا الحذر من مثل هذا التآمر . . الذى حقق بعض

أهدافه . . فيما قد نشاهده اليوم . .

فبعض المسلمين ـ الذى عاشر الأجانب ـ يحافظون على المواعيد . . مع أن الله عزوجل يدعوهم إلى الصلاة كل يوم خمس مرات ثم . . لا يجيبون؟!!

استطراد

لا أميل إلى القول :

إن الإسلام جمع كل ما فى النظم الأخرى من محاسن . . بل هو الحسن كله . . وما فى غيره من حسن . . فمستمد من الإسلام

أما بعد

فإن لكل مذهب أخلاقى مقياسًا مختلفًا . . والنتيجة : تخبط

لأن الضمير بلا إيمان قد يستسيغ أمرًا فى بيئة . . ثم يرفضه فى أخرى . . وفى زمان . . غير زمان

الأمة

نشأتها :

ليس هناك للفرد اعتبار إلا بكونه عضواً فى جماعة . .

هذه الجماعة التى تبدأ بزوجين . . ثم بالأسرة . . فالعائلة . . فالأمة المتكاملة .

كيف تتكون :

يقول « هوريو » :

(إن ظهور القوميات مقترن فى الزمن مع مرحلة الاستقرار على الأرض. وحلول قرابة معنوية . محل القرابة العرقية . تقوم على وحدة الشعور والتفكير والتصرف . . نتيجة المساكنة الطويلة . ووحدة الأصل واللغة والعقيدة . .

ويمكن بها انصهار المهاجرين فى قومية واحدة .

وحينما تصبح تلك القومية دولة تصبح كائنًا متكاملاً) (١) .

نظرية « رينان » :

(تقوم فكرة القومية عنده على الإرادة المشتركة . والرغبة فى الحياة المشتركة . التى كونتها ذكريات الماضى فى انتصاراته ومكاسبه . وأحزانه ومآسيه .

والقومية عنده : مبدأ معنوى نظرى . .

وهى تضامن كبير يكونه الشعور بتضحيات الماضى . والعزم على تقديم مثلها فى المستقبل) (٢) .

---

(١) بتصرف : الموجز فى الحقوق الدستورية طبع باريس ١٩٢٣ .

(٢) ماهى القومية باريس ١٩٢١ .

والفرق بين هاتين النظريتين ـ فيما قاله الأستاذ محمد المبارك [1] أن «رينان» يجعل الإرادة الحرة . والرغبة المشتركة أساسًا فى القومية التى هى مرحلة تسلم إلى التقاء الشعوب فى إطار الإنسانية الكبير . .

فى حين أن مثل « هوريو » يرى أنها قدر تاريخى . . ونتيجة لعوامل متعددة . من أرض مشتركة . وأصل عرقى . . وتقاليد ولغة . . وتاريخ . . وعلى ما بين هذه النظريات من تفاوت إلا أنها جميعًا تلتقى عند قاسم مشترك يسرى فيها وهو :

أنها قوميات متعصبة . . ضيقة الأفق . . غير إنسانية . . تصبح الدولة بها حينما يعبد من دون الله . . ويمكن أن ترتكب الفظائع فى سبيل هذه الدولة ذات الأساس المادى المقطوع الصلة بالله تعالى . . وكل محاولة لإسعاد أفرادها تتم ولو على حساب الدول الأخرى . دون حساب لمبادئ الإنسانية الرفيعة .

الأمة فى الإسلام :

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣]

ويقول سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠]

ويقول عز من قائل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

---

(١) مجلة الأمة محرم ١٤٠٢ .

رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١]

خصائص الأمة من هذه الآيات الكريمة :

إن الأمة الإسلامية ذات مبدأ ربانى .. هو الوحدانية .. ولها غاية تسعى لتحقيقها هى : سعادة الفرد فى الأولى والآخرة .. ووسائل الوصول إلى هذه الغاية مشتقة من العقيدة .. وعلى مستوى الغاية شرفًا ونبلاً .. والدولة كلها : حكامًا ومحكومين صورة مجسمة لهذه العقيدة بوسائلها وغاياتها ..

مفهوم الأمة

بين النظريات الاجتماعية والتصور الإسلامى

فى فرنسا :

توحدت جماعات وقبائل فى أمة واحـدة . . فنشطت العقول للبحث فى تحديد مفهوم الأمة :

(١) قال « هوريو » :

(إن ظهور القوميات مقترن فـى الزمن مع مرحلة الاستقرار على الأرض وحلول قرابة معنوية محل القرابة العرقية . تقوم على وحدة الشعور والتفكير والتصرف . نتيجة المساكنة الطويلة . ووحدة الأصل . واللغة . . والعقيدة . . يمكن بها انصهار المهاجرون فى قومية واحدة .

وحينما تصبح تلك القومية دولة تصبح كائنًا متكاملاً)

بتصرف الموجز فى الحقوق الدستورية

طبع باريس ١٩٢٣

(٢) نظرية رينان :

(تقوم فكرة القومية عنده على الإرادة المشتـركة والرغبة فى الحياة المشتركة التى كونتها ذكريات الماضى فى انتصاراته ومكاسبه وأحزانه ومآسيه .

والقومية عنده : مبدأ معنوى نظرى .

وهى تضامن كـبير يكونه الشعور بـتضحيات الماضى والعـزم على تقديم مثلها فى المستقبل)

ما هى القومية . باريس ١٩٢١

الفرق بين هذه الآراء

« رينان » يجعل الإرادة الحرة . والرغبة المشتركة أساسًا فى القومية . ثم إن القومية مرحلة تسلم إلى التقاء الشعوب فى الإنسانية الكبيرة .

فى حين أن مثل « هوريو » يرى أنها قدر تاريخى . ونتيجة لعوامل متعددة من أرض مشتركة . وأصل عرقى . وتقاليد وتاريخ . ولغة أدت إلى التكوين المشترك .

النظرية الألمانية :

نظرية عنصرية غير علمية . . متعصبة . . عدوانية تحاول السيطرة . . ولهذه النظرية تأثير على كثير ممن جاؤوا بعده حتى من الباحثين العرب .

رأى « الروسى هكسلى » الفيلسوف الإنجليزى :

قال فى كتاب « الغايات والوسائل فصل الحرب . . بتصرف»

القومية :

دين وثنى . . والدولة فيه هى الإله متمثلاً فى شخص مستبد الذى يوقد باستمرار شعلة الغرور القومى . . وإذن فهى من أسباب الحرب فى العالم لأنها تستبطن الحقد والقسوة وتدعو للتعصب .

رأى المبارك

بالتأمل تدرك :

المرحلة الأولى : عبر التاريخ تكون هناك تجمعات صغيرة. . تتلاقى رويدًا لتجاورها فى المكان والأصل واللغة . .

وتزداد صور التقارب . . . وتقل الفوارق . . ثم تتحدد فى صورة أمة لها دين واحد ، ولغة واحدة ، وتلك هى الأمة القبلية .

الثانية : الأمة القومية : تزداد فيها العوامل المعنوية : اللغة والثقافة

والعادات والدين ويمكن انصهارها فى دولة أرقى .

الثالثة : يزداد فيه التقارب بين مجموعة من الشعوب بازدياد نحو العوامل المعنوية مثل الثقافة والدين .. واللغة .. بقدر ما تضمر العوامل المادية كقرب المكان ووحدة العرق .. وتلك أرقى المراحل ..

وإذن فالقومية ليست هدفًا ..

ولكنها وسيلة لهذه المرحلة .

القومية فى الإسلام

يقول سبحانه : ﴿ .. إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ .. ﴾ [الحجرات: ١٣]

بدأت بـ : شعوب ←—— قبائل .. اتحاد عام ..

ومن الأنبياء من أرسل إلى قبيلة مثل : صالح وهود عليهما السلام ثمود وعاد ..

ومنهم من أرسل إلى قوم : نوح وإبراهيم عليهما السلام . وإلى الناس كافة .. (محمد عليه الصلاة والسلام) ..

مواصفات الأمة (كنتم خير .. تأمرون .. الآية ..)

ولما كان فى العرب من لم يتصف بذلك دل على أنه تعالى يخاطب أمة الإسلام التى لا تعترف بالعنصرية وإنما يجمعها الدين وما فيه من حقائق عليا

الأمة : هو القصد .. مصدر أمَّ أى قصد ..

فوحدة القصد والاتجاه هو جوهر مفهوم الأمة

فالمنادون « بالقومية » من العرب يقفون بها عند المرحلة الوسطى ولا يرتقون إلى القومية بمعناها الإسلامى المتراحب الذى يرفض التعصب .. وينفتح على الدنيا كلها ..

إنها القومية بمعناها الضيق : فرضت على الإنسان ولا خيار له فيها .. ومن ثم فالافتخار بها افتخار بما لم يحدثه الإنسان .. على إنسان آخر لم يختر لون قوميته ولكنها فرضت عليه ..

أما القومية فى الإسلام بمعناها الواسع فهى تعنى الحرية والموازنة والاختيار .

العوامل الدافعة للأخذ بالقومية :

(١) التأثر بالفكرة العلمانية الوافدة والقائلة بفصل الدين عن الدولة

(٢) التأثر بالانتماء الطائفى من لدن علماء يريدون إقصاء الإسلام عن الساحة وإنكار أنه رابطة عامة للناس كافة .. والتضييق على أهله وإشعارهم بأنهم غرباء فى أوطانهم [١] .

(٣) وتحت هذا الزاعم أريد دفع قوافل المبشرين ليحلوا محل الإسلام فى دياره .. وشجعوا الطرق الصوفية والتقاليد المبتدعة .. ليتم للتبشير ما أراده من تنصير ! [٢] .

أراد بهذا التحديد أن : تبرز الحقيقة الناصعة .. وتظهر خصائص الإسلام. واتجاهاته الإنسانية والأخلاقية . ومزيته التقدمية . وأصوله الإلهية الربانية .

ومجال شقاوة العالم كله فى زمان واحد .. وسعادته كذلك أيضًا .. ومحال أن تستمر سعادة أمة وشقاء أخرى

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٠] .

ترتقى الأمة :

ثم ترتكب ذنوبًا لا تنتبه إليها ..

أو تنتبه لكنها ضعيفة .. ثم تعود القهقهرى :

---

(١) عن الفكر العربى فى عصر النهضة ٣٢٦ ـ ٣٣١ بتصرف .

(٢) عن الأمة محرم ١٤٠٢ للأستاذ محمد المبارك .

(ما طار طير وارتفع . .) .

(ما يتم شيء إلا وبدأ نقصه) .

(الله الذى خلقكم من ضعف . .) .

كيف يتم الانحدار :

من القمة إلى السفح .

وتتحقق هذه السنة ؟؟

فالأمة فى سيرها ترتكب أخطاء غير مكترثة بها . .

وتقطع أشواطًا فى طريق الرقى . . مادامت لا تشعر بهذا الخلل . . فإذا قوى الخلل بكثرة الأخطاء . . تراجعت للخلف .

فإذا أراد الله لها الرقى أجمع أمرها لسد هذا النقص وسد الخلل هذا ذاهب ببعض قوتها التى كانت مرصودة أساسًا لرقى لم تمض فيه قدمًا .

إذا أراد الله تعالى إهلاك أمة قوى جند الشر فيها :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ ﴾

فإذا قوى الشر وانتشر أنذرهم الله . . بل واستأصلهم وقاية لأمم أخرى . .

ثم يبعث نبيًا فى أمة قريبة من الأمة الهالكة . . لماذا :

(١) لها علم بشؤونها وما حل بها .

(٢) ليمحو أثر الفساد المتطاير من الأمم الفاسدة المجاورة .

(٣) ليفتح الباب أمام العقل ليستأنف الرقى .

خضوع أهل الحق يجعلهم شياطين خرساء يعذبهم الله تعالى وإذا طلبت النصر . . تطلب المحال !! فلا يستجاب لها . . وإذا كان من أسباب عدم

إجابة الدعاء : أكل الحرام . .

فمن أسبابه أيضًا أن يدعو الجاهل . . الكسول . . الجبان . . أن ينصره الله . . لأن معنى ذلك انتصار الجهل على العلم . . والكسل على النشاط . . والجبن على الجرأة ! والأبله على العاقل !

ولذلك يعاقب الله الأمم على قدر عيوبها :

فى الأثر حديث شريف « **إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها .. وإذا ظهرت ولم تغير ضرت العامة** » قالوا يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون. قال : « **نعم : إذا ظهر الخبث والفساد .** »

حلقات الرقى . . والانهيار . . مرتبة . . ومن المحال أن تتخطى أمة حلقة للأمام أو للخلف . . وتستحيل الطفرة !

(إن علامة الوصول إلى آخر أدوار الموت . . وقرب الاتصال بأدوار الحياة :

اشتداد الكرب . وكثرة المظالم . والتهويس على الحق . وإسناد الأمور لغير أهلها .

كما أن علامة الدخول فى طور الحياة الصحيحة :

يقظة الأمة . وعملها بالواجب عليها . وسيرها فى طريق العلم .

ولا خوف عليها إن تراجعت فى الطريق .

فإن كثيرًا من الأمم الناهضة تقوى وتضعف فى حركات السير . بمقدار الشعور بغاية الطريق :

فإذا أجمعت على أمر ضرورى لسعادتها . فلابد أن تصل إليه بسرعة .

وإذا اختلفت فى أمر هو ضرورى لها . . فلابد أن تقف فى الطريق بمقدار الأخذ والرد واستجماع القوة .

حتىّ إذا قر القرار نهضت فأسرعت إلى غاية الطريق) [١] .

(إن عناصر الحياة التى تفقدها الأمة الميتة . . قد تعود إليها بواسطة التلقيح العلمى من أمة أخرى حية . . ومن الحوادث العامة .

كما أن عناصر الموت تطرأ على الأمة الحية بواسطة الظلم والترف فتميتها .

ولذلك نهت الشرائع كلها ـ ولا سيما الدين الإسلامى ـ عن معاشرة فاسدى الأخلاق . وقرناء السوء .فهم عدوى فناء الأمم كما حثت على مجالسة العلماء والصالحين .وعشاق الفضائل فهم أسباب الرقى والسعادة)[٢]

---

(١) الشيخ عليّ الزنكلونى « الدعوة والدعاة » ١٠٨ .

(٢) الزنكلونى ١١٣ ـ ١١٤ .

تكوين الوحدات فى الأمم والشعوب

قوى الإنسان متضاربة .. وقد تعصمها الأخوة والنسب .. لكن هذا العامل لا يكفى وحده . بل ربما إذا تباعدت القرابة تكون سببًا للنزاع .. بل فى حالة القرب أيضًا .. ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا ﴾

ولذلك جاءت سنة الله محققة للترابط والنظام بشىء واحد هو :

المصلحة المشتركة ..

(أ) تتفق فيها الميول ..

(ب) تتطلع النفوس ..

أما اللغة والجنسية على ما لها من أهمية فإنها ضعيفة إلى جانب المصلحة هذه .

فرابطة المصلحة أقوى .. وما جاءت الأديان إلا بهذه المصلحة : سعادة الدارين لكل الناس ..

وقد لا يثبت التاريخ نزاعًا بين جماعات اتفقت مصالحها .. وقد يثبته بين أقرباء .. اختلفت ميولهم !

نظام الأمم والشعوب :

لا يستطيع الفرد .. كما لا تستطيع الأمة وضع نظام يحقق سعادة الفرد والمجموع ..

لأن العقل قاصر .. قصور الكمال مازالت مختزنة فى العالم .. لم تعلن عن نفسها والعقل يحكم الآن حكمًا قاصراً .. على حسب ما رأى فقط حتى الآن ..

(٢) ثم إن الأمة المادية تحقق مصلحتها ولو على أشلاء غيرها !! بل إنها تنمى فى أنفس الأمم حولها بذور الضعف لتظل مستعبدة !

(٣) بل إن أرقى الأمم لا تستطيع وضع منهج ونظام كامل للسعادة .. لماذا؟

لأن الاهتداء إلى ذلك مرهون بأمور يستحيل الزعم بامتلاكها .. فلابد لاختراع هذا النظام من :

(١) الوقوف على حقيقة النفوس البشرية

(٢) العذر المشترك من السعادة اللازمة لكل الطوائف

(٣) الأسباب الموصلة إليها

(٤) الأسباب المعوقة عن الوصول

(٥) مقادير الترضية وإقناع العقول

(٦) مقدار العقوبات والجزاءات

وهذا .. ليس فى مقدور بشر ..

إنما هو لله سبحانه وتعالى بنظام المحقق للسعادة .. الذى لا يرحم المنحرفين باسم الإنسانية الكاذبة ..

وإنما الإنسانية الحقة تقضى يطردهم فليسوا بشرًا يستحق الحياة !! وأهل الأديان الذين غيروها ليسوا أحسن حالاً من الماديين .

أمة العرب

أخطأ بعض الباحثين فظنوا أن الجاهلية تعنى : الجهل ومنشأ هذا الخطأ هو :

أ ـ جهل بعضنا .

ب ـ دور الاستعمار فى تزييف المفاهيم لحاجة فى نفسه .

إطلاقات «الجهل» :

يطلق الجاهل ويراد به : ضد العالم . والشجاع . والذى يستطيل ويحرك . ويقوى . ويشتد : جاء فى القاموس : استجهلت الريح الغصن : حركته فاضطرب . والجاهل : الأسد .

وقال ابن فارس :

الجيم . والهاء . واللام : أصلان :

أحدهما : خلاف العلم .

والآخر : الخسفة . وخلاف الطمأنينة

قال النابغة :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل

وقال ابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث :

جهل فيه إنكم لتجهلون . وتبخلون . وتجبنون أى : تحملون الآباء على الجهل حفظًا لقلوبهم . ومنه الحديث :

(من استجهل مؤمنا فعليه إثمه) أى : من حمله على شىء ليس من خلقه فيغضبه . . فإنما إثمه على من أحوجه إلى ذلك .

ومنه : حديث (الإفك) ولكن أجهلته الحمية . . أى : حمته الأنفة والغضب على الجهل بالله ورسوله ودينه . . وعلى المفاخرة بالأنساب .

وقال الراغب فى المفردات : الجهل على ثلاثة أضرب :

الأول : خلو النفس من العلم . وهو الأصل .

والثانى : اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليه . والثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل عليه : سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحًا أم فاسدًا . قال تعالى : ﴿ أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾

والجاهل يذكر تارة على سبيل الذم . وهو الأكثر .

وتارة يذكر لا على سبيله نحو : يحسبهم الجاهل أغنياء . .

والمجهل : الأمر . أو الأرض . أو الخصلة التى تحمل الإنسان على الاعتقاد بالشىء خلاف ما هو عليه]

وقال شارح القاموس :

الجهل : التقدم فى الأمور : والمجهل ـ كجعفر ـ أهمله الجوهرى . وقال غيره :

هو عظيم الرأس . أو المن . أو هو عظيم الرأس من الوعول (عن ابن دريد)

والجاهل : الأسد الذى يخرق الفريسة و (صفاة جهيل) : عظيمة .

وجاء فى (لسان العرب) : الجهل : نقيض العلم . والجهالة : فعلك الشىء بغير علم .

وقوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ ﴾ أى : الجاهل لهم .

ولم يرد الجاهل ضد العاقل . لكن أراد ما هو ضد الخبرة . .

والجاهلية : زمن الفترة بجهل الإسلام .

وعلى هذا : فالعصر الجاهلى أو : الجاهلية بمعنى الشجاعة . والاستطالة

والحمية . والتفاخر . ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾

ومنه قول عمرو بن كلثوم من معلقته يخاطب عمرو بن هند ملك العرب. ولما استطال عليه . وأراد أن تخدم أمه أمه :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قَدْرُوينا

إلى أن قال :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل مثل جهل الجاهلينا

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟!

تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتوينا

ومنه ما يقوله الناس الآن :

(هذا النبات قد جهل) أى : علا واستطال .. فهو مأخوذ من :جهل جهالة .. لا من جهل جهلاً .

وقد استعمل العرب فى جاهليتهم هذا اللفظ : (جهل جهالة) على أنه ضد الحلم لا ضد العلم . قال عنترة بن شداد :

وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكن أوقاتى إلى الحلم أقرب

وهو أيضًا القائل :

حكم سيوفك فى رقاب العذل وإذا نزلت بدار ذل فارحل

وإذا بليت بظالم .. كن ظالمًا وإذا لقيت ذوى الجهالة .. فاجهل

وقال أيضًا :

حلمت .. فما عرفتم حق حلمى ولا ذكرت عشيرتكم ودادى

سأجهل بعد هذا الحلم حتى أريق دم الحواضر والبوادى

معنى الجاهلية فى العصر الجاهلى

من معانيها :

١ ـ شدة الاندفاع فى قوة الدفـاع : للذود عن المروءة والشرف .. ومنه قول شاعرهم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الـــدم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحــه يهدم .. ومن لا يظلم الناس يظلم

٢ ـ قوة الحمية .. لوفرة العزة الأبية .. قال قائلهم :

المثبتة ولا الدنية !

وقال شاعرهم .

لا تسقنى ماء الحياة بذلـــة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنـــم وجهنم بالعز أطيب منـــزل

٣ ـ النخوة والإباء . والتعظم بالآباء .

قال ﷺ فى فتح مكة : « **إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية . وتعظمها بالآباء ..الناس من آدم وآدم خلق من تراب ..** » .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ... ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فصل الخطاب :

بهذا الاستقراء التام .. ظهر أن للجهل معانى أخرى غير أنه نقيض العلم ولكن أعداءنا لم يستقرئوا .. ، بل لجأوا للحكم العام صادرين عن طبيعة قبيلة واحدة اتخذوها ذريعة للحكم العام على العرب .. متجاهلين المعانى الأخرى لكلمة (الجاهلية) .

وإذن .. فلم يكونوا فى حكمهم منصفين .. ولكنهم كانوا حاقدين :

أولاً : لقد تصوروا العرب أقوى منهم فأرادوا هدمهم بقصر معنى الجاهلية على ما يناقض العلم وهذا العدوان بمحاولة هدم القوى .. كان خلق الأولين: من اليونان والرومان . والفرس : قديمًا .. ثم أوربا حديثًا ..

ويعنى ذلك أن حكمهم على العرب بالجهل . ضد العلم . يقف من ورائه الهوى .. يريدون تدمير العروبة والإسلام معًا .. لماذا ؟

أ ـ إن عز العرب بالإسلام ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ ﴾ وعز الإسلام بالعرب (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين ..) .

وقد شق على أعدائنا ذهاب العرب بأطراف العزة .. فقرروا تعكير الثقافات لصد العرب عن الدخول فى الإسلام ، كهذا الذى أقسم أنه وضع خمسة آلاف حديثًا لصد العرب ..

وقد كانت الحروب الصليبية محاولة جديدة للقضاء على الإسلام بما أطلقوا عليه «استعمار» وهو فى الواقع (استخراب) .

١ ـ لقد حاولوا استعمار العقيدة .. بالشك

٢ ـ واستعمار الثقافة .. بقتل اللغة العربية

٣ ـ واستعمار الخلق : بالميوعة .. والوجودية

٤ ـ واستعمار التفكير بخرافة : مصر بلد زراعى .. وبالفلسفة الإغريقية .

وهكذا فى كل مجالات النشاط : الوطنى . والاجتماعى . والاقتصادى. والعسكرى .واللغوى ..

وأسوأ ما فى الأمر أن بعضنا خدع بطرائق هؤلاء .. وعندنا صنائع الاستعمار ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾ وفى العرب خلق يجعلهم ينخدعون .

وفينا سذج طيبون : يظنون أن الإسلام لا يكون قويًا إلا إذا شتموا الجاهلية وقالوا : إذا كان العصر الجاهلى خيراً .. فَلِمَ جاء الإسلام إذن ؟! ونقول لهم :

الفرق بين أخلاق الجاهلية وأخلاق الإسلام هو الفرق بين المخلوق وخالقه: فلا ينبغى أن نقيس ما كان عليه العرب بما جاء به الإسلام .

بل : ماذا كان وضعها بين الأمم المعاصرة لها ؟

ونذكر بقوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ .

يصطفيهم .. حتى لايكون اتضاع نسبهم عيبًا :

﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ .

﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ .

ويوسف عليه السلام : حفيد إسحاق بن إبراهيم .. وأين الخزائن ..

وموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ﴾ ..

ومحمد ﷺ : هو القرشى الهاشمى

لقد اختير من خير بيئة .. لنكون به خير أمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ..

وسط فى العقيدة .. وفى الأخلاق .. وفى الاجتماع .. وفى المكان.. والوسط هو الكمال .. لأنه بين الإفراد والتفريط ..

من مفاخر العرب

خطبة كعب بن لؤى (الجد السابع لرسول الله ﷺ)

«اسمعوا وعوا .. وتعلموا تعلموا .. وتفهموا تفهموا ليل ساج ونهار ضاج . والأرض مهاد والجبال أوتاد .. والأولون كالآخرين .. كل ذلك إلى بلاء .. فصلوا أرحامكم وأصلحوا أحوالكم ..

فهل رأيتم من هلك رجع ؟ أو ميتاً نشر ؟ الدار أمامكم والظن خلاف ما تقولون زينوا حرمكم وعظموه وتمسكوا به ولاتفارقوه . فسيأتى له نبأ عظيم وسيخرج منه نبى كريم .. ثم قال :

نهار دليل واختلاف حوادث ... سواء علينا حلوها ومريرها

يتويان بالأحداث حتى تأوبا ... وبالنعم الضافى علينا ستورها

صروف وأبناء تقلب أهلها ... لها عقد ما يستحيل مريرها

على غفلة يأتى النبى محمد ... فيخبر أخباراً آصدوقًا خبيرها

ثم قال :

ياليتنى شاهد فخواء دعوته ... حين العشيرة تبغى الحق خذلانا

أما بعد :

فإن الله سبحانه وتعالى : لا يوزع الذل والعز على البشر جزاء كما يفعل طغاة البشر !

ولكن الأمر مبنى على سنن ثابته :

إن الله عز وجل يشاء أمرًا .. بناء على عمل الإنسان .

يقول عز وجل : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف:١٦] .

والمعنى :

أن الضال : يمضى فى سبيل الغى . حتى يفقد القدرة على التزكية : فيطبع الله على قلبه : فيفسد طبعه .ثم يعجز عن العودة إلى الهداية .

إذا لم تستح

تحدث بعض الكتاب ساخراً :

أعلن صدام حسين أنه يكره الظلم والقهر :

فهل هو لطيف ؟ . . نعم !

مجامل ؟ أحيانًا !

منافق ؟ كل الوقت !

ومن الذى يصدقه . . وهذه آثار فأسه ؟!

وأين أخلاق «جدك» الذى تزعم الانتساب إليه زوراً ؟

لقد اشتهر ﷺ قبل الرسالة :

بالصدق . .

وبالأمانة . .

كان الصدق جزاءً من كيانه . . حتى إذا دعا الناس إلى الإيمان . . اتبعوه . . لأن الإيمان تصديق . .

واشتهر بالأمانة . . حتى لا تحوم حول قوله أو فعله شبهة . . والأمين ـ كما قيل ـ فى الأمور المادية . . أمين أيضًا فى الأمور المعنوية .

والمؤمن :

شجاع . . لأنه يموت فى سبيل أخيه . . فى تعاون يصل إلى حد الإيثار . .

أما المنافق : فعلاقته بأخيه زائلة . . لانتفاء سبيلها . . والمنافقون جبناء . . فكيف يدافع بعضهم عن بعض . .

وهم بخلاء . . وليس هناك داء أدوى من البخل !

وإذا كان المنافقون يتبادلون البسمة . . ثم يخفون الخناجر فى ثيابهم . .

فإن المسلم مع أخيه : كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا . .

أمة الجهاد

(ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا)

إن الجهاد هو ثورة الإسلام الدائمة . فـى وجه الأعداء المتربصين بنا . . والذين شعارهم : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾ .

وإذا كان الجهاد . . لايتم إلابالقوة . . فكان من الواجب صيانتها حتى لا تنهار ومن أجل ذلك يحذرنا الرسول ﷺ من الفاحشة :

ومعنى ذلـك : تحريض على الجهـاد . . وهو العامل الإيجـابى فى بناء الأمة . . بقدر ما هو تحذير من العامل السلبى الموازى له :

إن الفاحشة تدمـر هذه القوة . . التى بها نبقى متمـاسكين . .فلا ينالنا عدو بأذى

إذا خالفنا انكشفت العورة :

تكون الآن قـد وصلنا إلـى أن رسول الله ﷺ جاء عـاما لجمـيع الأزمان والأمكنة بمبادئ هى الرحمة لو اتبعت لنجونا من الشقاء فى الدنيا . . وأخذنا الجزاء فـى الآخرة . . وهذه هى الـرحمة . . كـل هذا يفسـر لنا مـا حدث لآدم . . وهو أن الله سـبحـانه وتعـالى منـعه أن يـقرب الشـجرة فـلما ذاقـا الشجرة . . بدت لهـما سوءاتهما . . يعنى العورة بدت عـند المخالفة . . فأى عورة فى مـجتمع مـن المجتمعـات . . إذا بحثت عن أسبابها وجـدت أنها حدثت بـسبب مبـدأ من مبـادئ الله فى الأرض . . ولو لم يحـصل ذلك لما وجد الجمال فـى الكون . . إذا كان المستقيم وغـير مستقيم أمـرهما سواء فى الحياة . . لا يكون هـذا جمالاً . . ولو أن الطالب المجتـهد والطالب الذى لا يذاكر نجـحا لا يكون هذا جـمالاً فى الحيـاة . . بل إنه يكون جـمالاً يورث قبحًـا . . لأنه قد تساوى من اجتـهد ومن لم يجتـهد . . وبذلك لن يجتـهد أحد . . فلو لم يوجد الشقاء والفساد فى البيئات التى تبتعد عن منهج الله . .

لما كان ذلك جمالاً ولا شهادة للدين .

إن الشهادة للدين أنّ الجماعة التى تبتعد عن منهج الله يحدث لها شقاء وداءات وفساد وانحرافات .. وبذلك يدلل الله سبحانه وتعالى فى الحياة الدنيا .. ومن واقع تجربتها على صدق منهجه وتعاليمه ..

فتح التوبة أمام البشر :

إلا إن هناك معنى أوسع أود أن أضيفه .. ذلك أن السماء قبل الرسالة المحمدية .. كانت لا تطلب من الرسل إلا مجرد البلاغ .. وهى التى تتولى التأديب .. تأديب المخالفين .. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا فى القرآن.. ومنهم من أغرقنا ومنهم مَنْ خسفنا به الأرض .. ومن أخذتهم الصيحة .. السماء هى التى كانت تؤدب العاصين .. والرسل كان عليهم البلاغ .. لكن فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .. آمن الإسلام على أنه هو الذى يقوم بتأديب المخالف .. فالذى يعصى تعاليم الله . فإن له معيشة ضنكًا فى الدنيا غير عذاب الآخرة .. ولذلك كانت رسالة محمد ﷺ أنه رحمة للعالمين .. للكافر والمؤمن منهم .. ذلك أن السماء لم تعجل بعذابهم فى الدنيا .. كما كان يجعل بالمخالفين للرسل فى الأمم السابقة .. تركت لهم فرصة التوبة .. وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم .. وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون .. فكأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل نبيه رحمة للعالم كله دون تمييز بين مؤمن وغير مؤمن رحمه من عذاب السماء فى الدنيا. . وليفتح أمامهم أبواب التوبة عن المعاصى فيغفر لهم فى الآخرة .. وهذا هو معنى الآية الكريمة .. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

مسؤلية الأمة

وخروجًا من هذا الخسران .. يجب على الأمة أن تعرف هذه السنن .. ثم تعريف غيرنا بها :

إن كل الأمم مخاطبة بهذا القرآن العظيم ..

وكان هناك من هو أعجمى اللسان .. فإن الإعجاز اللغوى لهذا القرآن قد لا يجدى مع هذا اللون من المدعوين .. ولكن الذى يجدى معهم حقًا هو :

تعريفهم بأن لله فى الأمم سنن لا تتخلف .. ولا بأس من تذكيرهم بما حدث لهم ..

مثال : (هلاك المكذبين سنة إلهية)

وذلك قوله عز وجل : ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقوله عز وجل فى سورة النحل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٨٩ ، ٩٠]

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٩٠ ـ ٩٥]

وقد لاحظ العلماء هنا : كيف كانت الآيات الكريمة بشرى للمسلمين :

فقد حذرهم الله تعالى من نكث العهد .. بينما هم ساعة نزول الآيات

قلة فكأنما كانت بشرى لهم ـ بأنهم سيكونون غدًا قوة يحسب لها حساب . . إلى حد يخش معه الغدر ؟!

والآيات الكريمة مع هذا : تشريع دائم للناس كافة : أن يوفوا بعهودهم . ولا يتخذوا من الأيمان والمواثيق خديعة ومكرًا : إذا وجدوا فرصة غدروا . . أو أمة غير معاهدة أقوى من أمة معاهدة نقضوا عهد الأضعف . . لينحازوا للأقوى . .

وهذا الذى حذر منه الحق سبحانه هو بالضبط ما حدث فى الحرب الماضية كما أشرنا :

وصدق الله العظيم : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢]

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر:٤٣]

تعقيب :

إن واقع المسلمين اليوم على غير مارسمته الآيات الكريمة وهو فعلاً ما يحتاج منّا إلى تأمل :

إن سنة الله تعالى ماضية على رؤوس المسلمين : فتهتز بهم وتؤخرهم ما فرطوا فى جنب الله تعالى :

وهى إذن أزمة ثقة :

وهى فى حاجة إلى عودة راشدة للقرآن الكريم والسنة المطهرة . . ليعود إلينا مجدنا الغارب . .

أنواع العقوبات

ومن هذه العقوبات : ما هو محدد من قبل الشارع ، وهى التى تسمى: «الحدود» .

ومنها : ما وكل إلى الحاكم .. وهى التى تسمى (تعزيرات) وكلها تدور على محورين : رفع المضرة ، وجلب المصلحة .

وهى بهذا المعنى صورة من صور الرحمة الإلهية بالإنسان :

فالمعصية : فساد فى نفس العاصى يراد إصلاحه . ليتحقق التوازن فى داخل الإنسان .. ثم بينه وبين المجتمع .. وذلك عن طريق عقوبة :

تردعه .. فلا يعود هو .. ولا غيره .. بمعنى أنها :

تأديب يراد به : التهذيب ..

وإذن .. فلا حاجة معها إلى مزيد من التعذيب !

إنها حكم إلهى : يحق الله تعالى به الحق . ويبطل الباطل .. لتبقى البيئة كما خلقها الله سبحانه صالحة .. وبلا فساد .

وترفع هذه العقوبة بالعفو .. وتنقلب إلى (تعزير) رعاية للحق العام .. ومنها ما لا يسقط بالعفو : كالزنى . والسرقة . والردة . وشرب الخمر .

مناقشة المعترضين على الحدود

حد السرقة :

١ ـ من حقى أن آمن على رزقى . . وعلى حياتى . .

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٤]

٢ ـ ورزقى هذا هو تعب عمرى .

٣ ـ لم الانزعاج لقطع يد واحدة ؟

إن اليد المقطوعة ظلمت المجتمع كله بسلبه : الأمن والرزق .

٤ ـ وإذا كان ولابد من بكاء : فليكن على «المسروق» لا على السارق ؟!

المسروق : الذى قد يدفع حياته ثمناً للدفاع عن ماله

٥ ـ وإذا قالوا : إن العقوبة شديدة . قلنا : إن الحد بسبب الأثر . وليس على القدر المسروق .

٦ ـ ثم . . لو أحصينا من يستحق القطع فى أمر اتفق عليه الفقهاء . . لوجدنا يداً واحدة تقطع . فى كل عشر آلاف حالة . كما قال «أبو هريرة»

٧ ـ ضحايا السرقة من المسروقين . . لامن السارقين . . ولكن المعترضين يبكون على القتيل . ولايلتفتون للقاتل وهو : السارق . . السارق الذى نحميه ونحمى معه المجتمع من ثأر المسروق الذى يتم بلا دافع من عقل أو دين

٨ ـ إنها القسوة الحازمة : ومن دلائل حزمها :

أن قطع يد واحدة . . يمنع قطع المفاز بدليل السعودية التى تطبق هذا الحد.

٩ ـ فى فرنسا حوادث سطو مسلح . وفى أوروبا كذلك . .

ولقد اخترعوا جهازًا ينبه على السرقة . . ومع ذلك فلا يزال مسلسل السرقة مستمرًا . .

١٠ ـ تطبيق الحد ليس حرفيًا :

أ ـ فقد عطل الحد عام المجاعة

ب ـ باب التوبة مفتوح أمام السارق . وقد روى : (إذا تاب السارق سبقته يده إلى الجنة . . وإذا لم يتب سبقته إلى النار) وفى هذا درس لمن يريد أن يعير السارق . . فنقول لهذا المعيرِّ :

إن يده فى الجنة . . وليست كاليد فى الدنيا . .

١١ ـ يحتمل تطور جريمة السرقة . . لتكون قتلاً . .

١٢ ـ ربما لو لم نقطع يد السارق ربما تجمع السراق فى عصابات يستعصى ردعها .

١٣ ـ فى دول : تقطع الرقبة . . فلماذا توافقون على هذه . . ولا توافقون على قطع اليد ؟!

وإذن فإذا كانت مصلحة المجتمع فى قطع يد السارق ظاهرة . . فإن مصلحة الفرد أيضًا ظاهرة : فله الحق فى التوبة ـ كما أشرنا . . ثم إن العقوبة قد تسقط بالشبهة . . ثم إنها تزود الفرد بوازع الرهبة فى النفس بخلق «الحياء» الرادع . .

وذلك يعنى : إنشاء الضمير الذى لا نفتله بدليل :

ولا تعينوا عليه الشيطان . .

ثم إن العقوبة مع كونها ردعًا للسارق . . فهى بنفس القوة شفاء لصدر المسروق ثم هى رحمة بالمجتمع أيضًا :

فيما يخضع للإثبات . . كالسرقة . .

ومالا يخضع له . . متروك للحياء : أى للضمير .

وتطبيقها يعنى : إعفاء المجتمع عن إيقاع العقوبة مستقبلاً

حد الردة :

١ ـ المرتد : عامل هدم :

فقد كانت الفـرصة أمامه اختيارية . . ولم يجـبره أحد على الإسلام . . ولكنه بعد دخوله . . لابد أن يلتزم . . وإلا قتل !!

٢ ـ لا إكراه فى الدين .

٣ ـ ارتداده يحدث بلبلة فى المجتمع المسـلم . . وذلك ما يشير إليه قوله عـز وجل : ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢]

٤ ـ المرتد : تطلب منه التوبة . . فإذا امتنع . . قتل !

حد الزنى :

١ ـ قالوا إن العقوبة شديدة . . ونقول : بل هى مكافئة للجريمة .

٢ ـ وإذا قالوا : إن ضرر «الزنى» شخصى . . فلماذا التشديد ؟ قلنا :

أ ـ أباح الإسلام له حلاً نظيفًا عن طريق الزواج . . لكنه أعرض .

ب ـ أضاع طاقه كانت مرصودة أساسًا لمصلحة الوطن .

٣ ـ ما يترتب على الزنى من أمراض أكدها الطبيب المسلم . الحاذق .

٤ ـ اختلاط الأنساب .

٥ ـ الإعراض عن الزواج . . بسبب ما يقـول المنحرفون : إذا كان لديك بقرة . . فلم تشترى الحليب ؟!!

٦ ـ الزنى يمارس فى الخفاء :

ومن المقرر نفسيًا : أنه كلما اشتد خفاء الجريمة زاد عقابها .

٧ ـ جريمة الزنى تتم بتعاون الطرفين مما يجعلها سهلة متاحة .

٨ ـ لقد هدم الزنى بيتًا . . فيجب أن يرمى بأنقاض هذا البيت . .

٩ ـ نسى المعترضون على حد الزنى :

أ ـ أن اشتراط الشهود فى الإسلام يعنى : أن الجريمة وقعت فى الشارع . . وإذن . . فالسكوت عليها تسيُّبٌ خطير .

ب ـ تستر عورة المرأة ساعة الرجم .

جـ ـ جلد مائة وتغريب عام . . عقوبة مناسبة للرجل . . والحبس فى البيت : مناسب للمرأة

د ـ إنه «عذاب» وليس تعذيبًا : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

هـ ـ لاحظ بعض الكاتبين أن تنفيذ عقوبة الإعدام على مرأى من الجمهور لا يؤدى إلى قمع النوازع الإجرامية . . بل إنه يؤدى ـ كرد فعل ـ إلى ارتكاب جرائم جديدة ضد ما ارتكبت الدولة من جرائم فى حق الأفراد.

ونكرر : أنه «العذاب» وليس التعذيب . . ولكن بعض الناس لا يدرك حقيقة الدرس المستفاد . . لأنه محكوم بروح التشفى .

و ـ فى الزنى : اختلاط الأنساب وضياع الحقوق . ثم هو ضياع الذرية بالإعراض عن الزواج مادام الطريق إلى الزنى صار سهلاً .

ويرحم الله الإمام أحمد :

لقد ذهب إلى تحريم أن ينكح العفيف البغى . . وذهب أيضًا إلى تحريم نكاح الفاسق العفيفة :

وكان رأيه هذا وسيلة إلى تشجيع الفاسق والبغى على التوبة إلى الله تعالى .

حد الشرب :

من واقعية الإسلام اعترافه بضغط «العادة» التى تشكل طبيعة ثانية . كما يقرر هذا علم النفس الحديث :

وعلى هذا الأساس كان تحريم الخمر فى الإسلام : طبق سنة التدرج .. وهو الأسلوب اللائق إذا أريد فطم الناس عن عادة متمكنة :

وقد كانت فطرة العربى تبحث عن الخلاص .. بعد الإسلام .. حتى وجدنا عمر رضي الله عنه يطلب من الله فى الخمر بيانا شافياً :

وكان التعبير عنها «بالإثم» أولاً .. لأجل أن يتركها البعض .. ثم «بالمنافع» حتى يشربها البعض ..

ثم وفى النهاية يجىء النذير المدمدم .. فتركوها :

تركوها ..حتى من لا مست الكأس شفيته :

وتحولت أوقات الشرب لتكون أوقاتًا للصلاة .

وقد أثبت الطب أن الخمر :

يصل إلى المعدة . والمخ ..

وتبقى الأعصاب آمنة لمدة يومين ..

وبعد ذلك تظهر آثارها المدمرة :

من حيث لا يصلح الشارب لعمل .. بل يهرج ويصبح مجرمًا .

وبناء على ذلك راجعت شركات التأمين موقفها بالنسبة للشاربين . بعد ما تبين لها كثرة الأموات منهم :

ونتساءل هنا باسم الإسلام :

إذا كان الإسلام ينهى عن شرب الحلال من «ثلمة القدح» لأنها مجمع

القاذورات . وخوفًا على الشفة . . أفلا ينهى عن الشراب الحرام ؟!

حد القذف :

الأصل فيه . قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[النور: ٤]

والنص على النساء فى الآية الكريمة ـ وإن كان الحد يشمل الرجال ـ :

أ ـ لحساسية موقف المرأة . . (فهى مثل الزجاجة : كسرها لايجبر) .

وبالتالى فإن الضرر الواقع عليها بالقذف شديد . . بدليل :

أن المجتمع أصعب قبولاً لتوبة المرأة من الرجل .

والحس العربى يقبل الداخلة فى الإسلام بعد الشرك : يقبلها زوجة أكثر من قبوله المسلمة التائبة !!

معنى هذه الاعتراضات

يعرف الإنسان أن القفز من الطائرة مهلك : إدراكًا منه لسنن الله تعالى فى الجانب المادى ومن أجل ذلك : اخترع «المظلات» .

ولكنه لم يعرف سننه تعالى فى النفس .. فهلك .. ولم يحاول أن يتوقاها :

إن الله تعالى سننًا فى هذه .. وتلك ..

ولكن الناس لا ينازعون فى السنن المادية .. ولكنهم ينازعون متسائلين: هل قوانين النفس لها من الصرامة ما للسنن المادية ؟!

وصدق الله العظيم : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦] .

لا يعلمون الوجه الآخر للقضية :

فكما أن الجسم يذوى إذا انقطع عنه الغذاء والماء .. فإن الجانب المعنوى يضمحل كذلك : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦ ، ٧] .

إن الإنسان ليس أقل شأناً من المادة .. حتى لا ينظم بقوانين .. بل هو أعظم وأولى ..

ولولا أنه تعالى سنَّ هذه القوانين لفجر ضعاف النفوس .

وهو عز وجل : يزع بالقوانين مالا يزع بالدين ألا وإن من كرامة الإنسان أن يكون سلوكه سويًا نافعًا :

لابد أن يكون واقعه متأثرًا بعالمه الداخلى :

ذلك بأن الواقع صدى لما فى أنفسنا

وذلك بعض ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ

غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ .

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ .

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ .

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ .

وللأسف الشديد وقع بعض الأغرار فى الشرك المغصوب .. مع أن مذهبهم باطل لأنه :

١ ـ إنكار لوجود الإله .

٢ ـ والإنسان جزء من الطبيعة المتغيرة .

٣ ـ وسبيله إلى المعرفة هو العقل وحده .

٤ ـ والمثل : ما هى إلا أمور اعتبارية مثل «العدل» وإذن .. فلا ثبات لها ..

٥ ـ ثم إن الإنسان فقط مجموعة من الغرائز .

ومع فساد هذه الأوهام . التى يسمونها قواعد .. إلا إنها بمكر الليل والنهار .. صارت ثابتة .. مع أنها خدعة «علمانية» ..

إنها فى الحق «لادينية» ولكن الماكرين يلبسونها ثوب العلم فقالوا : علمانية .. إرادة الترويج لها .. وهيهات !!

لقد أنكروا الأديان كلها لتغير الموقف لكنهم يؤمنون بكل الأديان ما عدا الإسلام وبكل نبى عدا محمد ﷺ حتى البوذية يؤمنون بها ويسمون سدنتها أنبياء !

تعقيب

احترام الإسلام للحياة حقيقة يؤمن بها العقل والقلب معًا :

الحياة لذاتها : ولوكانت حياة قطة أو عصفور أو سلحفاة !

وكانت حياة الإنسان بطبيعة الحال أعز وأكرم . .

وحتى بعد وفاته لا يسقط حقه فى التكريم .

يقول ﷺ : « **كسر عظم الميت ككسره حيًا** » رواه أحمد .

« **لاتذكروا موتاكم إلا بخير** » رواه أبو داود .

« **ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين وإذا مات أحدهم فقولوا فيه خيرًا** » .

بل إن الصحابة رضوان الله عليهم . لما سبوا أبا جهل بعد موته ـ نهاهم الرسول ﷺ : رعاية لمشاعر ولده عكرمة وجبرًا لخاطره ﵁ لأن سب الميت يؤذى الحى . . . ثم إن الميت لا يملك الدفاع عن نفسه . والحسن مصدر الكرامة أيضًا . . فلا يساء إليه .

وإذا كان ذلك شأن الإنسان ميتًا . . فمن باب أولى أن يكون فى حياته مصونًا مكرمًا :

ومن وسائل ذلك :

ما شرعه الإسلام من عقوبات مرصودة لكل عابث بحياة هذا الإنسان. . أو دينه أو عرضه . أو ماله . أو عقله . . وهو ما يسمى بالكليات الخمس : بل إن قتل إنسان واحد يساوى قتل البشرية جميعًا :

لأنه عدوان على معنى الحياة فيه . . على ما يقول عز وجل : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا .... ﴾ [المائدة: ٣٢]

مناهج البحث فى علم الاجتماع

المناهج هى :

[الطرق التى بفضلها تبنى العلوم قواعدها وتصل إلى حقائقها]

ومن ملامح هذه المناهج :

١ ـ تدرس الظواهر عن طريق الملاحظة والتجربة كالعلوم الطبيعية.

٢ ـ عدم التسليم بصحة قضية إلا إذا ظهر صدقها تمامًا .

٣ ـ التحرر من كل فكرة سابقة معروفة عن الظاهرة . حتى لا يقع الباحث أسيرًا لأفكاره الشخصية .

٤ ـ عدم التأثر بمشاعره الخاصة [فلا يهاجم الملكية مثلاً لأنه جمهورى]

٥ ـ إذا اتصف الباحث بصفات ضارة فلا يضفى شيئًا منها على أسباب هلاك الأمم .

٦ ـ تحديد الغاية بوضوح

٧ ـ فكرة التحليل والتركيب ويعنى ذلك :

أ ـ تبسيط الظاهرة إلى أجزائها .

ب ـ التدرج فى البحث بحيث تكون كل نقطة بمثابة النتيجة لمقدمتها . .

وذلك كله حتى لا يقع الباحث فى الخلط :

ومن معانى الخلط : أنه لا يعرف التمييز بين ما هو سبب . وما هو مسبب :

مثل أن يظن أن سبب ظاهرة الفقر هو : انخفاض الأجور . . مع أن السبب قد يكون العكس .

ج ـ تتبع الظاهرة فى تشعبها :

فمثلاً : عندما يبحث ظاهرة زيادة الأطفال . . عليه أن يبحث ما يلى :

١ ـ نظام السكن .

٢ ـ مستوى المعيشة .

٣ ـ مستوى الصحة العامة .

٤ ـ الوسائل الوقائية والعلاجية .

٥ ـ أثر البيئة والوراثة .

٦ ـ نظام التربية .

٧ ـ عمل المرأة .

وينبغى عدم الاقتصار على منهج واحد فى دراسة الظاهرة . . بل يجب الوقوف على طبيعة الظاهرة . ثم تحديد أفضل المناهج لدراستها :

فقد تتفرد ظاهرة بتاريخ طويل . . فيستحسن دراستها تاريخيًّا . .وقد تخضع للإحصاء . فتدرس فى ضوء منهج الإحصاء الاجتماعى وقد تكون حديثة أو دخيلة . . فتدرس دراسة مقارنة .

العوامل المؤثرة فى حياة المجتمع

قال قوم : البيئة الجغرافية لها أثرها وبهذا الرأى أخذ ابن خلدون .

وقال آخرون : بل المؤثر هو : الجنس وأخذت بهذا الرأى دول فى طليعتها : ألمانيا . . .

وقبلها كان اليونان . وكان الرومان .

لكن يقف من وراء ذلك : الرغبة فى الاستعمار واستنزاف خيرات الشعوب .

وعلى ذلك قررت ألمانيا : الاتحاد . . وعدم الاختلاط بأجناس أخرى . . سبيلاً إلى التقدم والنصر .

ولكن الإسلام يرجع التأثير إلى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

ضلال علم الاجتماع المادى

مدخل :

يقول الله عز وجل فى سورة فصلت : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥] .

إنهم كالحيوان فى حظيرته .. أو كالحشرة فى جحرها . بل إن الحيوان والحشرة أفضل منهم حالاً :

لأن الإنسان هنا : وفى أذنيه وقر : فلا يسمع .. ولا يتصل بالكون من حوله .. فى الوقت الذى يظل الحيوان ـ بواسطة السمع ـ متصلاً بالكون ..

وهكذا .. ما دام الهوى هو المتحكم فقد اختلت النظرة للإنسان فى علاقته بأخيه الإنسان .. وفى علاقته بالأكوان .. وذلك بعض ما يفهم من قوله عز وجل : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[الجاثية: ٢٣، ٢٤]

ومن إفرازات ذلك قولهم :

إن العالم قديم .. أى : مستغن بذاته عن الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا .

ولقد كان العالم همجيًا .. جاهليًا .. ثم تحضر .

ثم إنكار البعث : ومعنى ذلك :

١ ـ إنكارهم أثر النبوات فى العالم .

٢ ـ أنكروا تأثير عالم الغيب فى عالم الشهادة .

٣ ـ إلغاء دور الإنسان فى صنع الحضارة .

٤ ـ العالم يسير بحركة ذاتية .. لا بإرادة خارجية .

٥ ـ اليأس ثم الانتحار .. لأنهم يواجهون العالم بقوتهم .. وقوتهم عاجزة عن مواجهة أخطار الطبيعة : فيستسلمون .. ثم ينتحرون !!

٦ ـ علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة عداء .

السالب : نقيض الموجب .

الذكر : نقيض الأنثى .

الأبيض : نقيض الأسود .

الساخن : نقيض البارد .

المادة : نقيض الطاقة .

وقال الاقتصاديون منهم :

الإنسان اقتصادى : لاهم له إلاَّ إشباع رغباته .

ولمَّا كانت الرغبات لا تنتهى فالصراع مستمر على جبهتين :

أ ـ مع الإنسان .   ب ـ مع الطبيعة .

وقال التطوريون :

الحياة : ساحة صراع : يسحق الأقوياء الضعفاء : إنه منطق القوة .. لا منطق العدالة : والمكر .. وليس الإيثار !

كل ذلك هو الذى يوجه حركة الحياة : والبقاء للأقوى .. لا للأصلح :

الأصلح : جسمانيًّا .. لا أخلاقيًّا ...

قال « سبنسر » :

[الطبيعة أذكى من الإنسان .. وهى تمضى فى طريقها التطورى بوعى وإدراك] .

أما فى الإسلام : فالأمر يختلف : ذلك . . بأنه إذا كان العلم المادى ينطق من قاعدة مادية تنكر الإله سبحانه وتعالى فإن العلم فى الإسلام ينطق من قاعدة سليمة :

١ ـ فالعالم مخلوق لله تعالى وحده :

وهى قضية يعترف بها الماديون أنفسهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]

ولكنهم لا يرتبون عليها نتائجها وهى :

إفراده تعالى بالعبادة : وذلك قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]

٢ ـ وهذا العالم يسير وفق نظام صارم: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ١٩ ـ ٢١]

٣ ـ وهذا النظام لا ينخرم أبدًا : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر: ٤٣]

فليس هناك من يقدر على تبديل نوع العذاب الذى قدره الله تعالى . . وليس هناك من يقدر على تحويل مجراه . . ليصيب ناسًا آخرين لم يشأ الله تعذيبهم .

٤ ـ وأن هذه السنن التى يمسك الله سبحانه بها الكون لا تعمل وحدها . . وإنما تعمل بقدرته عز وجل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١] .

ويعنى ذلك : أنه تعالى يمسك السموات والأرض لتظلا على ما هى عليه من نظام ولو قدَّر التخلى عنهما ما يقدر أحد على إمساك ما أراد الله تعالى بعثرته .. إنه تعالى يملك ويحكم .. وليس كإله أرسطو الذى يملك ولا يحكم : فهو خالق السنن وهو وحده سبحانه القادر على خرقها .. لأنها من صنعه: يصرفها كيف يشاء وتأمل قوله تعالى :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] .

وكان ذلك كذلك .. حتى لا يعتمد أحد عليها ..

٥ ـ ومعنى ذلك : أن العالم لا يتصرف بذاته .. وليس سيره سيرا حتميًّا .. وإنما هو فى قبضة خالقه سبحانه

٦ ـ للعالم غاية ينتهى إليها : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

٧ ـ تقوم الحياة على التزاوج والتكامل : كالليل والنهار .. وليسا نقيضين

يقول عز وجل : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣] .

ومن دروس الدعوة هنا : الإجمال أول الآية .. ثم التفصيل تسكنوا.

وهكذا الكون كله ابتداءً من الذرة : قائم على الزوجية .. لا على التناقض ..

٨ ـ للغيب تأثيره فى عالم الشهادة :

أ ـ ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢] .

فالملائكة : يثبتون : ولا يثبتون إلا المؤمنين .. الضاربين بالسلاح ..

وليس المتواكلين .. ـ وإلقاء الرعب منه وحده سبحانه ..

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] .

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ﴾ [الكهف:٢٩] .

ب ـ والشياطين توسوس للإنسان ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس: ١] .

ج ـ ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] .

وهكذا يرتبط سلوك الإنسان الظاهر .. بتفتح كنوزه النفسية :

ورغم وضوح هذا المعنى .. من خلال هذه الآيات الكريمة .. لكن الإنسان لم يعتبر ..

بل تعجل نزول العذاب ساخرًا .. وذلك قوله عز وجل : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ .

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦] .

وقد أمر ﷺ أن يقول لهم : ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ .

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ .

ليس أجل الموت فقط .. وإنما كذلك : أجل العقاب ..

وإذن : فقوانين الاجتماع . وسنته تعالى فى إهلاك المستحق قاطعة جازمة .. الأمر الذى يفرض علينا تعلم دروس التاريخ من خلال آيات

القرآن الكريم : فقد قدم لنا بصائر .. لكن العيب هو :

أن الجيل قد يشهد مرحلة البناء .. لكنه لا يشهد مرحلة السقوط ومن ثم تكون مشكلته هى :

أنه لا يرى الشيء بنفسه كاملاً ..

ولكن المحيط بكل شيء هو الله عز وجل : الذى يحيط علمه بالزمان وبالمكان .

أما الإنسان : فهو أسير قصوره وضعفه : فقد يشاهد حضارة شاهقة .. في تصور أنها لن تبيد .. ولن يصدق من يقول له : إنها إلى زوال .

ولكن العليم هو الله تعالى .. القائل : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤] .

ومن أجل ذلك : حدث ﷺ جيل الصحابة الذين عاشوا معه المرحلة الحرجة: حدثهم عن المستقبل :

عندما قال له خباب : ألا تدعولنا ؟ ألا تستغفر لنا :

لقد حدثهم عن سنته تعالى فيمن سبق من الأمم .. ثم قال : « **والله ليتمن الله هذا الأمر .. حتى يكون الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون** » .

وتبقى السنن الاجتماعية لها صرامتها .. ومع ذلك لها من يشككه فيها: لماذا ؟

فالماديات خاضعة للتجارب .. وهكذا يزعمون :

إن الاجتماعيات تعيش زمنًا طويلاً .. مما يجعل إدراكها صعبًا ..

ولكن الإنسان غير خاضع للتجربة .. وخاصة فى جانبه العاطفى ..

ثم إن للماديات آثارًا واضحة . . تفرض نفسها بخلاف المعنويات .

[إن الإنسان حر فى عمله . ولا يمكـن ـ مع هذه الحرية ـ أن تجد قانونًا تخضع له أعماله] .

ولا حظ أن القوانين الاجتماعية :

أ ـ معقدة .

ب ـ ذاتية داخلية : لا يمكن رؤيتها .

ج ـ ومن تعقيداتها :

أن سوء الحالة الاقتصادية قد يؤدى للطـلاق فى مجتمع . . وفى مجتمع آخر : قد يكون مانعًا من الطلاق .

وقارن هذا بقانون الجاذبية : فى سقوط الحجر ـ لابد ـ من فوق . ؟!

ومع هذا الـواقع الصارم الـشاهد برحـمة الإسلام بـالإنسان فـإن بعض المعقدين من المسلمين يجأرون قائلين :

إن المستقبل للمسيحية فى الصين !! لماذا ؟!

لأنها أباحت لهم الخمر !!

ثم يقولون متبجحين :

فلماذا لا نبيحها لهم ليسلموا ؟!

والجواب : أنه لا مساومة على العقيدة :

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر !!

فمن أحسن فلنفسه . . ومن أساء فعليها !!

وهنا نذكر نصيحة الشيخ لما سأله رجل يريد الدخول فى الإسلام قائلاً :

إن ما يمنعه من الإسلام هو أنه مدمن الخمر . . والإسلام يحرمها

فقال له الشيخ : ادخل فى الإسلام ثم اشربها ! .

فلما أسلم قال له الشيخ : إن شربتها . . أقمنا عليك الحد . .

وإن رجعت عن الإسلام كنت مرتدًا . . فتقتل .

سؤال :

هل يقف الإسلام موقفًا بوليسيا : يجازى فقط بعد الوقوع ؟!

لا . . ولكنه يعالج أولاً . . بمعنى أنه يسد المنافذ حتى لا تكون جريمة . . ومنافذ الجرائم منها :

فساد الحكم ـ والرشوة . قسوة المجتمع . الطلاق . تفاوت الثروات وقد عالج الإسلام كل ذلك بالحكمة . . فتراجعت الجريمة . . فى الوقت الذى أثبتت فيه الإحصائيات : أن الفرد الأمريكى يوميًا وسرًا ما يعاقب عليه بخمس سنوات سسجن بالإضافة إلى غرامات مالية تقدر بآلاف الدولارات . .

ويبقى أن نفسر استغراب بعض المسلمين للعقاب والجواب : أنهم لم يشاهدوا العقوبة مطبقة . . فاستوحشوها !!

أما بعد

فقد بنى الإسلام أحكامه على أساس العوامل النفسية :

فرفع الحرج والمشقة عن : الحائض . والمسافر . والصائم .

وإذن : فالإنسان مبدأ التغيير .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ .

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ .

وتذكر هنا كيف كان كفران النعم سببًا فى زوالها . .

يقول عزوجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ [سبأ: ١٥] .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧] .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ١٧ ـ ٣٣] . وصدق الله العظيم .

التغير : قانون الحياة

الحركة . . أو التغير . . أو التطور : قانون الحياة . . وسنة الله تعالى فى خلقه . .

وفى القرآن الكريم ما يؤكد ذلك بحيث يساعد على إدراك ذلك من قبل الإنسان الذى يزيده ذلك الإدراك قدرة على الانتفاع بالكون المسخر له :

يقول عزوجل : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠] .

فكل ما فى السموات وما فى الأرض معد للتغيير .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] يرفع أقوامًا ويخفض آخرين . .

وقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٧ ـ ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

واقرأ قوله عزوجل : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح : ١٣ ، ١٤] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

ولاحظ أن آي سورة نوح : تتعلق بتطورات الإنسان . .

أما آية سورة النمل : فتتعلق بالتطور فى مجال المجتمع . .

ولكن التطور هنا لا يتم عشوائيًا . . ولكن فى إطار وحدة الحياة :

﴿ وجعلنا من الماء كل شئ حى ﴾ .

ووحدة الأحياء : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام:٣٨] .

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

ولاحظ مع هذه الآيات الكريمة ما أشار إليه العلماء ومنهم ابن خلدون وهو : مبدأ انحلال المجتمعات .

وذلك قوله عزوجل : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء:١٦] .

وقد توج ذلك كله بقوله عزوجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣] .

وإذن . . فالتطور مردود إلى الإنسان . . ولاحظ أن هذه الآية مسبوقة بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥٣] .

لقد غير الكفار ما بفطرتهم من الاعتراف بالخالق سبحانه . . فذاقوا وبال أمرهم .

وسائل التطور :

(١) ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

(٢) ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ .

(٣) ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ .

بمعنى : انحلال مجتمع . وقيام آخر .

(٤) ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان : ٢٥] .

منطق دارون :

عبر عن الأولى فقال : تنازع البقاء .

وعبر عن الثانية فقال : انحلال المجتمعات .

وعبر عن الثالثة فقال : البقاء للأصلح .

ولكن دارون مجال بحثه : المادة . . ولا شأن له بالمجال الأخلاقى فهو يبحث . ويتحرك : بلا هدف . .

ولكن الإسلام يستهدف الحق . . مع عدم إلغاء صلة الإنسان بالحياة من حوله . . كيف ؟ .

يقول تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : ١٠] ـ فالصلة بينهما أزلية مستمرة .

أما دارون فنحن ندينه بقوله تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

الإنسان أداة التغيير :

وذلك وفق ضوابط من صنع الله تعالى تستقيم بها الحياة .

ثم هو تغيير إلى الأفضل دائمًا :

وتأمل الآيات الكريمة الآمرة بالسير والنظر :

كلها طلبية بمعنى : أنه يسير بدافع ذاتى دائمًا .. ومعنى أمره بالسير :

أن يكون سيره لهدف : من أجل اكتشاف سنن الله تعالى إن الإنسان مثل شجرة تقف على نهر الحياة . تستمد منه النماء . فهو بملكاته الروحية قادر على التسامى والرقى إلى أعلى : بما يستمده من قيم الروح من المعين الذى لا ينضب ولا يجف .

بداية التغيير :

يقول ﷺ : (ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم . كمثل الجسد الواحد ..) .

(إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ..) « البخارى »

فمن عرف سنن تماسك البنيان . وأسباب انهياره كان أقدر على التغلب على الظروف بما يعرف من خواص المجتمعات كهذا الذى يعرف خواص المادة .

إن من يعرف خواص المادة لقادر على تشييد قصر على أنقاض هدم كذلك . من عرف سنن الله تعالى فى المجتمعات كان أقدر على تشخيص العلة . ووصف الدواء .

وإذا كان إدراك المميزات والعيوب سهلاً .. فى الماديات .. فإن ذلك لا يعنى استحالة معرفتها فى المجتمعات كما يشير حديث : « خرق السفينة » .

كل شىء فيه قانون سَرَى كيف فى هذي المعانى يمترى ؟!!

خطوات التغيير :

يجب إحدث التغيير أولاً فى نفس الإنسان :

فقد تبذل .. وبسخاء .. بيد أن ذلك قد يكون فى لحظة حماس .. ثم ينطفئ !

وإذن فالمطلوب هو : تغيير النفس حتى تصير الأخوة عاطفة سائدة: تبذل فطرتها .. كالعين الجارية .. لا كما ترفع الماء من قاع بعيد !

ثم إن النفس هى التى تتصور الأشياء . ثم تحكم لها أو عليها .. فما لم تكن النفس حكمًا عادلاً .. فكأننا لم نفعل شيئًا !!

وقد تزدهر البيئة بالثمر : ولكنها : المرأة الحسناء فى منبت السوء !! وذلك يكون عندما ننظر ولا نقول : كيف ؟؟ يعنى : ما هى الأسباب !!

شواهد من القرآن الكريم :

يقول الله عزوجل :

(١) ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٧] .

(٢) ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠] .

(٣) ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥] .

(٤) ﴿ .. وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩] .

(٥) وقال ﷺ : (إنما هى أعمالكم ترد عليكم) .

(إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم : فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غيرها فلا يلومن إلا نفسه) ..

والمعنى :

أن تغيير المجتمعات واستمرارها . . رهن بقوى مادية . . هى فى الواقع مظهر لقوى أخرى روحية خلقية . . هى الفاعلة أصلاً .

(٦) ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧] .

تنبيه :

(١) ما مضى : سنة عامة . فى المسلمين وفى غيرهم .

(٢) سنة مجتمع . . لا سنة فرد .

(٣) سنة دنيوية لا أخروية .

(٤) تغيير من الفرد . ثم تغيير من الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] .

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥] .

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠] .

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] .

﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] .

متى التغيير ؟

إنما يتم التغيير . . متى بدأ تغيير النفس .

يقول عزوجل : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ١ ـ ٧] .

وذلك يعنى سطحية أكثر الناس : الذين لم يفهموا قوانين تغيير المجتمعات فكان ما كان !

أما بعد :

فإن كل شىء يتغير . . إلا قانون « التغير » نفسه .

تأثير الوسط الاجتماعى :

للوسط الاجتماعى أثره الذى ينعكس على شخصية الإنسان [١] .

ومن هنا قال المجربون :

(من سكن البادية جفا) .

(ومن اتبع الصيد غفل) .

(ومن أتى السلطان افتتن) رواه أبو داود .

ذلك بأن الاختلاط يكسب الإنسان العادات الاجتماعية . . فمن اعتزل . . جهل !!

يقول المرحوم د. محمد سعاد جلال :

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

تقرر الآية أن تغيير حال الأمة من سعادة النعمة إلى شقاء العذاب والنقمة، لا تصدر عن فعل الله جزافًا وبغير أسباب من فعل الأمة وخبرتها ، لأن الله تعالى موصوف بتمام الحكمة ، والعدل ولا يفترض فى أفعاله بخلقه غير مقتضاها من الخير ، والرحمة ومصير الأمم موكول لنوع سلوكها بعد أن بين الله لهم على لسان رسله طريق الفلاح والنعمة وحذرهم من أسباب الخيبة

---

(١) راجع اقتضاء الصراط المستقيم . « لابن تيمية » .

والنقمة ، فإذا قدر لأمـة أن تبلغ النعمة العامة ، التى يتحـقق بها لهذه الأمة الرغد والعلم والأمن .

فإن هذه النعمة دائمًا لها وقوع استمساكها بما ينبه الله لها من أسباب نعمة الأمم لا يزيل نعمـته عنها حتى تغيـر عن طريقه المرسوم سلوكـها ، وفكرها وعندئذٍ تقع فى مصير هلاكها المحـتوم فلا ينقذها من ذلك إلا أن تعود لسابق عهدها من الاستقامة على صراط الله المستقيم .

إن مما غفل عنه المسلمـون فى عصورهم المتأخرة معرفـة أن لله نواميس كونية مادية ومعـنوية بينها للناس وربط صـلاح الأمم بمطابقة أحكامهـا فى السلوك وفسادها بالتخلى عن أحكام هذه النواميس .

قانون السببية

ذات يوم قال « رنيو » رئيس وزراء فرنسا . . وهو يخطب فى « الإذاعة» وذلك قبل سقوط فرنسا فى الحرب العالمية الثانية :

(الآن : لا ينجى فرنسا إلا معجزة . . وأنا أومن بالمعجزات)

وهذا منطق خاطئ :

ذلك بأنه منطق من يعرفوا أن يقولوا : كيف !!

أى ما هى الأسباب . .

وهو ما يقوله المسلم بخبرته المشتقة من الإيمان . .

فهناك أسباب للنصر . وأسباب للهزيمة . . مأخوذة كلها من سنن الله تعالى فى النصر والهزيمة والتى لا تحابى أحداً :

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء: ٢٠]

وموقف الرجل مفهوم من قوله عزوجل : ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾

ومنهم : صاحب الجنتين . . فى سورة الكهف وقارون . .

وكل من لا يريد إلا الحياة الدنيا . . ممن لا يلهمون أن يقولوا : كيف؟

ومنهم : المشركون الذين فرحوا بهزيمة الروم . . ظنًّا منهم أنها القاضية . . فهم سطحيون لا يفقهون .

ونقرأ فى ذلك قوله عزوجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥] .

و (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) .

إنه فى النكسات تفقد الأمة الرؤية التى تكتشف بها أسباب نكستها . .

لأنها دقيقة .. وهذا لا يعنى أن ما حدث كان صدفة ..

ولكن بالتأمل .. قد ندرك أن شيئًا يسرًا جدًّا حدث .. فكانت الهزيمة.. شىء صغير : ولكنه من سنة الله تعالى .. وإذن .. فلا بد أن يحدث أثره ..

قال « إقبال » .

لحظة ياصاحبى : إن تغفل ألف ميل زاد بُعد المنزل !!

إنه الترابط الشديد بين : الإمكانات والوسيلة .. والهدف .. ذلك الترابط الذى لا ينفك أبدًا ..

ونقول أيضًا لرئيس وزراء فرنسا « رنيو » :

عندما بشر ﷺ أصحابه بفتح فارس والروم . كان المتوقع ـ بمقياسنا ـ أن تفتح فى حياته عليه الصلاة والسلام تكريمًا له ..

ولكن .. لله تعالى فى النصر والهزيمة سنن .. وهى لا تحابى أحدًا ..

فلم يكن المسلمون قد دفعوا ثمن هذا الفتح .. فلما دفعوه .. نصرهم الله ..

وقد روى أيضًا :

أن المشركين عرضوا عليه ﷺ أن يسأل ربه الرخاء خروجًا من ضيق الدنيا.. فقال :

« **ما أنا بفاعل .. وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ..** » إيمانًا منه ﷺ بأن للرخاء أسباب ..

الذبح

على الطريقة الإسلامية

يقول العلم الحديث :

هناك فرق بين :

الدم الصالح فى الشرايين . .

والدم الفاسد فى الوريد : والذى يحمل وحده السموم القاتلة إلى الجسد: والتى تعرف باسم (حامض البوليك) .

ومن حكمة الإسلام : أنه يشترط :

(أ) التكبير عند الذبح .

(ب) ثم قطع الوريد الرئيسى . . ليتسرب منه الدم الفاسد . . حتى يصبح اللحم حلالاً طيبًا :

ولكن هذا التدفق للدم الفاسد . . لا يتم تدفقه خارج الجسم إلا إذا كانت الدورة الدموية تسير سيرها الطبيعى أثناء حملها الدم الصالح من القلب إلى الجسد عبر الشرايين . . ثم أثناء حملها الدم الفاسد من الجسد عبر الأوردة إلى القلب . . كى تتم تنقيته عن طريق الكلى . . ثم شحنه بالأكسجين الرئتين :

ولا يمكن للدورة الدموية أن تكون كذلك إلا حين يكون المخ سليمًا : يأمر القلب . أما إذا تلف المخ بالصدمة . أو بطريق غير طبيعى . . فإن القلب يتوقف فيتجمد الدم الفاسد فى الأوردة . فيتشبع الجسم « بحامض البوليك » وسبحان القائل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ . . ﴾ [المائدة: ٣]

(الالتفات إلى الأسباب ضربان : أحدهما شرك ، والآخر عبودية وتوحيد .

فالشرك : أن يعتمد عليها . ويطمئن إليها . ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود . . فهو معرض عن المسبب لها . ويجعل نظره والتفاته مقصور عليها .

وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها . وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها . . فهذا الالتفات عبودية وتوحيد . . إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب . وأما محوها أن تكون أسبابًا : فقدح فى العقل والحسن والفطرة .

فإن أعرض عنها بالكلية كان ذلك قدحًا فى الشرع وإبطالاً له .

وحقيقة التوكل : القيام بالأسباب . والاعتماد بالقلب على المسبب . واعتقاد أنها بيده :

فإن شاء منعها اقتضاءها . وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها .

وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه .

فالموحد المتوكل : لا يلتفت إلى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يرجوها ولا يخافها . . فلا يركن إليها ولا يلتفت إليها . .

ـ بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها ـ بل يكون قائمًا بها . ملتفتًا إليها . . ناظرًا إلى مسببها سبحانه ومجريها) (١) .

(لا يصح التوكل ـ شرعًا وعقلاً ـ إلا عليه سبحانه وحده . فإنه ليس فى الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده .

فهو الذى سبب الأسباب . وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها . . ولم يجعل منها سببًا يقتضى وحده أثره . . بل لابد معه من سبب آخر يشاركه . .

وجعل لها أسبابًا تضادها وتمانعها . .

---

(١) مدارج السالكين ج٣ ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

بخلاف مشيئته سبحانه . . فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر . .

ولا فى الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها . . وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته . . فيشاء الأمر . ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله . . والجميع بمشيئته واختياره . . فلا يصح التوكل إلا عليه . ولا الالتجاء إلا إليه. ولا الخوف إلا منه . ولا الرجاء إلا له . ولا الطمع إلا فى رحمته كما قال أعرف الخلق به ﷺ : « **أعوذ برضاك من سخطك . وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك .. وأعوذ بك منك** » وقال « **لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك** »[1] .

(ما أفسد أديان الرسل إلا أرباب منازعات العقول . . الذين ينازعون بعقولهم فى التصديق بما جاءت به .

وإثبات ما أثبتوه . ونفى ما نفوه .

فنازعت عقولهم ذلك . وتركوا لتلك المنازعات ما جاءت به الرسل .

ثم عارضوهم بتلك المعقولات . وقدموها على ما جاؤوا به .

وقالوا : إذا تعارضت عقولنا وما جاءت به الرسل . . قدمنا ما حكمت به عقولنا على ما جاؤوا به .

وقد هلك بهؤلاء طوائف لا يحصيهم إلا الله . وانحلوا بسببهم من أديان جميع الرسل)[2] .

(فإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب استقام قلبك على السير إلى الله . .

وأوضح لك الطريق الأعظم الذى مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم . . وهو الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم الله عليهم . وبالله

---

(١) مدارج السالكين ٣ / ٥٠٠ .

(٢) السابق ٣ / ٥٠٠ .

التوفيق) [1] .

(وما سبق به علم الله وحكمه حق . وهو لا ينافى إثبات الأسباب . ولا يقتضى إسقاطها :

فإنه سبحانه علم وحكم : أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا .

فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه .

فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه :

فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب : لم يكن نظره وشهوده مطابقًا للحق . بل كان شهوده غيبة . . ونظره عمى .

فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء أسبابها . . فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هى عليه فى علمه وحكمه وحقه وأمره ؟) [2] .

والعلل التى تتقى فى الأسباب نوعان :

أحدهما : الاعتماد عليها . والتوكل عليها . والثقة بها . ورجاؤها وخوفها . فهذا شرك يرق ويغلظ . . وبين ذلك .

الثانى : ترك ما أمر الله به من الأسباب . وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا . . وبين ذلك .

بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر . ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله سبق به علمه وحكمه .

وأن السبب لا يضر ولا ينفع . ولا يعطى ولا يمنع . ولا يقضى ولا يحكم . . ولا يحصل للعبد ما لم تسبق به المشيئة الإلهية ولا يصرف عنه ما سبق به العلم والحكم . . فيأتى بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح

---

(١) مدارج السالكين ٣ / ٥٠٠ .

(٢) السابق ٣ / ٥٠٠ ، ٥٠١ .

والوصول إلا بها . .

ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحًا . ولا توصله إلى المقصود . . فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا . ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريدًا للتوكل واعتمادًا على الله وحده . وقد جمع النبى ﷺ بين هذين الأصلين فى الحديث الصحيح حيث يقول: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**» .

فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب . ونهاه عن العجز وهو نوعان : تقصير فى الأسباب وعدم الحرص عليها . وتقصير فى الاستعانة وترك تجريدها . فالدين كله ـ ظاهره وباطنه شرائعه وحقائقه ـ تحت هذه الكلمات النبوية . والله أعلم) [١] .

---

(١) مدارج السالكين ٣ / ٥٠٠ ، ٥٠١ .

شبهة وردها

قال بعض من يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا :

(شجن العلم والحكم بالسعادة والشقاوة لا يتغير ألبته .

فسواء علينا : الفعل أو الترك .. فإن سبق العلم والحكم بالشقاوة فنحن أشقياء : عملنا أو لم نعمل .

وإن سبق العلم بالسعادة .. فنحن سعداء : عملنا أو لم نعمل) .

ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى .. تركوا الدعاء زاعمين :

المدعو به: إن سبق العلم والحكم بحصوله .. حصل : (دعونا أو لم ندع .

وإن سبق العلم والحكم بعدم حصوله .. لم يحصل وإن دعونا :

والجواب : أن الأصل الذى بنوا عليه زعمهم أصل فاسد .. لأنه مخالف : للكتاب والسنة والإجماع . ومخالف أيضًا لصريح العقل . والحس .

وقد سئل ﷺ عن إسقاط الأسباب نظراً للقدر .. فرد ذلك وألزم القيام بالأسباب .. كما جاء فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال :

« **ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة . ومقعده من النار ..** » قالوا : يا رسول الله : أفلا ندع العمل ... ونتكل على الكتاب ؟ فقال : « **لا .. اعملوا .. فكل ميسر لما خلق له** » .

وفى الصحيح عنه أيضًا : قيل له : يا رسول الله : أرأيت ما يكدح فيه الناس اليوم ويعملون :

أمر قضى عليهم ومضى ؟ أم فيما يستقبلون مما آتاهم فيه الحجة ؟ فقال :

« **بل شىء قضى عليهم . ومضى فيهم** » .

قالوا : يا رسول الله :

أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا فقال : « **لا .. اعملوا .. فكل ميسر لما خلق له** » .

وفى السنن عنه ﷺ أنه قيل له : أرأيت أدوية نتداوى بها . ورقى نسترقى بها . وكفارة نتقى بها ؟؟ هل ترد من قدر الله شيئًا ؟

فقال : « **هى من قدر الله** » .

وكذلك قال عمر لأبى عبيدة . رضى الله عنهما : وقد قال أبو عبيدة لعمر :

أتفرُّ من قدر الله ؟!! (يعنى : من الطاعون) .

فقال له الفاروق : أفرّ من قدر الله إلى قدر الله .

قال تعالى : ﴿ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ... ﴾ .

فكل شىء بنظام وترتيب جعلت فيه المسببات بقدر الأسباب ولم يخلق شئ مصادفة . .

ونقرأ فى ذلك قوله عز وجل :

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ... ﴾ .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

﴿ .. وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

والقرآن الكريم حافل بالآيات التى تؤكد ترتيب الأحكام الكونية والشرعية. والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة :

فيأتى بباء السببية تارة . وباللام أخرى . وبأن تارة : وبذكر الوصف المقتضى أحيانًا . وبذكر التعليل صريحًا تارة أخرى مثل :

الآيات السابقة . والتى تبطل هذا الزعم من أساسه .

أما منع الإنسان من عمل ما . . فبمحض مشيئته عزوجل .

إن الإنسان قد ينظر إلى نفسه نظرة سلبية . وكذلك فيما يتعلق بالوسيلة التى تمكنه من الانتقال من الموجود إلى المقصود :

فإن المسلم يقع فى متاهة حين يريد الانتقال :

فهو لا يبصر الموجود بالمقصود (الأسباب) .

ولا يرى أن الموجود هو الذى يوصل إلى المقصود :

فهو يحقر الوسيلة الموجودة . ويحط من قيمتها ، أما الوسيلة التى يتوق إليها . ويرى لها الفائدة . . فإنه لا يتمكن منها .

فالموجود غير مفيد فى نظره . والمفيد : غير متوفر لديه .

وإذن . . فلا فائدة من العمل فيما لا يفيد . أو فيما هو غير متيسر .

وإذن . . فهو فى شبه إجازة مفتوحة !! حتى تتدخل القوى الخارقة الغامضة الأسباب . . بينما العقل المتبصر لم يعد يرى غموضًا فى الأسباب . . حتى فى مستوى إنزال الملائكة للتأييد والنصر :

إنه : الخضوع لقانون وسبب واضح هو :

اتخاذ الرب إلهًا والاستقامة منهجًا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

أما بعد :

فإن النجاح فى الحياة ليس منوطًا بقوى سحرية وإنما هو مرتبط بالتقوى .

الحكم فى الإسلام

عاطفة « احترام النفس » هى ركيزة كل العناصر المكونة للشخصية الإنسانية : وتعنى هذه العاطفة : إحساس الفرد بأنه موجود .

ومن هنا تلتقى فى نفسه عاطفتان .

حب الظهور .. والخضوع .

فلا يكون جبارًا .. ولا يكون عبدًا ذليلاً .. وإنما .

يحترم نفسه التى بها يقتنع بأنه شخص مهم يستطيع أن يقول للحاكم : لا .. يقول ذلك فى لحظتى الإحسان والإساءة : معًا ..

وخطاب أبى بكر الصديق رضي الله عنه . عند توليه الخلافة يشبع هذه الحاجة : وذلك قوله :

إن أحسنت فأعينونى .. وإن أسأت فقومونى .

كل أولئك قائم على مبدأ : أن الحاكمية لله وحده .. وذلك قوله عزوجل : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠] .

وإذن .. فالخلق كلهم عبيده .. فلا مجال للتسلط والاستبداد .

ومعنى ذلك :

أن الأمة تستمد مبادئها من مشيئة الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾

وبهذا وقى الله تعالى الأمة من آفة الأمم وهى : التعصب للقبيلة .

وليس منا من دعا .. أو قاتل .. أو مات .. لأجل العصبية .

وليس منا أيضًا من دعا للجنس .. فالحكمة من خلقنا : ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾

وليس منا : من استعمر أو أحب الظهور .. فقاتل مثلاً من أجل :

المغنم أو يدى مكانه . .

وليس بحاكم . . ذلك الذى ينهب خيرات الشعوب . . وينهب أيضًا حريتها وكرامتها بغرض الدين - على أهميته .

يقول عز وجل : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

ذلك بأن النظام الإسلامى يقوم على : التوحيد . .

والحاكم : رمز هذا النظام . . وطاعته واجبة ما أطاع الله ورسوله . .

يقول عز وجل : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ منكم ﴾[النساء: ٥٩] .

وإذن فالحكم فى الإسلام هو : (تكييف مطالب الإنسان وفق إرادة الله تعالى . وذلك بشريعة معصومة من الخطأ . . وبعيدًا عن تقدير بشر محروم من القدرة على أحكام مطلقة .

إن الأخوة وحدها لا تكفى فى إنشاء نظام وحمايته . . وإذن فلابد من الحاكم . . ومن حوله أهل الحل والعقد وبالشورى تعالج قضايا الأمة .

الأمة التى تحتك آراؤها وهى تخوض معركة الرأى . . لتتضح الأمور المعقدة . . ثم تسفر معركة الرأى عن أحسن الطرق سبيلاً إلى المقصود .

عندما نتنكب طريق الإسلام :

ولقد قامت حكومات على مذاهب فى الحكم غير الإسلام . . ثم حاول البعض تقليدها . . فضلوا . . وسبب الضلال هو .

(١) عدم فهم أن الإسلام شىء . . وتطبيقات بعض الحكام شىء آخر .

(٢) محاولة فهم الإسلام من خلال نظريات أجنبية .

(٣) وقوع البعض تحت ضغوط من أمزجتهم وأهوائهم .

والمطلوب هو : التحرر من كل هذه السلبيات لينشأ حكم إسلامى .

(١) ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ .

(٢) ضرورة الحاكم المسلم الذى ينفذ هذه الأحكام .

قتل القاتل . وقطع يد السارق . وأخذ الزكاة . والجهاد . والقيام بمهمة الإصلاح الاجتماعى . .

إن منهج الإسلام فى الحياة شامل . . لابد له من حماية . . بالحاكم . .

قال ﷺ : « لا يحل لثلاثة بفلاة من الأرض . إلا أمَّروا عليهم أحدهم»

وقد استنتج « ابن تيمية » رحمه الله من هذا الحديث ما يلى :

الإمارة فى الأمر الصغير توجبها فى الأمر الكبير) .

وفى أحاديث كثيرة ورد فيها لفظ « الإمام ».

(الإمام : راع ومسئول يحمى الضعفاء من الأقوياء ويكفل أرزاقهم أيضًا)

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ .

ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله : إمام عادل .

ومن بين الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم : إمام عادل .

ثم . . ما روى : يوم من إمام عادل . . أفضل من عبادة ستين سنة . .

إن الحاكم المستغرق فى العبادة ـ على شرف ما يصنع ولكن الشر قد يستشرى فى الأمة . . فيتسع الخرق على الراقع . . وهو لا يدرى ؟!

ومن الأدلة على أهمية الحاكم :

قوله ﷺ : « **من مات وليس فى عنقه بيعة .. فقد مات ميتة جاهلية** ».

وذلك يعنى : ضرورة الانتماء إلى إمام أو حاكم .

وقد روى : « **من نزع يده من طاعة إمام .. فإنه يأتى يوم القيامة ولا حجة له**» .

ثم إن الرسول ﷺ أقام دولة .

وباب « الإمامة » من الأبواب البارزة فى كتب الفقه .

وقد حاول اليهود تجريد الأمة الإسلامية من معنى الحكم بادعاء أن الإسلام دين فقط .

يريدون بذلك إضعاف دولة الخلافة .

أساس الحكم فى الإسلام

لا يهتم الإسلام بالمظاهر .. ولكن يهمه : المخابر أو الجواهر .

من أجل ذلك نراه لا يعول كثيراً على « شكل » الحكم : جمهوريًا كان.. أو كان ملكيًا ..

المهم هو الأساس ..

ولهذا يمكن أن يقال : الإسلام اشتراكى : لأنه يحقق العدالة ..

ولكن يمكن أيضًا أن يقال : إن الإسلام ليس اشتراكيًا . بمعنى أنه ضد الهيمنة الجبرية على كل مظاهر الحياة ..ليكون الاقتصاد وحده ..هو الحل؟!

وبالمثل يمكن أن يقال : الحكم فى الدولة الإسلامية (ثيوقراطى) أى حكم رجال الدين ..

إذا اعتبرنا المصدر هو : قانون الله عزوجل ..

ويمكن أن نقول : لا .. ليس الحكم فى الإسلام (ثيوقراطى) إذا أريد بهذا المصطلح : التحكم . والكهنوت بالمعنى « الأوروبى » .

إن الأساس فى الحكم الإسلامى هو : أن مبادئه مستمدة من سنن الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾ .

ولعل هذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله : «**اختلاف علماء أمتى رحمة** » «الجامع الصغير » .

يريد عليه الصلاة والسلام : أنه من خلال المعارك الفقهية .. وبالاحتكاك الناجم عن صراع الأفكار المتنوعة .التى تخوض معركة الرأى .. يريد توضيح الدروب المتعددة .

والتى ستقضى إحداهما حتمًا إلى الحق فى موضوع النزاع .

إن الأساس العاطفى للدولة : بمعنى الولاء للقبيلة أو الوطن : مرفوض

لأن ذلك من العصبية التى قد تسوى للفرد أن يعين قومه على قوم آخرين ظلمًا وعدوانًا .. لا سيما وهو يسمع حديث : انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا .. ولكن الأساس هو العقيدة .

العقيدة التى تجعل الحاكمية لله وحده : فرارًا من عقبى تجاهلها .

لقد شادت بعض الدول بناءها السياسى على الهوى .. بدليل .

رأى الشيوعى فى الرأسمالى .. والعكس وهو : أن الإصلاح منوط بمذهبه هو .. والفساد أن يحكم الآخر.

والنتيجة : صراع . ودماء . وأشلاء .. ثم بلبلة واضطراب وما يترتب على ذلك من تزييف القيم : من مثل :

العدل . والظلم . والمساواة .بناء على النظرة الشخصية المذهبية للقضية!

والبلبلة فى هذا الطراز من الحكم .. يقابلها : الوحدة فى الدولة الإسلامية التى يحكمها قانون أخلاقى واحد : تتمدد به معانى العدل . والمساواة وغيرها . وإذ يقول عزوجل : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ فالمعنى : لكل طريق : ولكن داخل دائرة الشريعة.

خداع المصطلحات :

قالوا : الديمقراطية هى : حكم الشعب .. للشعب ..فهل هذا صحيح؟!

كان هذا شعار الإغريق القدماء .

ولكن الواقع غير ذلك .

فقد كانت الحكومة طبقة خاصة تساوى ١٠٪ من مجموع السكان .

السكان : الذين كان جلهم كما قيل بحق .

كانوا كالآلات الدوارة فى أيدى القلة الحاكمة !

ولأن الغرب اليوم لا يستطيع أن ينكر الشمس فى رابعة النهار .. فقد حاول اليوم أن يطورها لتكون : إرادة شعبية مطلقة .

ولكن الإسلام يرفض هذا الإطلاق : ويربط هذه السيادة بشريعة الله سبحانه وتعالى .

وقد سمعت من يقول : عندما تبحث قضية خطيرة فى « البرلمان » هناك.. وباسم هذه الديمقراطية يحدث الآتى :

عند أخذ الأصوات .

يرفض المعارضون ..

ويرفض أيضًا بعض المؤيدين ..

فإذا تصورت أن بعض المؤيدين يجاملون الحكومة .. تبين لك أن الحكم ليس للأكثرية . وإنما هو للقلة المسيطرة .. المتشبثة بالمصطلحات الخداعة.!!

أهمية الحاكم

وأهمية الحاكم تنبع من « مهمته » ومهمته هى :

أنه خليفة لله فى أرضه .

يحمى الشعب من الخلاف .

ينفذ شريعة الله . ويرعى حدوده .

ذلك بأن شريعة الله مبادئ : قد يؤمن بها الناس .. لكن مجرد الإيمان بها لا يكفى .. لأن النفوس أمارة بالسوء .. فلابد من الحاكم الذى ينفذ مشيئة الله .

إلا كثيراً من مبادئ الإسلام لا يمكن تطبيقه إلا بجهد جماعى ..

ولكن ذلك لن يكون بمجرد الشعور بالأخوة .. ولا بد أن يترجم إلى حركة إيجابية فى (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) .

بمعنى :

أن المجتمع مستعد لتحقيق هذه المبادئ نظريًا .. ولكن لابد من سلطة وهى الدولة تفرض ذلك .. وتجعله واقعًا ملموسًا ..

سلطة تحكم بشرع الله تعالى المعصوم من الخطأ .

واقع بعض الناس :

ولكن بعض الناس ـ للأسف الشديد ـ يستسيغ أن يتقدم « فرويد » و «داروين » ليتحكموا فى مصائر الناس ، أما دين الله سبحانه فيضنون عليه بقيادة الحياة .

وهكذا استطاع عمر بفكره الإدارى المتميز أن يحتفظ بالصحابة إلى جانبه كقوة مرصودة لخدمة الدعوة .. بدل أن يقعد بها الترف .. وينأى بها

بعيدًا . . ثم حمى العامة من فتنة من شأنها أن تشغلهم عن مهمة الدعوة بهمومهم الصغيرة .

يروى أن خصومة بين علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه ويهودى رفعت إلى أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فنادى عمر عليًّا بقوله: قف يا أبا الحسن. . فبدا الغضب على وجه على فقال عمر : أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك فى مجلس القضاء ؟ فقال علىّ : لا ، ولكنى كرهت منك أن عظمتنى فى الخطاب ، فناديتنى بكنيتى ولم تصنع مع خصمى اليهودى ما صنعت معى .

أما فيما يتعلق بالمساواة أمام الأحكام الموضوعة للقانون فاكتفى بالإشارة إلى القصة الشهيرة للصبى القبطى الذى شكا إلى أمير المومنين عمر بن الخطاب ما وقع عليه من اعتداء بالضرب من ابن عمرو بن العاص ،فأمر عمر بأن يقتص القبطى من ابن حاكم مصر ، وهو يقول للقبطى : اضرب ابن الأكرمين . وقبل أن تعرف الدنيا شيئًا اسمه حقوق الإنسان وجه عمر بن الخطاب اللوم إلى عمرو بن العاص قائلاً : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟! إن هذه العبارة الخالدة لم تعرفها المجتمعات الغربية إلا عندما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وأصدرت إعلان حقوق الإنسان الذى نص على أن يولد الناس أحرارًا ومتساوين فى الحقوق .

وفى خطاب أبى بكر رضي الله عنه شاهد ودليل :

تمهيد :

كان اختيار الصديق رضي الله عنه دون انتخاب عام . . كان حلا ثوريا أملته الظروف العسكرية الملحة .مع أنه كان من فرع ضعيف فى قريش : قال

(١) (إنى وليت عليكم) : لم أطلب الولاية ولكن الظرف الحاضر حملنى إياها .

(٢) (ولست بخيركم . .) .

أنا مثلكم . . ولا امتياز لى عليكم . . من حيث أن الحاكم لا يتميز بشىء يسوغ له التسلط .

وقد يكون فى الأمة من هو أعقل من الحاكم وأعلم .

ولكن الحاكم الجدير بالحكم : ليس هو أعقل الناس . ولا أعلمهم . ولا أقواهم : . . ذلك بأن الحكم ملكة كملكة الفن . والصناعة .

فإذا وجدت فى إنسان . فهو أحق بها . ولا خير على أعقل الناس . وأعلمهم من متابعته وترك الأمر له . .

تمامًا كما أنه لا خير على العاقل والعالم فى أن يترك شأن التجارة والفلاحة للتاجر والفلاح العقاد . بتصرف .

(٣) (فإن أحسنت فأعينونى) .

إنه يبدأ بالإحسان تفاؤلاً ، وترجمة لنيته فى عمل الخير . . فى صورة من التعاون على البر والتقوى .

(٤) (وإن أسأت فقومونى) .

إنه إقرار لمبدأ الرقابة الشعبية التى تملك المحاسبة وقت الحاجة .

(٥) (الصدق أمانة والكذب خيانة) .

ويدل ذلك على ضرورة المصارحة . والثقة المتبادلة .

فالكل مسئول وعاص إن قصر فى نصيحته .

فليس الحكم شركة بين الحاكم وطائفة معينة فقط من الخاصة أو العامة : لأن العامة يسهل إرضاؤها بالخداع . .

ويمكن إرضاء الخاصة بالمغانم .

ولأن العامة لو طال رضاهم منفردين عن حكومة .. لم يغنوا شيئًا فى الاضطلاع بأعبائها ..

والخاصة : لو طال رضاهم منفردين .. لا تهموا بالتواطؤ .

الأمر الذى جعل الإسلام يجعل الحكم مسئولية الجميع : فكلهم راع .. وكلهم مسئول إن ما يقبله العاص من الحكم .. لا يصلح أساسًا لصلاح الحكومة : فقد يقبل ما فيه ضرر وكذلك الخاص أيضًا .

ويعنى ذلك : أن الحاكم الذى يتملق عواطف هؤلاء وأولئكَ .. فاشل .. وعلى الحاكم فقط : تنفيذ شرع الله .. بلا محاباة لأحد .

(٦) (الضعيف فيكم قوى ..) .

إن الحاكم الناجح هو الذى يعين الضعيف ولا يستذله .

وإذا كان هناك حاكم متفرد بالقوة .. فهو لا يظلم الضعفاء فيرضى ويرضون .. ويتجمد الموقف ..

وهناك حاكم متحرك : يجذبهم إليه .. ليشتركوا معه فى المسئولية ..

(٧) (والقوى فيكم ضعيف .. حتى)

وفى هذا رفض لتكوين مراكز القوى ..

ومعنى ذلك : أن وقوف الحاكم إلى جانب الضعيف : اعتزاز به .. بقدر ما يكون وقوفه فى وجه القوى قبل أن تنحرف به قوته : حكمة يحفظ بها توازن الأمة .

ومن آثار ذلك : أنه لا يضيع طاقات الناس وأوقاتهم : فى حقد .. من جانب المظلوم .. أو ضغن من جانب القادرين .

(٨) (قوموا إلى صلاتكم ..) .

وهكذا تجىء الصلاة صورة عـملية : يطبقون بها مـا دعاهم إليه أولاً من التعاون على البر والتقوى .

بعد أن بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة .. خلا فى مصلاه يبكى !!

فأقبل عليه المسلمون قائلين : ما يبكيك ؟!

قال : إننى حملت أمانة هذه الأمة .

فأنا أبكى لمن حملت الأمانة عنهم .

أبكى : للفقير الجائع .

وابن السبيل الضائع .

والمظلوم .. المقهور .

وذى العيال الكثير .

علمت أنى مسئول عنهم . وعن غيرهم من أمة محمد ﷺ .. فأشفقت على نفسى ..

وبكيت لثقل الأمانة !

هل الدين ظاهرة اجتماعية ؟

تمهيد :

يتميز عقل الإنسان بأنه :

(١) يفكر . . حتى يصل إلى الحقيقة .

(٢) يتصور الحقيقة . . إذا لم يصل إليها .

(٣) يتخيل بعض الصور حقيقة . . وهى ليست كذلك .

(٤) يخلق من نسج خيالهِ أحداثًا يحسبها حقيقة . . ثم يدافع عنها .

ويظل سير العقل طبيعيًّا . . حتى المرحلة الثانية .

ثم يكون على خطر عظيم . . حين يبدأ فى تقرير حقائق لا سند لها من الواقع . . ولا من العقل وهى :

مرحلة الخلط بين الأمور على نحو لا تستبين به الملامح .

فالحدث : يرويه واحد .

والحدث يروى عند قيام حكم بالقوة .

والحدث يرويه المنتصر .

والحدث ترويه مجموعة تنفصل عن مذهب . .

والحدث يروى دون توفر وسائل الإثبات .

كلّ أولئك كان ـ فى بعض الأحيان ـ أساسًا لمذاهب عاصرت الدنيا طويلاً . . وتقلباتها . . دون تمحيص . .

ومن هذه المذاهب ما قرره (دور كايم) من أن البشرية مرت بمراحل ثلاث :

(١) المرحلة الدرفية

(٢) المرحلة الغيبية .

(٣) المرحلة العلمية .

وإذن : فلقد كان الدين ظاهرة اجتماعية بشرية : استنفذت أغراضها . . ثم انتهت مهمتها .

وأسلمت الزمام : زمام الحياة للمرحلة التالية . . وأخيرًا : للمعلم : والذى يمسك الآن بزمام الحياة . . وسيظل كذلك أبدًا .

وعندئذٍ . . بدأت حملات التشكيك فى كل مظهر دينى .

قال واحد أوروبى لرجل صينى وضع طبقًا من الأرز على قبر قريب له : متى تعتقد أن صاحب القبر سيقوم ليأكل الأرز ؟؟!

فقال له الصينى الشرقى :

حين يقوم من تضع أنت على قبره باقة من الورد ليشمها ؟!!

وقد أشار إلى ذلك « ابن خلدون » فى افتتاحية المقدمة : قال : (وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام . وجمعوها . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل : وهموا فيها . أو ابتدعوها . وزخارف من الروايات الضعيفة . لفقوها . ووصفوها .

واقتض تلك الآثار الكثير ممن بعدهم . واتبعوها . وأدوها إلينا كما سمعوها .

ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال . ولم يراعوها . ولا رفضوا ترهات الأحاديث . . ولا دفعوها .

فالتحقيق قليل . وطرف التنقيح فى الغالب كليل) !!

نموذج :

قال الماديون : تكونت العادات والطقوس الدينية لدى الإنسان البدائى .. والذى كان - بدافع الخوف والعجز - يقدم القرابين لما يخافه من ظواهر الطبيعة .

ولم يكن يفرق بين الإله الحقيقى .. والجن .. والآلهة المزيفة .. أى : أنه خلق عبثًا .

يضاف إلى ذلك ما كان يذكره « الرهبان » من أن الإنسان ولد .. خاطئًا : وإذن .. فلابد من تقديم القرابين ليغفر له ..

هذه القرابين أو الضحايا التى كانت من :

النساء . والأطفال . والعبيد . والحيوانات ..

ثم صارت بعد ذلك « عادة » بعد إبراهيم عليه السلام .

أى : أنها كانت « عادة » ولم تكن « عبادة » ..

وحتى الإيمان « بالآخرة » كان تصورًا فرضه المظلومون الراغبون فى حياة أخرى . ينتصف لها من ظالميها .

رد هذه المفتريات

(١) لم يخلق الإنسان عبثًا .. ودعوى أنه لم يكن يفرق .. مردودة :

فقد خلق الله تعالى الإنسان . ثم سلحه بملكة التمييز بين الحق والباطل .

وكما كان الإنسان البدائى يخاف الظواهر .. فقد كان يخاف أيضًا : المعبود الحقيقى .

(٢) هناك فى هذه الدعوة أخطاء تاريخية :

(أ) فالضحية لم تبدأ بسيدنا إبراهيم ولكنها بدأت قبله : بولدى آدم عليه

السلام .

(ب) وأول فداء كان « كبش » .

وفى مصر كانت هناك « عروس النيل »

والضحية : عبادة . . وليست عادة : عبادة نقترب بها إلى الله تعالى .

وإن تعجب فعجب أن يقتل الملاحدة كل يوم ملايين الحيوانات فى الحروب . ثم لا يتألمون .

ثم يشفقون على الحيوانات . مع أن الضحية فى الأضحى حيوان كملايين الحيوانات التى تذبح يوميا . مع فارق هو :

أننا نذبحها بنية التقرب إلى الله تعالى والالتزام بأمره .

أما الإيمان بالآخرة : فقد كان قبل مجتمع الطبقات وبعده ثم إنه : ما من طبقة إلا وفوقها من يظلمها : فكل الطبقات تؤمن بالآخرة !!

لو كان « الماديون » هم الذين خلقوا الإنسان لتخبطوا فعلاً به فى سيره :

لكن بواقع يثبت أن الله تعالى هو الذى خلقه .

وكرَّمه . وعلمه الأسماء كلها . فكان مهتديًا .

ثم أسجد له الملائكة . . وكان يخاف من الله تعالى . . وليس من الطبيعة .

(٤) تطور الإنسان فعلاً وارتقى عبر التاريخ . .

ولكن . . هناك شعوب فى آسيا . وإفريقيا . وأمريكا . . مازالت فى «الجاهلية » .

ومعنى ذلك :

أن التقدم ليس مرحليا . . بفعل الزمن . . وإلا . . لو كان كذلك

لارتقى هؤلاء .. ولكن التقدم الحقيقى : باتباع الرسل . والجهل إنما يكون بتجاهل شرائعهم .

ومعنى ذلك أن الإيمان بالله تعالى واصل بالإنسان إلى ما يرجوه من كمال ..

بقدر ما يصل التمزق بالإنسان المادى إلى الشرك بالله تعالى وبعثرة قواه الإنسانية فى غير مجالاتها .. وتحت تأثير عوامل لا تملك من الأمر شيئًا .

وغرض « دور كايم » من ترتيب مراحل تطور الإنسان .. هكذا .. إنما هو خطأ : خطأ يراد به أن العلم هو الوارث : هو مالك الزمام !!

وأن لكل من العلم والدين مجاله الذي يعمل فيه

وكما قيل : ربما كان الرجل منطقيًّا مع نفسه :

لأن العلم عنده فعلاً ورث « المسيحية »

أما فى الإسلام : فلا !

ومن معانى ذلك : أن من قلد الرجل من الباحثين المسلمين .. فهو أكبر خطأ ؟!

لأنها محاولة للخروج بعلم الاجتماع عن خطه المستقيم ..

إنهم يبنون أبحاثهم هناك على ما يسمونه « بدهيات » مع أنها «ترهات»: مرفوضة باسم الإسلام .. الذى يحول بين المسلم .. وبين تقليدهم فى باطلهم ..

منشأ الفتنة بالأجانب :

لقد حاول الاستعمار استعبادنا بأمرين :

(أ) قوة الظاهر .

(ب) ثم بفتنة الباطن .

بمعنى : أنهم جعلوا من الانتصار فى مجال الطبيعة مدخلاً إلى تعكير صفو العلوم الإنسانية ـ وعن طريق عملاء مسلمين لهم ـ وذلك عن طريق تصورات باطلة نتيجة لخطأ الغرب هناك فى نظرتهم إلى الحياة .. والتى كان فى مقدمتها دعواهم .

تأكد بصحة ما نقوله لك فى مجال العلوم الإنسانية .. كتأكدك بأختها فى مجال العلوم الطبيعية .

هذه النظرة الساخرة إلى الأديان والقوانين ليست مبتكرة ، وإنما هى ترديد لصدى مجون قديم ، كان يتفكه به أهل السفسطة من اليونان ، وكانوا يرجونه فيما روجوه من المغالطات والتشكيكات . فقديمًا زعم هؤلاء السوفسطائية « أن الإنسان كان فى أول نشأته يعيش بغير رادع عن قانون ، ولا وازع من خلق ، وأنه كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة .. ثم كان أن وضعت القوانين ، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة .. فهنالك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شىء ، وتسمع كل شىء ، وتهيمن بحكمتها على كل شيء ... » . وهكذا لم تكن القوانين والديانات فى تصويرهم إلا ضروبًا من السياسة الماهرة التى تهدف إلى علاج أمراض المجتمع بكل حيلة ووسيلة .

ولقد أعان على بعث هذه الآراء وترويجها فى أوروبا الحديثة سببان : أحدهما الانحلال الخلقى عند نفر من رجال الكنيسة ، والثانى ظلم القوانين الوضعية .

مدى أقدمية الديانات

وسوء توزيع الثروة العامة . فكان من السهل أن يظن الناس أن الدين والقانون كانا كذلك فى كل زمان ومكان .

على أنه لم ينقض القرن الثامن عشر نفسه حتى ظهر خطأ هذه المزاعم ، حيث كثرت الرحلات إلى خارج أوروبا ، واكتشفت العوائد والعقائد والأساطير المختلفة ، وتبين من مقارنتها أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث ، رغم تفاوتهم فى مدارج الرقى ودركات الهمجية .

وهكذا ظهر أنها أقدم فى المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهاة ، ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل كانت تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس .

واعلم أن عموم الأديان لجميع الأمم لا يعنى عمومها لكل أفرادها ، فإنه لا تخلو أمة من وجود « ذاهلين » قد غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها ، إلى حد أنهم لا يجدون من هدوء البال وفراغ الوقت ما يمكنهم من رفع رؤوسهم للنظر فى تلك الحقائق العليا ؛ كما لا تخلو أمة من « منكرين ساخرين » يحسبون الحياة لهوًا ولعبًا ، ويتخذون الدين وهمًا وخرافة ، لكن هؤلاء دائمًا هم الأقلون فى كل أمة ، وهم فى الغالب من المترفين الذين لم يصادفهم من عبر الحياة وأزماتها ما يشعر نفوسهم معنى الخضوع والتواضع ، وما ينبه عقولهم إلى التفكير في بدايتهم ونهايتهم . وهذا الاستثناء من القاعدة لا ينفى كمون الغريزة الدينية بصفة عامة فى طبيعة النفس الإنسانية ، كما أن غريزة بقاء النوع لا يمنع من عمومها أن بعض الناس لا يتزوجون ولا ينسلون .

ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت فى عصر ما ، أو أن يكون ثمة وضع خاص من أوضاع العبادات قد جاء مجلوبًا مصنوعًا .

المبحث الثالث

فى نزعة التدين وأصالتها فى الفطرة

فذلك سائغ فى العقل ، بل واقع بالفعل . أما فكرة التدين فى جوهرها فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأت الإنسان .

يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين : « إن الغريزة الدينية : مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية . . وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية » . ويقول : إن هذه الغريزة الدينية « لا تختفى ، بل لا تضعف ولا تذبل ، إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد » .

وكتب بارتيلى سانت هيلير : « هذا اللغز العظيم الذى يستحث عقولنا : ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذى يجب أن يقود عقولنا فى أثناء عبورنا فى هذه الدنيا ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شىء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود . . ؟ هذه الأسئلة لا توجد أمة ، ولا شعب ، ولا مجتمع ، إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة . . » .

ويقول شاشاوان : « مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر . . . علميًّا ، وصناعيًّا ، واقتصاديًّا ، اجتماعيًّا ، ومهما يكن اندفاعنا فى هذه الحركة العظيمة للحياة العملية ، وللجهاد والتنافس فى سبيل معيشتنا ومعيشة ذوينا ، فإن عقلنا فى أوقات السكون والهدوء (عظامًا كنا أو متواضعين ، خيارًا كنا أو أشرارًا) يعود إلى التأمل فى هذه المسائل الأزلية : لم وكيف كان وجودنا ووجود هذا العالم ؟ وإلى التفكير فى العلل الأولى أو الثانية ،

وفى حقوقنا وواجباتنا » .

ويقول هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجـد جماعات إنسانية من غير عُلوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

مصير الديانات أمام العلوم

مصير الديانات أمام التقدم العلمى :

وجاء القرن التاسع عشر وقد تقرر هذا المعنى فى النفوس ، فلم يجرؤ أحد أن يشكك الناس فيه ، بل ظهرت نظرية جديدة فى الطرف المقابل ، مضمونها أن الأديان وإن كانت عريقة فى القدم ، لكن تقدمها الزمانى لا يكسبها صفة الثبات والخلود ، بل هو بالعكس يطبعها بطابع الشيخوخة والهرم ، وينذر بأن مصيرها إلى الاضمحلال والفناء .

هذه هى نظرية (أوجست كونت) . فقد ذهب هذا الفيلسوف إلى أن العقلية الإنسانية قد مرت بأدوار ثلاثة loi des troisages: دور الفلسفة الدينية، ثم دور الفلسفة التجريدية ، ثم دور الفلسفة الواقعية ، وهذا الدور الثالث فى نظره هو آخر الأطوار وأسماها . فبعد أن كان الناس يعللون الظواهر الكونية بقوة أو بقوى إرادية خارجة عنها . انتقلوا إلى تفسيرها بمعان عامة ، وخصائص طبيعية كامنة فيها ، كقوة النمو ، والمرونة ، والحيوية . . إلخ، ثم انتهوا إلى رفض كل تفسير خارجي أو داخلى ، واكتفوا بتسجيل الحوادث كما هى ، ومعرفة ما بينها .

التدين فطرة

وليس ظاهرة اجتماعية

صحة الوحى تستدعى صحة ما بنى عليه من عقائد وشرائع ..

وهذا ما دعا أعداء الإسلام إلى أن يشددوا النكير على الوحى نفيًا أو تشكيكًا .. ليخلصوا إلى أبطال ما أسس عليه من نظام ..

وهو نفسه السبب الذى يفرض علينا نحن المسلمين أن نلاحق هذه التهمة حتى تسقط ويبقى الدين كما هو .. وكما كان .

فطرة الله التى فطر الناس عليها .. هذه الفطرة التى لو كانت كما قيل ـ شىء له أطوال وأبعاد ـ لكان الإسلام هو الثوب المفصل عليه .

فطرة التدين :

الخطوة الأولى :

يقول البهى الخولى : (بدأ ـ الإنسان ـ يفكر كيف يحفظ نفسه من الجوع .. والظمأ . والحر والبرد . وسائر غوائل الطبيعة .. وبدأت المشاهدات تلفته إلى ألوان لذائذها وطعومها .. ومنافعها ..

وبدأ يقارن بين قيم الأشياء .

أيها أفضل وأعود عليه بالمنفعة واللذة ؟

وبدأت غرائزه تنمو .. وتتشعب ..

واحتياجاته تتنوع وتتفرع .

وبدأت تجاربه تكثر .. ودائرة معارفه تزداد ومحيط نشاطه الذهنى يستفيض .

فهو دائم النظر فيما حوله : مقارنة واستقراء أو تحليلاً أو تعليلاً ..

ليدرك سر الانتفاع بالأشياء . . ويوافى احتياجاته منها بما يريد : أى بدأ وعيه الذى كان مركزًا فى فطرة التدين ينسحب بالتدريج إلى الاتصال بما حوله : وبدأت الكائنات التى كانت لا تحدثه إلا عن الله تحدثه أيضًا عن طعومها ولذائذها ومتعها .

وبدأ القلب الذى كان لا يطرب إلا بما تلقيه الكائنات من تسبيح الله جل شأنه ـ يطرب لما يذوق من طعوم . . أو يصيب من لذة .

وبدأ الذكر الخالص لله يشوبه ذكر المنافع الأرضية . . وبدأ نور الفطرة يزاحمه ظل الشهوات والهوى . . وكان ذلك هو سبيل الناس إلى الوثنية فى جميع صورها إلى اليوم . . .

وعبادة التماثيل ظاهرة دينية قديمة : لازمت الناس فى كثير من البينات على تعاقب الدهور . ولا يزال لها إلى اليوم طقوس وشعائر تؤدى فى بعض جهات الأرض . .

ولا يستطيع باحث أن يحدد لنا على سبيل اليقين متى وأين متى بدأت عبادة التماثيل . . ولكننا نستطيع أن نقول :

إنها بدأت فى عمران مستقر . . لا فى بادية قلقة كثيرة الحل والترحال . . عمران مستقر ذى حضارة يزدهر فيها فن النحت والتصوير ويغلب على حياة أهلها الخضوع لمقتضيات فطرة التدين .

وازدهار فن النحت والتصوير لا تبلغه الإنسانية إلا بعد أن تكون قد قطعت من عمرها أزمانًا متطاولة ومرت فى مدارج تجاربها بمراحل بطيئة . . متعاقبة وهذا ما يدعو إلى القول : بأن عبادة التماثيل نشأت بعد آدم بدهور طويلة لا يعلمها إلا الله) البهى الخولى .

نقول من كتاب «التكامل فى الإسلام» للأستاذ أحمد أمين جـ٤/ ٣ وما بعدها .

(يقول د. سليم حسن) : « دلت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم عامة . مهما كانت ثقافتهم منحطة دينًا يسيرون على هديه ويخضعون لتعاليمه) .

ويقول سقراط : « يشعر الإنسان بحاجته الماسة إلى الهواء والماء والطعام. . وكذلك تشعر روحه أنها فى حاجة إلى غذاء روحى » .

ويقول مؤرخ إغريقى : « من الممكن أن نجد مدنًا بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا آداب ولا مسارح . . ولكن لم ير الإنسان قط مدينة بلا معبد أولا يمارس أهلها عبادة » .

وفى آسيا كان يقال : « إن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة . . فأمرها بأن توجد. . فبرزت على الفور إلى حيز الوجود » .

وفى الصين واليابان : « إن إله السماء هو الذى يصرف الأكوان ويدبر أمور الإنسان » .

وفى كتب الفرس : « هو أقوى القوى فى عالم الملكوت وهو واهب النعم . الكامل القدس الحكيم الخبير الغنى المغنى .السيد المنعم القهار محق الحق . البصير . الشافى . الخلاق . العليم بكل شىء » .

وعند الفراعنة : كان يقال : « أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان. . كسلطانه .

يا خالق الجرثومة فى المرأة . ويا صانع النطفة فى الرجل . ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ويا من يهدئه فلا يبكى . . ويا من يغذيه حتى وهو فى الرحم .

يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيدًا . . ألا ما أعظم تدبيرك يارب الأبدية ».

ومن وصايا الملك « آنى » لابنه : « لا تأثم . خف الله واتق غضبه . وإذا صليت لله فمن العبث أن تجهر أو تصيح صل بقلب مؤمن يخاطب الله فى غير إعلان يقض الله حاجتك . . ويستجب دعاءك » .

ولكن :

عبد الناس بعد ذلك حتى الجراثيم . . وتبركوا ببول البقر ؟! فما هو السر . . وكيف يحدث هذا إذا كان التدين فعلاً فطرة ؟!!

والجواب :

فطرة التدين كما جاء فى (مدارج السالكين جـ٣) .

(إن الله سبحانه وتعالى فطر العقول على قبول الحق والانقياد له . والطمأنينة به . والسكون إليه ومحبته . وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه . والريبة به وعدم السكون إليه .

ولو بقيت الفطرة علي حالها لما آثرت على الحق سواه . ،ولما سكنت إلا إليه . ولا اطمأنت إلا به . . ولا أحبت غيره .

ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن .

فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علمًا ضروريًا ويقينًا جازمًا : أنه حق وصدق . بل أحق كل حق . وأصدق كل صدق . . وأنَّ الذى جاء به أصدق خلق الله وأبرهم . وأكملهم علمًا وعملاً ومعرفة كما قال تعالى : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن . واستنارت فيها مصابيح الإيمان وعلمت علمًا ضروريًا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية - من الفرح والألم والحب والخوف - أنه من عند الله . . تكلم به حقا . وبلّغه

رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد .

فهذا الشاهد فى القلب من أعظم الشواهد .

وبه احتج هرقل على أبى سفيان حيث قال له : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فقال : لا . .

فقال له : وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد » .

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذا المعنى فى قوله : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ .

وقوله ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ .

وقوله ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ .

وقوله ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ يعنى :

أن الآية التى يقترحونها لا توجب هداية بل الله هو الذى يهدى ويضل . ثم نبههم على أعظم آية وأجلها وهى طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أى بكتابة كلامه .

فطمأنينة القلوب الصحيحة . والفطر السليمة به . وسكونها إليه من أعظم الآيات .

إذ يستحيل فى العادة : أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل) ص٤٧١ ـ ٤٧٢ .

شبهات وردها

يحاول المغرضون بشتى الطرق إلقاء الشبه فى طريق المسلمين . .

فمثلاً :

استبعدوا المعجزة . . لأنهم لا يؤمنون بالله . .

(الرد : الكون كله مليء بالمعجزات والملحدون مؤمنون بها . . لكنهم فقط ينكرون المعجزة المنافية لعاداتهم وحياتهم الرتيبة فقط !) .

استبعدوا كلمات : النبوة . . الوحى . . الرسالة وركزوا على . . البطل . . بطل الأبطال . العبقرى . . لتكون النتيجة .

إنه رجل يمكن أن يجود الزمان بمثله . .

فلم الفتنة به واتباعه ؟!

قالوا : إذا كان التدين فطرة . . فما تفسير الوثنية الطارئة على الإنسان ؟

والجواب :

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١ ـ ٦٣] .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] .

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣] .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١] .

الحرامُ لذيذاً كثيراً — والحلال قليلٌ مُرّا

ثمار الحق آجله — ونتائج الباطل عاجلة

الحقيقة مختفية — والأوهام خلابة جذابة

الفضيلة عابسة — والرذيلة كالووس !!

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ . . . ﴾ .

عن زرارة عن أبى جعفر قال سألته عن قول الله عز وجل ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ قال :

الحنيفية هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ثم قال : فطرهم على المعرفة به) .

(أ) فالذي يشرك واحد من ثلاثة :

(١) لم يفهم حقيقة الإسلام .

(٢) مريض نفسيًا ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ .

(٣) متبع هواه. معجب بنفسه .

(ب) يهجم الطفل على النار ليأكلها .. ولم يقل أحد هذه طبيعته ..

إنها فترة الحيرة التى يبحث فيها عن غذائه لدى أمه التى تجذبه بالقوة وقد يغمرها منها !!

(جـ) إذا اهتدى .. فلماذا لا يستمر .. بعد أن عرف ما تؤكده فطرته؟!

الإنسان غير الحيوان (لو حبست قطة فإنها تموت ولا تأكل تفاحة مثلا)

فالإنسان حر ..

وبالحرية تقدم وادعى الألوهية !

مع وجود أنبياء ينادونه من خارجه

ونفس لوامة من داخله .

والفطرة أيضًا ..

ومع ذلك يعصى .. لماذا ؟

نور الفطرة باهت لا يقوى ..

يرى الدنيا نقدًا .. والآخرة نسيئة !

والمعروف صعبًا .. والمنكر سهلاً ..



الفصل الثانى



الفصل الثانى

من صور التكافل الاجتماعى « الزكاة »

تمهيد:

مشكلة المسلم اليومية هى :

الحصول على الرزق . .

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن دلهم على طريق الوصول إلى هذا الرزق وهو : التقوى .

وذلك قولـه عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ .

ولماذا وكيف كانت التقوى سبيل الرخاء :

(١) لأن المتقى فى معية الله تعالى : يفيض عليه من بركته ورحمته . .

(٢) السعى فى إطار الشرع يفرض على الساعى تحرى أحسن الطرق . . والفرار من الغش والخداع .

(٣) الخوف من الله يحمل الساعى على الإحسان إلى عياله . . فلا يقصر معهم . وقد يؤثرهم على نفسه .

ثم كان التحريض على العمل سبيلاً إلى كسب الرزق . . من عمل الميد . . حتى لا تكون منة من أحد على أحد :

(ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده) .

الحديث تحريض على الاحتراف اليدوى وكيف كانت الحرف فرض كفاية . .

ولكن واقع الرفاهية اليوم . . يناقض ذلك .

الامتحان العسير :

لو أنك فتشت عن سر الورع فى تصرف التاجر المسلم لظهر لك ما يستكن فى قلبه من عقيدة التوكل الباعثة على التسامح . والتغاضى .. فى البيع والشراء .. على سواء ..

ومن هنا نجحوا فى الامتحان العسير .. حين تجاوزوا الامتحان العسير بنجاح : لقد صغر المال بين أيديهم .. فتصوروه حجراً .. لا ذهبًا .. ولا فضة ..

بل صغرت الدنيا كلها .. فلم يعودوا يرونها .. وبالتالى لم يتنافسوا على شىء لا يرونه !

أما التجار الجشعون .. فقد كانت عقيدة التوكل فى قلوبهم باهتة شاحبة .. ومن ثم :

خافوا .. من الموت ..

وخافوا .. على أولادهم من الفقر ..

فحملهم الخوف على السقوط فى الامتحان .. فاحتكروا السلعة .. وضنوا بها على الجياع من المسلمين ..

من آصار الاحتكار :

ويعجبنى هنا .. ذلك التحليل لآصار الاحتكار .. تكشف عنها عقول الناقدين الراشدين .. الراغبين فى الإصلاح .. بدل فريق من البكائين الذين يكتفون بالهجوم على الانحراف .. دون كشف عن الآثار بغية تطويقها والقضاء عليها .. قالوا : إن الاحتكار :

(١) يشجع بقية الناس على التحكم فى الآخرين .. كل فى موقعه .. ليعوض ما خسره بشيوع روح الاحتكار الكانزة .

(٢) تضعف العقيدة لدى بعض الناس الذين يرون المحتكر يمضى في ظلمه بلا رادع .

(٣) وناهيك بما يترتب على ذلك من سخط على النظام .. بل وعلى الحياة .. ومن ثم تغيض مشاعر التقدير لكل ما فيه حياة .. من شجر .. أو حيوان أو إنسان .

(٤) يختنق صغار التجار والصناع فى هجمة الاحتكار .

سئل أحد الحكماء عن أثقل الأحمال قال : ألا أجد ما أحمله !

ويعنى ذلك قسوة الإحساس بالفراغ .. ويكشف فى نفس الوقت عن تعاسة العاطلين بالوراثة : الذين يأكلون من ميراث آبائهم وهم قعود عن العمل .. مستسلمون للكل .

وتنسحب آصار هذا الفراغ القاتل على الفرد والمجتمع معًا . والتى تتمثل فى :

(١) إفساح الطريق أمام سيل من الشرور الداخلة على النفس .

(٢) إلى جانب الشبهات التى تفسد عمل العقل .

(٣) ومن وراء ذلك : اتساع دائرة الفساد فى المجتمع .

(٤) وتبرز مجموعة من قيم الترف العفنة . وما يترتب عليها من تراجع العاملين . ليتقدم الخاملون فى سلم الأولويات .

ولكن العامل بيده فهو :

(١) يشعر بلذة العمل .. بل يحس بنشوته ..

(٢) بقدر ما يزهو بشرف السعى على أهله وولده .

(٣) وفوق ذلك : يجور بما فضل عن كسبه على مشاريع أمته

(٤) فإذا كان العمل احتسابًا وتقربًا إلى الله . . كان له فوق ذلك ثوابه عند ربه فى الدار الآخرة .

(٥) وإذا كان الإسلام يحتسب نفقة الإنسان على أسرته صدقة . . فهو يضيف إلى ما سبق إحساسًا لدى المؤمن بأنه لا يعمل لنفسه ولكنه بعمله ينفع الآخرين . .

ويترتب على ذلك مضاعفة جهد مبارك الثمرات . شامل المنفعة .

وما أسعد الأمة بشباب : يأكلون مما يزرعون . . ويلبسون مما ينسجون . . ويتداوون بأعشاب بلادهم . . ولعلنا ندرك الآن سرا من أسرار حديث رسول الله ﷺ يكشف عن هذه الفضائل :

(ما كنسب الرجل كسبًا أطيب من كسب يده .

وما أنفق الرجل على أهله . وولده . وخادمه . فهو صدقة) .

حرفة التجارة :

وكانت التجارة حرفة الصالحين . .

وكان من رحمة الله تعالى أن سلك طريق التجارة زاهدون عابدون . لم يستسلموا لبريق الذهب . أو سهولة الربح . . بل ألزموا أنفسهم كلمة التقوى فوضعوا للتجارة ضوابطها المانعة . . وكانوا على حد قول القائل :

(كل مبدأ نبيل . إذا لم يحكمه دين سمح . مسيطر . يجعل سلوك صاحبه فى الحياة غير نبيل) . ومن ثم كان ديدنهم : التجمل . . على حد قول الشاعر :

وليس الرزق عن طلب حثيث ولكن ألق دلوك فى الدلاء
تجئك عبئها طورًا . . وطورًا تجيء بحمأة وقليل ماء

من فقه عمر :

ومن فقه عمر ﷺ أنه كان يفضل تجارة العطور ويقول : لو كنت تاجرًا.. ما اخترت غير العطور تجارة :

إن فاتنى ربحها .. لم يفتنى ريحها !

ومن ورعه قوله : كنا ندع تسعة أعشار الحلال . مخافة أن نقع فى الحرام !...

وما أسعد الذين يتعاملون معه .. فلن يرهقهم من أمرهم عسرًا .. ولن يستغل بضاعته لإذلالهم .. أو نقص أنصبائهم من التموين :

كان له ولد ينقل عنه الزيت . ليوزعه على المسلمين ..

وكان ولده طويل الشعر .. فكان طبيعيًّا أن يمسح شعره بما تبقى فى الإناء .. فقال له أبوه فى سخرية لاذعة :

أرى شعرك شديد الرغبة إلى زيت المسلمين ..

ثم أخذه للحلاق .. وبنفسه .. فحلق له شعره !

ولعله أدرك قسوة الدرس على شاب يتصرف تلقائيًّا .. بما يحسبه مباحًا.. ثم يفقد شعره وهو مظهر جماله .. لعله أدرك هذا فعزاه بقوله :

هذا أهون عليك من عذاب يوم القيامة !

وبهذا الإجراء الحازم يحمى الخليفة نفسه وولده سلفًا من القيل والقال..

وإذا كان هو وولده فى خدمة المسلمين .. فإن الثوب الأبيض يظهر النكتة السوداء ..

ولو ترك ما يفعله ولده ـ وإن كان أذى لا يضر ـ لأفسد الموقف كله .

ورحم الله القائل :

إذا الجود لم يرزق خلاصًا من الأذى فلا الحمد مكسوبًا ولا المال باقيًا

الحرص على الكسب الحلال :

سأل سعد ﷺ رسول الله ﷺ أن يكون مستجاب الدعوة . فقال له :

«أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » .

والأصل فى ذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يرْفَعُهُ﴾

فالقاعدة المسبوكة . . الصلبة . . لا ينطلق منها الدعاء . . إلى حيث القبول . .

بينما القاعدة المحرمة . . رخوة . . عفنة . . لا ينطق منها قول . . ولا عمل . .

من أجل ذلك كان الحرص على اللقمة الحلال . . والكسب الطيب شيمة التاجر المسلم . .

وقد يفضل الخسارة القريبة فى الدنيا . . على الخسارة البعيدة فى الآخرة . .

وقد لاحظت المرأة المسلمة ما يتصف به العلماء فى عصرها من البخل . . فلما سألت أحدهم عن ذلك قال :

إننا نطلب اللقمة الحلال . .

والعثور على اللقمة الحلال صعب المنال . .

بل إنها أندر من الكبريت الأحمر . . فإذا حصلنا عليها . . لم تخرج من أيدينا . . إلا بالدم !

وتذكر هنا ما قاله الحسن البصرى ﷺ :

لو وجدت رغيفًا من حلال . .

لأحرقته . .

ثم سحقته . .

ثم جعلته ذرورًا . .

ثمْ داويت به المرضى !!

زمام المبادرة فى يد قلة من المستغلين .

(٦) يحدث التفاوت الطبقى . . وما يترتب عليه من فقدان الثقة بين طوائف الأمة .

(٧) يهتز النظام الاقتصادى للوطن . . ثم لا يثق بها أحد من خارج حدودها .

(٨) وسوف يستغل أعداؤنا الفرصة . . فيعدمون فائض الحبوب لديهم . . لتزداد حالتنا سوءًا . . ومن ثم يمكرون فيعرضون بضاعتهم بشروطها التى تستهدف كرامتنا .

خطورة العامل الاقتصادى :

إنه مرتبط بغريزة التملك المتشبثة بالمال . . والتى لم تكن لتتنازل عن ثروتها بمجرد الدعوة إلى التوحيد . . بل لابد من الجهاد . .

من أسس الاقتصاد الإسلامي

١ـ الإنسان أمين على المال الـذى له وظيفة هى : خدمة المجتـمع بما فيه الفقراء .

يقـول عـز وجل : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] .

وليكن ذلك الإنفاق : سداً لجوعة الجائع . .

وشكراً لنعمة احتيازه فى صحبـة يقيد بأن درجة المسلم راجعة إلى العمل الصالح . . لا إلى ذات المال .

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧] .

الاستكثار من الثروة ـ مع حله ـ مفض إلى الترف . .

وعدم الإنفاق . . إثم عظيم . .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠] .

فالاقتصاد الإسلامى منطلقه من عقيدة :

أنه تعالى وحده هو الخالق .

خالق الإنسان وخالق الثروة .

يقول ابن آدم : مالى . . مالى . .

وهل لك يابن آدم من مالك .

إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت . فأمضيت) .

لابد أن تكون هناك شروط وأوضاع لانضبـاط ذلك الاستخلاف ولضمان

حسن التدبير أو تجنب سوء التصرف .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] .

يقول الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية أنها تعنى « أن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، إنما مولكم إياها ، وخولكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها . فليست هى بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء النواب » .

ويرى الإمام ابن تيمية : أن الأصل أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الأموال إعانة على عبادته ! لأنه إنما خلق الناس لعبادته .

وهكذا تكون هذه الحقائق الكبرى التى تعرف على الفطرة ، والتى تؤكدها المشاهدة ويدركها المتأمل ـ حقيقة الخلق بمشيئة الله وبقدرته دون غيره، وحقيقة الاستخلاف وحقيقة التسخير ـ هى المسلمات الأولى للفكر الاقتصادى الإسلامى فى معالجته لأموال الفطرة .

ونستنتج من ذلك أن الاستخلاف لا يعنى ملكية حقيقية للمستخلف ، بل هو تملك بالوكالة ، وملكية حيازة .

وكذلك نستنتج أن الأصل فى هذا الاستخلاف هو العمومية أى هو للجماعة التى يشترك أفرادها فى مصالح روحية ومادية . فإذا كانت هناك حيازة فردية فلابد أن تكون خاضعة لتنظيم الجماعة .

ويقول الإمام أبو حامد الغزالى فى عبارة جامعة لمصالح المسلمين المرسلة « أن مقصود الشرع فى الخلق خمسة : وهو أن يحفظ عليهم دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونساءهم ، ومالهم فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ، ودفعها مصلحة » .

وتضاف إلى ذلك قاعدة أخرى من القواعد المقررة فى الشريعة هى : مبدأ سد الذرائع ، ومقتضاه أن ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وإلى جانب كل ذلك ، يشترط فى الاستخلاف ، بحيازة أموال الفطرة أو بتملكها بالوكالة ، أن يلتزم المستخلف فيها بواجبات عليه أن يقوم بتأديتها على ما يحقق حكمة فى الخلق .. فإذا ما عجز الملتزم عن التأدية أو أهمل فيها أو قصرت قدرته على تحملها سقط حقه فى الاستخلاف كله أو بعضه على قدر قصوره .

وقد نجمل أركان هذا الالتزام ، جهد المستطاع ، فى إحياء الأرض وثمراتها وفى إنماء أموال الفطرة بالطرق المشروعة ، وفى تنفيذ أحكام الشرع فى الإنفاق والبذل ، كأداء الزكاة بكافة أنواعها ، وإعطاء الصدقات ، وغير ذلك من أبواب الإنفاق فى إصلاح أحوال المسلمين بعامة . ولا يحل للمستخلف الإسراف والتبذير وكذلك لا يحل له تجميد استثمار الأموال أو تعطيل ذلك الاستثمار فإذا كان هذا شأن أموال الفطرة فى قضية الثروة ، فما حكم الأموال المضافة التى يكسبها الإنسان .

من فقه الفاروق :

منع عمر رضي الله عنه الناس من أكل اللحم يومين متتاليين فى الأسبوع .

ومنع الصحابة من الزواج بالكتابيات .. حتى لا يتركوا المسلمات .

غريزة التملك

لو تركت غريزة التملك علي حل شعرها .. لما شبعت بدليل : ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ .

ونقول : كيف بثروته الأخرى إذا كان المهر قنطاراً ؟!

« لو كان لابن آدم واديان من المال لابتغى ثالثًا ..

ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » (رواه مسلم) .

الأخلاق .. تحكم الأسواق

كما أن الإسلام يفرض فى المال الفائض زكاة . .

حتى لا يكون دولة بين الأغنياء . فإنه وبنفس القوة يمنع احتكار الطعام:

(الجالب مرزوق والمحتكر محروم) .

(ومن احتكر طعامًا على أمتى أربعين يومًا . . وتصدق به لم يقبل منه).

ومراعاة مصلحة المستهلك والتاجر .

قال عمر لحاطب وكان يبيع زبيبًا له فى السوق .

(إما أن تزيد فى السعر وإما أن ترفع من سوقنا) .

عقيدة التوحيد

كانت عقيدة « التوحيد » هى الحقيقة الكبرى . . والتى أسس عليها البناء كله . . لتكون الحاكمية لله وحده . .

وقد أعلنها الرسول ﷺ .

(١) أعلنها مجردة عالية .

(٢) غير مسبوقة أو ملحوقة بانتصارات سياسية أو اجتماعية . .

(٣) حتى لا يقبل عليها إلا من هو أهل لالتزامها .

(٤) وقد استجاب له نفر كريم . . كانوا على منواها .

رآهم الناس يتحملون العذاب فى سبيلها كعقيدة مجردة فآمنوا بإيمانهم . ودخلوا فى دين الله أفواجًا .

إنها الأخلاق فى مجتمع التوحيد :

ومعنى ذلك :

(١) أن الهدف واضح .

(٢) وهو هدف واحد ومحدد : فالنفس تنطلق إلـيه بكل طاقاتها كقذيفة تصيب مرماها بخلاف المتمزق : تضيع قواه هباء . .

والنتيجة :

حرية وإيثار : المبادئ لا المنافع .

جودة النتاج

وفرته .

وكل هذا هو عز العبودية . . والتعامل مع الأكمل .

أما غير المؤمنين :

فقلوبهم مع بنى أمية وسيوفهم معك !!

ولهم قبل العمل منطق هو :

هل سيكون جزاء ؟ هل سأتم العمل.

وأثناء العمل : قلق وتمزق .

وبعده : لو كنت فعلت كذا .. لكان أفضل !!

أما نحن :

فعلمنا بأن علمه تعالى محيط لا يجمعنا على أن نضائل من مجهودنا فما دام تعالى يعلم خائنة الأعين .. فقد علم صدق نيتى .. وسيجازينى وهذا كاف فى هدوء النفس وكونه قادرًا يطرد اليأس .

المفروض أن نتوخى فى كل أعمالنا : الدار الاخرة : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ... ﴾ [القصص:٧٧]

فلا يأس من امتلاك الدنيا بأسرها .. لكنك فى تناولها لابد من تذكر الآخرة دائمًا ..

وإذن فلا ضير من طلب الدنيا والآخرة معًا :

قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة:٩ ـ ١٠]

ولاحظ مايلى :

أولاً : الأمر بالعبادة بعد ترك البيع ..

ثانيًا : الأمر بالانتشار : أعم من أن يكون للبيع والشراء وغيرهما من أوجه النشاط الإنسانى .

الانتشار فى كل الأرض على اتساعها ... لا فى وطنك فقط

ثالثًا : الأمر بذكر الله تعالى : تضبط نوازع النفس الإنسانية لتحكم حركتها ..

ونتساءل :

كيف كان الاقتصاد حلقة فى سلسة المبادئ الإسلامية المترابطة ؟!

مثال : الشورى

الشورى : أساس الحكم . . ولابد فيها من أخلاق :

الصدق . والوفاء والنصيحة . .

والمرشح : صادق . أمين . .

والناخب : حر . .

ولابد من :

ضمان عدم تكدس الأموال فى يد فئة قليلة :

[حتى لا يكون دولة] . ومن ثم تشترى الأصوات وتتحكم هذه القلة فى مستقبل الأمة !

وإذا تجمعت الثروة فى يد جماعة حدث الآتى :

أفقرت الناس :

يقول المرحوم فتحى رضوان : لكن كيف أصبح معسكر التوحيد ، والتجديد ، وإطلاق القيود ، وتحرير العبيد ، معسكر الفقراء والمحرومين ؟

لقد قلت : إنَّ عقيدة التوحيد ، بذاتها ، تؤدي إلى رفض إبقاء الفقير فقيرًا، مهما حباه الله بالعقل ، والقدرة على العمل ، ومهما ميزه بالأمانة والصدق ؛ ذلك لأن النتيجة الطبيعية ، لكون الإله واحدًا لا يتعدد أن يكون جميع المخلوقات من صنعه ، أن تزول فكرة الإله «المحلى» ، و«الإله» الخاص فيتساوى الناس جميعًا ، ومادام الناس مشمولين بعناية الإله الواحد ، ومنتمين إليه ولم يعد لكل قبيلة إله ، ولكل شعب إله ، ولكل طبقة إله ، فقد فكرة التميز والتباين ، التى قامت أساسًا على أن الله ، يأبى أن يكون إله

الفقراء والضعفاء والمحرومين والجهال ، وإله الأغنياء والأقوياء والحاكمين والحكماء .

وفيما يفقد الأغنياء والأقوياء ، حماية الإله الخاص ، يدركون أنه الطوفان ، وأن امتيازاتهم ستسقط ، وأن دولهم ستؤول ، ولذلك يقفون أمام الدعوة الجديدة بكل قواهم ، ويشتدون فى اضطهاد الفقراء ، وملاحقتهم بصنوف الأذى حتى لا يتكاثرون فى المعسكر المضاد ، ويقوى عزمهم ، بازديادهم ، وبإقبال الآخرين على الدعوة الجديدة ، والدخول فى الدين الجديد أفواجًا .

على أن القرآن الكريم ، لم يدع إلى التوحيد فحسب ، ففى السور الأولى ، أشارت إشارات صريحة إلى المنهج الجديد ، للدين الجديد ، فى جانب علاقة الناس المادية بعضهم ببعض ، وبالمكان الذى يضع فيه هذا الدين والمحرومين - ففى سورة المسد ، وهى سورة صغيرة من خمس آيات قصار يقول الله تعالى عن «أبى لهب» ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ وهذه الآية على قصرها ، يعدها معسكر الأغنياء ، زلزالاً يهز بناءهم من قواعده ؛ لأنها تقرر أن المال لا يحمى الكافر ، ولا يغنى من كفره شيئًا ، والعهد بهم قبل ذلك أن المال يمنحهم العزة فى الدنيا وأنه لا آخرة بعد هذه الدنيا ، فكأن المال يكفل لهم خيرًا غير ممنوع ، وحماية لا شك فيها ، ولا نهاية لها ، ثم تأتى سورة أخرى هى سورة « الماعون » التى تبين وتحدد خصائص الذين لا يسلمون بهذا الدين ، ولا يؤمنون به ، فإذا هى خصائص تنصب كلها على علاقة هؤلاء ، الكافرين بالمال ، وطريقتهم فى إدارته وإنفاقه فقد قال الله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ .

فخصائص المكذبين للدين أنهم يهينون ، ولا يرحمون المسكين

فيطعمونه، ثم يمنعون الماعون .

وتتوالى السور على نفس النسق ففى سورة الهمزة يتوعد الله الذى جمع مالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، بأنه « لينبذن فى الحطمة » .

فاذا وصلنا إلى سورة « الذاريات » وضحمت هذه المعانى ، بما لا يدع مجالاً ، للمشركين والكفار مجالاً فى تبين ما يدعو إليه الدين الذى أرسل به محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، فقد قال الله تعالى فى وصف المؤمنين بأنه ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ . فليس ما يعطاه الفقراء المعوزون ، والذين لا يجدون سقوفهم تبرعًا أو نزولاً أو نزول من الغنى لفقير، عن بعض ماله ، إنما هو حق فرضه الله تعالى ، فى هذه الأموال ، ومن هنا فقد اشتد الصراع بين المعسكرين اشتدادًا ، بلغ حد القتال ، فسألت له دماء ، وبذلت فيه أرواح ، حتى كتب الله للدين الجديد أن تكون كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى] .

أ ـ نحن نؤمن أن الله تعالى هو خالق الثروة . . . وخالق الإنسان . . . ومنزل الشريعة نظامًا للحياة . .

إذن فملكية الإنسان الثروة محكومة بشريعة الخالق سبحانه :

فهى مكتسبة من حلال . . . وتنفق فى وجوه الخير . . . لمصلحة الناس جميعًا الذين خلقهم ربهم من نفس واحدة .

ب ـ ويحرم الاحتكار . . والربا . . والكنز . . الغش . . . وكل ما ينحرف بالمال عن مساره الطبيعى

جـ ـ الأخلاق هى التى تحكم النشاط التجارب كله . . وهذا النشاط ليس ملكاً لأطماع البشر . . الذين يطلقون حرية الفرد أحيانًا بلا قيود . . وأحيانًا يحرمونه من الملكية . .

وقد فشلت هذه الاتجاهات

أولاً : لأنها لا تقوم على الإيمان بالله تعالى .

ثانياً : لأنها تجاهلت فطرة الإنسان وما يناسبها من ملكية مزدوجة تحقق مصلحة الجميع .

ثالثًا : لأنها استهدفت علاج الجانب المادى فى الحياة . . ففشلت ولكنها ستنجح بالإسلام الذى يعالج . . وتفتح للناس طريق المتاع الحلال ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾

فشل هذه المذاهب مؤيد بالواقع : وهذا هو الواقع فعلاً :

فمن أجل العدالة المزعومة . . ضحت الشيوعية بالحرية الفردية ومن أجل حرية الفرد المزعومة . . ضاعت العدالة في (الرأسمالية)

أما في الإسلام فكانت الزكاة :

التى صارت ـ مع الصلاة . . ركيزة فى شخصية المسلم :

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ .

إنه لا بد من الظاهر والباطن

وفي منهج القرآن :

أ ـ ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾

ب ـ ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

أهمية الباطن :

وتبقى للباطن أهميته بدليل من القرآن والسنة :

١ ـ ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾

٢ـ ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

٣ ـ ﴿ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

٤ ـ ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

٥ ـ « ألا وإن في الجسد مضغه .. » . [البخارى]

٦ـ [القلب ملك . .] [البيهقي . وذكره السيوطي]

فالعامل القلبى جوهر الخلق . . لحديث :

(التقوى هاهنا : قالها ثلاثًا : وأشار إلى القلب) مسلم : كتاب البر

وهذا حق :

فجارك مثلاً أحوج إلى مشاعرك أكثر من لقمتك واليتيم أحوج إلى العطف منه إلى لقمة العيش :

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ .

تأثر الظاهر...بالباطن

وصل « خالد » ﷺ .. من العراق إلى اليرموك .. ليقود المسلمين فى مواجهة الروم : فقال له نصرانى عربى : ما أكثر الروم .. وأقل المسلمين؟!

فرد عليه « خالد » متحديًا : أبالروم تخوفنى ؟!

إنما تكثر الجند بالنصر .. وتقل بالخذلان !

وايم الله : لوددت أن « الأشقر » برئ من وجعه .. وأنهم ضاعفو عددهم !

وكان تعداد الروم عندئذٍ : ٢٤٠٠٠٠ألفاً .. فى مواجهة : ٣٦٠٠٠ من المسلمين ...

ولكن إيمان القائد المسلم . وثقته بنصر الله والفتح .. جعل كفته راجحة .. بهذه الطاقة الإيمانية .. المعنوية .. والتى يقلب الله تعالى بها ميزان المعركة .. ولقد تحقق النصر فعلاً .. بهذا الفيض النفسى .. الذى كان أمضى من كل سلاح .

ثم مضى مسلسل الأحداث مؤكداً هذا المعنى .. الذي فات النصراني العربى :

فقد روى أن « هرقل » لما رأى المسلمين يكتسحون الروم .. قال لرجاله: ويلكم !! :

هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ... أليسوا بشرا مثلكم ؟

فقالوا : بلى :

فقال : أنتم أكثر .. أم هم ؟!

فقالوا : بل نحن أكثر أضعافًا ..

فلما سأل عن سرِّ انتصار المسلمين .. جاءه الجواب من « مستشاره »

الذى قال له :

إنهم ينتصرون علينا من أجل أنهم :

أ ـ يقومون الليل ويصومون النهار .

ب ـ ويوفون بالعهد .

جـ ـ ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر .

د ـ ويتواضعون بينهم .

هـ ـ فرسان بالنهار . ورهبان بالليل .

و ـ لا يأكلون . . .إلا بثمن !!

وعندئذٍ تطاير قلب « هرقل » وصاح :

[لئن كنت صدقتنى .. ليملكنَّ موضع قدمى هاتين]

وفعلاً . .تحقق ما خاف منه .. وامتلك المسلمون دولته !

وصدق الله العظيم :

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] .

وهكذا انتصرت القلوب الطاهرة .. وكان من أسباب انتصارها تأييد الله تعالى لها بتلك القوى الغيبية ..

وقد نسى أن يقول له مستشاره :

إن هؤلاء يحملون خلف ضلوعهم قلوبًا طاهرة نظيفة :

قلوب لا تعرف الحقد . ولا الكراهية :

إنها القلوب التى حزنت لما هزمنا المجوس . .

وسوف يفرحون إذا ما انتصرنا عليهم . . وذلك قوله عز وجل : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ ـ ٥] .

إن للإنسان وجودين :

وجود إنسانى : به يأكل الطعام . وتجرى عليه سنن المادة .

وله وجود إيمانى : فهو رسالة وغاية .

وحاجة العالم إليه ماسة : لأنه روح ذلك العالم . . وتتبدل الأرض بينما هو ثابت لا يتغير . . والعالم كله تراثه الذى لا يشاركه فيه أحد .

وهكذا يلقى « خالد » القائد العسكرى على الرجل المادى درسًا فى أهمية الباطن بدليل تركيز القرآن والسنة عليه :

١ ـ ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

٢ ـ ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ .

٣ ـ ﴿ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

٤ ـ ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

٥ ـ « **ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله** » . . البخارى .

٦ ـ القلب ملك . . البيهقى : ذكره السيوطى .

٧ ـ « التقوي هاهنا . . » وأشار إلى صدره مسلم كتاب البر

ولكن الماديين ـ فى شخص هذا الذى حاور خالدًا رضي الله عنه ـ هؤلاء الماديون ينظرون فقط إلى العوامل الظاهرة وبخاصة « العامل الاقتصادى » ينظرون

إليها باعتبارها سبب التغيير .

ولكن سبب التغيير الحقيقى هو : القوى الخفية .. والتى تقوى بالممارسة على ما يقول عز وجل : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] .

وعلى ما يقول تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

ومن شواهد ذلك أيضًا :

ما ورد بشأن بنى إسرائيل .. وكيف مضت سنة الله تعالى فيهم لما لم يغيروا ما بأنفسهم :

[فقد كانوا إذا سرق فيهم الشريف .. تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ....] .

ثم ما كان من غضب الله سبحانه عليهم ولعنه لهم .. لما لم يغيروا ما بأنفسهم .

إن الحياة الاجتماعية جزء من المجتمع .. ولا نسيطر عليها إلا بمعرفة سنن الله تعالى فيها .

الأمر الذى يتحقق به ما يلى :

أ ـ فهم طبائع الناس .

ب ـ دعوتهم إلى الله بهذا الفهم المستنير .

ج ـ تنشىء الوازع الخلقى .

د ـ عزاء وسلوى للداعية .

هـ ـ بقدر ما يكون الجهل بها مثار تخبط فى تشخيص الداء . وبالتالى

فى وصف الدواء .

وقد أشار إلى ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

إن الجاهل فى حيرة . . . بينما العالم على بصيرة .

وإذن . . فمن واجبات المسلم الداعية تلمس سنن الله تعالى فى الأنفس والآفاق .

من أجل تدعيم الحق :

يقول عز وجل : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾ .

وسوف تجدون كيف كانت مصارع الغابرين من : قوم لوط . وثمود . وعاد كيف كانت نتيجة طبيعية لسلوك غير طبعى وللكافرين اليوم أمثالها .

ثم يقول عز وجل : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ .

كلمة لابد منها

إن الحياة الاجتماعية جزء من الطبيعة :

وكما أن الطبيعة لم تتغير بإرادتنا . ولا بكلامنا . . بل بمعرفة سننها . . كذلك الأمر بالنسبة للحياة الاجتماعية :

إنها لن تتغير بالوعظ . وضرب الأمثال . بل . . باكتشاف سنن الله تعالى فيها :

وقد أفاد « الغرب » من ذلك كثيرا . . وعن طريق هذه المعرفة . . كان استغلاله لخيراتنا .

ذلك بأن من يعرف السنن . . يكون فى أمان من العثار .

ومن يجعلها : يحتار : يحب . . فى مكان الكره . ويكره فى مكان الحب .

ويظن . . فى موضع اليقين : ويتيقن فى مجال الظن .

أما العارف :

فلأنه فى أمان فهو : يدخر وقته ولا يبعثره : ثم يفكر بحساب . . ولا يصرف طاقته إلا بمقدار . .

ونقرأ فى ذلك قوله عز وجل : ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

فنحن ـ حين نجهل السنن ـ قد نحب حدوث أمر . . مع أن المصلحة فى عدم حدوثه :

والعكس صحيح أيضًا :

وإذ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ .

فنحن مطالبون بتلمس آيات الله تعالى وسننه فى المجالين : الآفاق . . والأنفس :

على رأس السنن

طاعة الله سبيل الفوز

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] .

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ٩] .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ .

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

ولما كانت الصلاة ذكر فهى سبيل الرزق المادى والروحى بتأمين الخائف .

أ ـ « **أرحنا بها يا بلال** » .

ب ـ كان إذا أصابه فاقة قال :

أهلاه صلوا . . صلوا . . لماذا ؟

١ ـ الاطمئنان يذهب بالخوف .

٢ ـ يمارس العقل وظيفته فيرى الواقع كما هو .

٣ ـ يمارس الإرادة فتحرره من القلق والخوف .

٤ ـ وإذن فأتمن طاقاته يواجه بها الحياة .

٥ ـ فإذا دخل معركة العيش كسب .

٦ ـ ولوخسر لكانت أقل خسارة .

٧ ـ أما الخائف المعتمد على نفسه . . الجاهل بالسنن فإنه يضرب فى التيه . . وقد يحقق نصراً ولكنه بالمصادفة ؟

والعصيان سبيل الهلاك

ويدعوننا رغبًا ورهبًا . . هؤلاء هم الأنبياء فكيف بِمَنْ دونهم .

إذن . . فالناس لا ينقادون للحق والخير إلا بواحد من دافعين :

أ ـ الرغبة

ب ـ الرهبة

وأكبر الرغبة الطمع فى رحمة الله تعالى وأكبر الخوف من الله تعالى ، فلا جرم كان من لم يخف ولا لم يرج مستكبراً عن قبول الحق وفعل الخير وعندما تشيع هذه الظاهرة فى الدنيا يحدث الآتى :

١ ـ تتجمع أسباب انهيار الأمم .

٢ ـ فقدان الإيمان يصحب المرء بإرادة العدوان ! لأن الإيمان يرقق القلب.

٣ ـ وإذن . . يعبد ذاته . . ويضرب كل من لا يحترمها ولا يوقرها لذاتها .

٤ ـ احتقار الآخرين . . والفتك بمن لا يحترمه .

٥ ـ وتصور مجتمعًا من هذا الطراز أو أمره موكول لهذا الطراز !

ولكن الماديين : ينظرون فقط للعوامل الظاهرة على أنها المحققة للفائدة . . كـ « دارون » الذى شاهد الخلق . ثم غفل عن الخالق سبحانه .

غير أن هذه القوى الباطنة تقوى بالممارسة .

﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ .

فالتأثير متبادل بين الظاهر والباطن . . . فتكرار الظاهر يعمق ويدعم النوايا والطوايا النبيلة . . وكمثال :

أ ـ مسح رأس اليتيم دليل وتأكيد .

ب ـ ووضع جبهتك على الأرض امتثال يتأكد به معنى طاعتك لربك أى : أنَّ عمل الخير ينبثق من الداخل .. ثم يستدير إلى الداخل لتقوى به الفطرة . بمعنى : أن العمل ينطلق للخارج فيحقق مصلحة الجماعة .. ثم يرتد للداخل فيؤكد ذاتية الفرد .

٧ ـ إذا التقى المسلمان . . . والثانى : كان حريصًا على قتل صاحبه .

٨ ـ إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم سيرًا ولا كذا إلا كانو معكم .. بالنية طبعًا .

٩ ـ من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة .

وإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . البخارى فى الأدب ، ومسلم .

ومعنى ذلك : أننا لا تخشى إلا الله :

إننا نمضى إلى غاياتنا : فلا تتحكم فينا آراء الآخرين :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩] .

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة :٥٤] .

ويترتب على ذلك : عدم المبالاة بجزاء الناس : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ [الإنسان:٨ ، ٩] .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩)

إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١] .

أما الماديون . . فهم : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٨] .

﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ [النساء: ١٤٢] .

لا خصومة بين الإنسان والحياة

إنه لا خصومة هناك بين الإسلام والحياة . . وإذا كان قد شدد النكير عليها أحيانًا . . فإنما كان ذلك على لون الحياة فى أذهان الكافرين . . حين أضافوها إلى أنفسهم . . وحسبوها لذلك رحلة يغرقون فى نعمتها إلى الأذقان . . ثم فرغوها من مفهومها الحقيقى . . كدار للابتلاء . . لتصبح سباقاً رهيباً مقطوع الصلة بالخالق سبحانه . . تبدأ بالمهد وتنتهى باللحد . . بلا أمل فى بعث يفضى إلى دار هى الحيوان لو كانوا يعلمون .

وذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[الأنعام: ٢٩] .

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٧] .

ولقد لفت سبحانه الأنظار إلى أن الله هو الذى خلق الحياة لتكون دار ابتلاء وامتحان : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢] .

فالحياة مرتبطة بقدرة الله تعالى . . الذى أوجدها . . لا لتسير على هوى الأحياء فيها . . بل ليستقيم خطوها ضمن منهج إلهى متكامل . . يضبط خطوها حتى لا تزل فتردى .

وهى بهذا المفهوم نعمة كبرى يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] .

والمال كعنصر فى الحياة . . بل كعصب لهذه الحياة . . يأخذ نفس الطابع . . ويسير فى نفس الاتجاه . . إنه كنظام يرتبط بالعقيدة . . ويمضى إلى ذات الغاية التى تستهدفها بقية العبادات فى الإسلام . . تطهيراً للنفس . . وتزكية لها . . لتجد كل نفس ما عملت من خير محضراً .

الملكية فى الإسلام :

إن المال كالحياة : من خلق الله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور: ٣٣] .

والإنسان مستخلف فيه ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] .

وإذا كانت الملكية وظيفة اجتماعية قائمة على الله تعالى .. مستهدف بها رضاه .. فإن المال فى الإسلام .. أو الاقتصاد الإسلامى يأخذ طابعًا متميزًا فريدًا فى بابه .. بما يأتى :

خصائص الاقتصاد الإسلامى :

١ ـ الثروة كلها من الله .. فهى بنص القرآن « خير » . ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا...﴾ [البقرة: ١٨٠] .

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ ....﴾ [البقرة: ٢١٥] .

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ ... ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .

٢ ـ ومعنى ذلك أن يتصرف الوكيل فيها على شرط صاحبها وهو الحق سبحانه .. فيكسبها من حلال ... وينفقها فى الحلال .. فى صحبة إحساس كامل بأنه خليفة الله فى ملكه .. يجمعه .. وينفقه حسب مشيئته سبحانه .

٣ ـ ومن شأن هذا الاحساس الدائم برقابة الله عز وجل أن يحرص المؤمن على أن ينظف نفسه أمام ربه .. فيزداد مع الأيام طهارة .. وقرباً من مولاه تعالى .

وهنا يصبح الإنسان وهو يتقلب فى الأسواق وطيد الصلة بربه .. لهذا العنصر الأخلاقى الذى يربو فى صدره .. ما دام يسير بما له إلى مرضاة

ربه.. فيربط ملكه بمثل أعلى .. بحقه فى واقع الحياة .. وذلك عكس التصور الأرضى الذى ليس له مثل أعلى سوى المال !

٤ ـ والمال بهذا المفهوم يصبح نعمة تستحق الشكر بدوام استعمارها فى إطار توجيهات الإسلام لمصلحة الدين والوطن .. الذى هو وعاء لهذا الدين.

أجل يصبح نعمة يحسد الإنسان عليها لا لذاتها ولكن لمعنى التوفيق فيها: وهو المقصود بقوله ﷺ : « **نعم المال الصالح للعبد الصالح** » .

إن الإحساس بأن النشاط الاقتصادى عبادة لله ينير فى القلب الحماس لإنفاقه فى وجوه الحلال .. حتى يغرس الإنسان فى الدنيا .. يحصد هناك فى الآخرة .

ويترتب على ذلك حركة دائبة هى فى الواقع ضرورة تستمر بها الحياة ..

ولقد تجاهلت المذاهب الحديثة وبخاصة الشيوعية فطرة الإنسان فى التملك .. وقتلت فى نفسه الحماس للعمل والإنتاج .. فذاقت وبال أمرها. وها هى ذى روسيا .

كلهم فى الهَمّ سواء

لقد استهدف النظام الرأسمالى تـوفير الحرية للأفراد . . فأضاع العدل فى ربوع بلاده .

وجرت الشيوعية وراء عدالة مزعـومة فدمرت حرية الأفراد . . ولم تحقق من العدالة . . إلا لونًا واحدًا هو عدالتها فى إذلال خلق الله .

وتلك بعض الثمرات المرة لهؤلاء الذين حاولوا أن يجعلوا من الثروة «قوة اقتصادية » دولة بين الأغنياء منهم يضـغطون بها . .ويشكلون بها الواقع الذى يعيشـون فيه ويقف الإسلام بين هؤلاء وأولئك فـيقيم عبادته جـسرًا يطل منه على الجمـيع . . ويهيمن به علـى الجميع . . وإذا كان هناك مـن مميزات فى هذا المذهب أو ذاك .

فمن ولائنا لديننا أن نقول :

إنها الفتات المتناثر حول مـائدة الإسلام . . ومن اعتزازنا بهذا التراث أن نرفض التعبير القائل بأن الإسلام قد جمع بين مميزات النظامين .

الإسلام نظام إلهى سابق على كل نظام إنـه يمسك دائمًا دفة التوجيه . . والإرشاد . . فما كان من خير فى الأرض فـهو مصدره . . وهو بضاعته ترد إليه .

٧ ـ حين يتصور المسلم أن المال مال الله . . فإن هذه الـعقيدة تعصمه من الطغيان . . وفـرق كبير بين منطق المـسلم القائل : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١] .

و بين أن يقول كما حكى القرآن عن قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] .

أو كما يقول مرشداً إلى طبيعة غزيرة التملك فى غيبة الإيمان :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ [فصلت : ٥٠] .

وعندما يصل ارتباط الإنسان بثروته هذا المستوى فإنها تصبح وبالا عليه : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

ذلك بأنه قد جرد المال من مفهومه الأخلاقى الروحى كما حدده الإسلام. . وأراد به قوة اقتصادية للإرهاب وإذلال العباد .

شهادة الواقع :

وقد شهد الواقع الصارم بفشل « روسيا » التى جعلت الاقتصاد هو المحرك فها هى ذى :

أ ـ تستورد القمح من دول أخرى .

ب ـ يقيم الله عليها من نفسها حجة فتجود المزارع المحلية حول المنازل الخاصة حين يعتقد الزارع أنه سيجنى ثمار غرسه .

بينما تقل نسبة الإنتاج فى المزارع الجماعية لفقدها عنصر الجودة .

ج ـ وقد أعلن الحليف المتحمس لروسيا ـ كاسترو ـ ندمه ؛ لأنه جرى وراء الوهم الشيوعى الكبير بالفردوس الموعود حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢١ ، ٢٢] .

ولكن الملحدين لا يرجعون عن غيهم مع دوام التذكير بالله تعالى .

وها هى ذى نقمة الله تلاحقهم فى كل مكان عندما تجاهلوا فطرة الإنسان. . فضعف إنتاجهم . . لما فقدوا الإيمان بربهم فأحاطت بهم خطيئاتهم قلقاً . . واضطرابًا .

كيف يقاوم الإسلام الفقر

لم يجعل من الفقراء جبهة ضد الأغنياء :

بل جعل من الاثنين جبهة ضد الشرك ودفاعًا عن الإسلام فنجح المنهج الإسلامى فى القضاء على الفقر .

حيث احتفظ للفقير بمعنى العزة والكرامة .

بدليل :

صدقة : تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم لا أن ترد إلى أجهزة الإعلام للدعاية لمن لا يقيمون شريعة الله فى الأرض .. ولا يرعون حرمة الإسلام ولا المسلمين .

التاجر المسلم

إذا خسر .. يظل متماسك البناء النفسى : فلا يجزع ولا تذهب نفسه حسرات على ثروة ضاعت .

١ ـ لأن هذا حكم الله .. ولله ما أخذ وله ما أعطى :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢ ، ٢٣] .

وبهذه النفس المتماسكة يخوض التجربة مرة أخرى فى صحبة إيمانه بربه تعالى .. وبصبره الذى يربط على قلبه .. فيكسب ثروة أخرى هو فى الواقع قد حقق فى نفسه أكبر منها حين اعتصم بربه فى الشدة .. فاحتفظ بعنصر النجاح .

ومن معانى ذلك : تكريم الإنسان لنفسه بهذه القيم فى الوقت الذى تستهين فيه الشيوعية بالإنسان .. حين تحصر حاجته فى غذائه وكسائه .. ثم تهمل الإيمان .. ثم تلغى بعده الإيجابى كخليفة لله سبحانه فى أرضه .

التاجر الملحد :

وهكذا عشاق المال ، إنهم على ما يقول الشاعر :

وما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

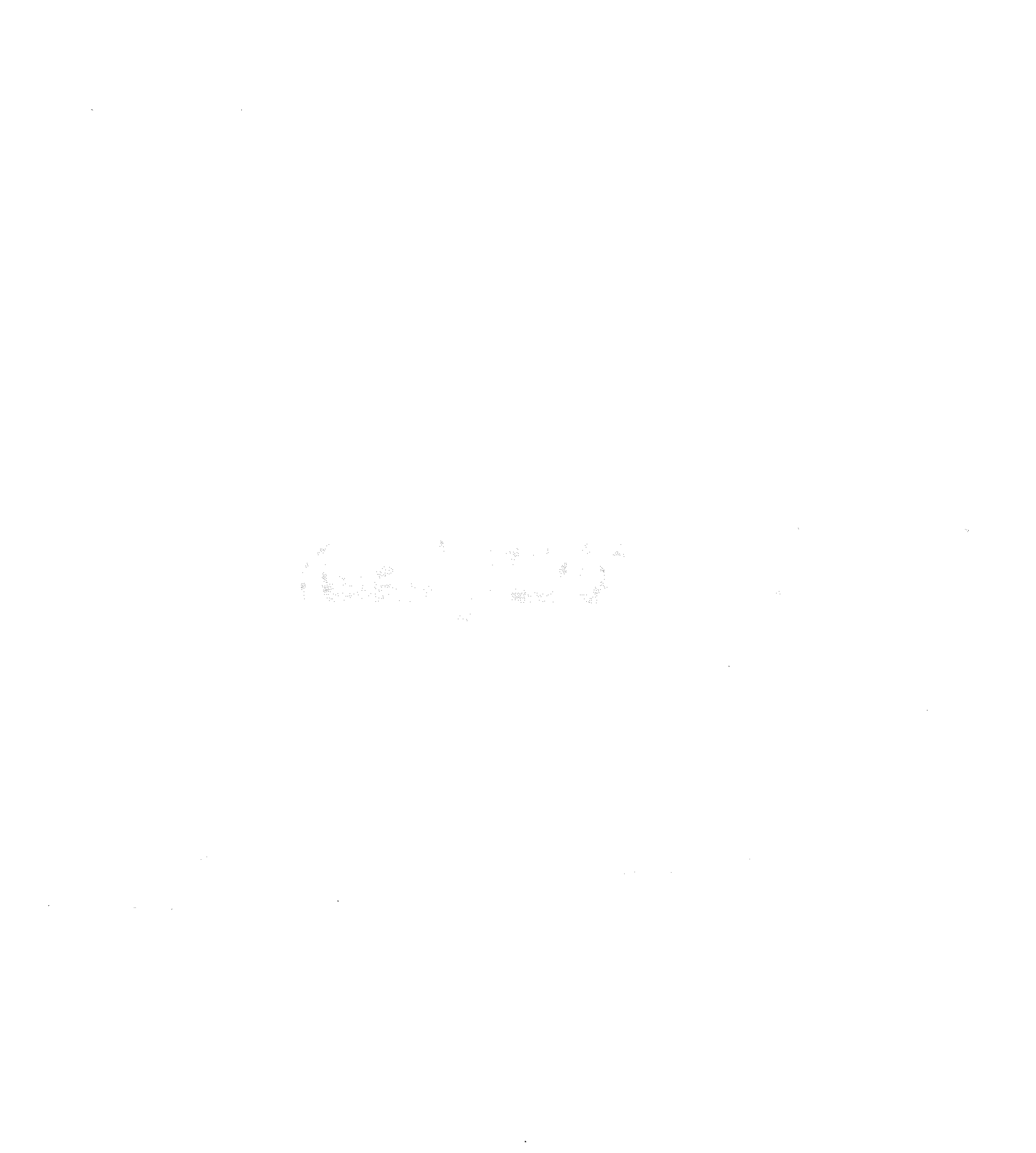
تراه باكيا فى كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكى إن نأى شوقا إليهم ... ويبكى إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند التنائى ... وتسخن عينه عند التلاقى !



الفصل الثالث



الفصل الثالث

داء الترف

روى أن « سمرة بن جندب » سأل عن ولده . . . فقيل له :

لقد بشم البارحة .

يعنى : أتخم .

فقال : بشم ؟!!

قالوا نعم . . .

فقال : أما إنه لو مات ما صليت عليه] (١) !!

تمهيد :

فى الإسلام : لا بأس من الشبع . . بل إن الشبع فيه مطلب أساسى :

وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل :

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:١ ـ ٤] .

فالحق سبحانه وتعالى يمتن على قريش بأنه تعالى أطعمهم بعد أن عضهم الجوع . . فشبعوا :

وصار الطعام فى عروقهم دمًا . . وفى أعصابهم قوة .

وإذن . . فقد وجب عليهم إقرار من أطعمهم سبحانه بالعبادة . . بعد أن حقق لهم :

الأمن الغذائى . والأمن النفسى معًا .

---

(١) رواه البغوى ـ مسند ابن الجعد / ٤٦٣ .

أما التخمة : فلا !لأنها إدخال الطعام على الطعام .. إلى حد السآمة منه .

الطعام المصحوب بالدهن :

فإن من أبشمه الطعام .. فهو عرضة للموت .. وعلى فراشه .

إنها التخمة المنهي عنها .. من حيث إن المتخم يحمل هو الطعام . والمفروض أن يحمله الطعام .. ليفيد منه قوة فلا يطمع فيه طامع .. وبه تكون الأمة التى أخرجت للناس .. تكون كما أراد الله تعالى لها : قذى فى حلوق أعدائها ولأن التخمة بهذا المعنى : ترف يبدد طاقة الشباب فقد شدد الحكماء النكير عليها فقالوا :

من الإسراف : الأكل بعد الشبع .

وقال لقمان لابنه وهو يعظه :

[يا بنى : لا تأكل شبعًا فوق شبع : فإنك إن تنبذه للكلب خير لك من أن تأكله] .

والإسراف يعنى :

١ ـ لا تسرف .. بتحريم الحلال .

٢ ـ أو بالتعدى إلى الحرام .

٣ ـ أو بالإفراط فى الطعام .

من تراثنا :

كان لهارون الرشيد طبيب نصرانى .

فقال يومًا لعلى بن الحسين :

ليس فى كتابكم من علم الطب شىء ..والعلم علمان :

١ ـ علم أديان .   ٢ ـ وعلم أبدان .

فقال له علىّ :

قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا . . . فقال له وما هى :

قوله عز وجل : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: ٣١] .

وإذن . . فالآية الكريمة أصل من أصول الدواء :

أولاً : لأنها أمرت بالأكل والشرب . . وهو قوام الحياة .

وثانيًا : حرمت الإسراف : وهو سبب كافة الأمراض . وقد أشار ﷺ إلى ذلك بقوله :

[ما ملأ آدمى وعاء شرًّا من بطنه . بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإذا كان لا محالة : فثلث لطعامه . وثلث لشرابه . وثلث لنفسه] .

من هو سمرة ؟

وأحيانا نركب الموجة . . فنحكم متسرعين قبل استيعاب جذور المشكلة : وقد يقول قائل هنا :

كيف تطاوع « سمرة » نفسه : فيقرر أنَّه لو مات لن يصلى عليه ؟!! كيف . . وهو الوالد . . يحكم على نفسه بحرمانها من إلقاء النظرة الأخيرة على فلذة كبده المسجى . . بل حرمانها من الصلاة عليه . . والدعاء له ؟!!

والجواب :

أولاً : كان « سمرة » رضي الله عنه يستمد غضبته تلك المضرية من مجموعة من الروافد . . التى فرضت عليه أن يكون هكذا حاسماً . . بل وقاصمًا .

فهو صحابى :

رأى من أخلاقه ﷺ أنه لم يكن يجمع فى بطنه طعامين :

إن أكل لحمًا . . فلا يضيف إليه طعامًا آخر .

وإن شرب لبناً . . فهو اللبن لاغير . . وإن أكل خبزًا أو تمرًا . . فكذلك.

إلى الحد الذى كانت عائشة رضى الله عنها تشفق عليه من الجوع . . راجية أن يأكل ما يعينه على القيام بأعباء الرسالة العظمى .

وقد يدخر بعض القوت لعياله . . وعندما تسمح موارد الدولة بذلك ومن سنته ﷺ :

«**لا بأس بالغنى لمن اتقى** » . ابن ماجه / كتاب التجارة .

بمعنى : أنه لا بأس للغنى الصالح أن يتمتع بالحياة . . ثم يكون سببًا فى إمتاع غيره .

« **فنعم صاحب المسلم ـ المال ـ ما أعطى منه المسكين . واليتيم . وابن السبيل**». البخارى / كتاب الزكاة .

ولا بأس أيضًا من الاستمتاع المعقول بالكماليات :

« **إن الله جميل يحب الجمال** » . مسلم / كتاب الإيمان .

« **إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده** » . الترمذى / كتاب الأدب.

« **إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه** » البزار .

إن الحرمان الإدراى من هذا النعيم الذى مكننا الله تعالى منه معناه : اعتراض على فضل الله .

واستعمال هذه الرخص بحكمة وتوافق . . وبلا إسراف معناه :

أننى أفهم لطف الله تعالى بى . . وبضعفى كإنسان وإلا . . فإن عدم التمتع بها يعنى أن تقول :

يارب ، أنا فى غنى عن فضلك .

وقد كان أبو الدرداء يقول :

إنى لأستجم بشىء من اللهو . . فيكون ذلك عونًا لى على الحق .

إن هناك منطقة وسطى كما يقول علماؤنا : بين الحسن والقبيح وعندنا تتدخل النية هنا حتى يكون المتاع عبادة .

يقول عز وجل :

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ... ﴾ [محمد: ٤] .

إن الداعية لا يتشفى . . ولكنه يعفو .

ومن ثم فهو مخير بين العفو عن الأسارى بإطلاق سراحهم .

أو أخذ الفداء منهم سلاحًا يمكن به للدعوة أن تصل إلى الراغبين فيها . وبلا عوائق .

وذلك شاهد تمكن خلق العفو فى ضمير الأمة .

وأولى بهذا العفو هم : أعداؤها .

كان ابن عربى يزيد فى عبادته . . ثم يهب ثوابها لشانئيه !

ثم لا يتباهى بذلك . . وإنما يعلن دعوته لهم بالهداية !

وابن رشد : الموسوعة العلمية . . والذى لم ينقطع عن القراءة إلا ليلتين . . وكان من خلائقه : الإحسان إلى من أساء إليه .

فلما عوتب على تساهله ذلك . قال :

وما الفضل فى إحسانك إلى صديق : تحبه . ويحبك ؟!!

إنما الإحسان : أن تحسن إلى عدوك .

بل إن أحدهم لم يكن يجبر ما يحسن به إلى أحد . . فكان كلما خرج

من داره تبرع بعرضه لـكل من شتمه . . وهذا كل ما يستطيـعه . . مع زميله الذى أحزنه مشهد الفقراء فكان من مشاركته لهم حالهم أن علق داءه . . كما علقوه !

ثم إن « سمرة » من الناحية الاجتماعية نشأ يتيمًا :

روى [أن أم سمرة بن جندب مات عنها زوجها . وكانت امرأة جميلة . فقدمت المدينة . فخطبت . فجعلت تقول :

لا أتزوج رجـلاً إلا رجـلاً يكفـل لهـا بنـفقـة ابنـها سـمـرة . حـتى يبلغ . .فتزوجها رجل من الأنصار على ذلك] .

وهكذا يعيش سمرة يتيمًا . . بكل ما يحمل اليتم من تقشف . ومعاناة. ومن الناحية العسكرية :

فقد نشـأ وفى قلبه إرادة القتال بما ضـمت عليه من تضحيـة ومصابرة : [كان النبى ﷺ يعرض غلمان الأنصار فى كل عام : فمن بلغ منهم بعثه :

فعرضهم ذات عام : فمرَّ به غـلام . فأجازه فى البعث . . وعرض عليه سمرة من بعده فرده . . فقال سمرة : يا رسول الله .

لقد أجزت غلامًا . ورددتنى : ولو صارعنى لصرعته !! قال : فدونك فصارعه . قال : فصارعنى . فصرعته . فأجازنى فى البعث] (١) .

وهذا يكون الحماس للمعركة ، الحماس : الذى لم تزده طبول الحرب إلا اشتعالاً .

وإذا كان الرسول يجـيز أو يرفض . . فبناءً على قـواعد تفرضها طبـيعة المعركة .

ولم يكـن الاختيـار ليتم إلا بمشـورة أركان حربـه الذين قرروا أن رافـعا

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير / ٧ / ٢١١ ـ ٢١٢ .

رام.. فلما أجازه .. وقفوا إلى جانب « سمرة » لـتتحقق له أمنية العمر مع رفيق السلاح : رافع .

إن القائد الأعلى هنا يتفقد الغلمان .. ليختار منهم الصالح للنزال :

فليس المطلوب أن يموت الإنسان فى الحـرب لذات الموت .. لكنه مدخر قبل ذلك ليدفع الله به الكفار .

ولا شفاعـة هنا .. ولا يملك أحد أن يخبـر من لم تتوفر فيـه خصائص الجندى المجاهد فإذا دخل المعركة فليست هناك خصوصية تجعل من «ابن زيد» على خط النار لـيكون أول المقتولين .. بيـنما « ابن عبيـد » يكون فى مكان آمن .. ليعود فى الـنهاية بنصر لم يصنعـه .. بل هو من صنع « ابن زيد » وهكذا كان « رافع » وكان رفيق السلاح « سمرة » : لقد كانا غلامين .

وإن ملاعب الصبا .. لم تلههمـا عن معالى الأمور .. وضريبة الدم ، إنها براعم تتفتح للحياة .. وهى أزهد ما تكون فى الحياة .

لقد عـاشوا فى دولة قدرتهم .. وهـاهم أولاء يردون إليها الجـميل .. على نحو لم يسبق له مثيل .

بينـما زمـلاؤهم فى دول الحضـارة الحديـثة يردون إلى أوطـانهم الحـقد والكراهيـة .. يدمرون بهـا حضارة تطـاولت فى البنيـان .. لكنهـا عطلت طاقات الإنسان .. فكان ما كان !!

الوالد الغاضب :

وهكذا أراد « سمرة » لولده أن يكون مثله : عسكريًا .. رياضيًا : يجيد فن المصارعة .. بل يجيد صناعة الموت !!

وإذا كان ولابد من الموت .. فليكن هناك فى أرض المعركة .

أما أن يموت فى حـجرة الطعام .. فلا يلـيق هذا المصير بفـتى من أسرة

عسكرية ومن أجل ذلك كانت غضبته المضرية على ولده لما أخبر بأنه أتخم . . بينما غيره يموت من الجوع .

فإذا علمنا أن « سمرة » كان (عظيم الأمانة : يحب الإسلام وأهله) سير أعلام النبلاء٣/ ١٨٥

تبين لنا بعد آخر من وراء تلك القضية على ولده الذى أوشك أن يموت من « الترف » الذى يحيد الوقت لنتحدث عنه : نشأة مصيراً.

نشأة الترف :

يقول « ابن خلدون» رحمه الله (١) : [إن الأمة إذا تغلبت . وملكت ما بيد أهل الملك قبلها : كثر رياستها . . ونعمتها : فتكثر عوائدهم . . ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته . إلى : نوافله . ورقته . وزينته . . ويذهبون إلى اتباع من قبلهم فى عوائدهم . . وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية فى تحصيلها] .

ومن معانى ذلك :

أن ضرورة التنعم ضرورة . . من شأنه ! إضعاف الخشونة . وتخلد بالأمة لذاذات العيش إلى أسفل :

فلا يشغلون أنفسهم بمعالى الأمور . بعد أن شغلوها بسفاسفها : شغلوها بالكماليات . . لا بالكمال : ومن إفرازات ذلك : الترفع عن خدمة أنفسهم : أنفة ورفاهية . . وكلما طال بهم العمر على ذلك . ومردوا عليه ماتت فى صدورهم عوامل القوة .

وانطفأ الحماس للدفاع عن الدولة . . فضلاً عن فقدانهم سلائق الهجوم والطموح . ..وخلال ذلك . . ينشأ الجيل الثانى ـ وهم أولادهم ـ ينشأ على

---

(١) المقدمة : فصل من طبيعة الملك : الترف .

دين آبائهم . . ويجيئون صورة مكررة لهم .

وخلال ذلك أيضًا . . تتجمع أسباب فناء الدولة . . ثم يحل موعد تكالب الأمم الأخرى عليها . . لتصير فى فمها لقمة سائغة !

أضف إلى ذلك :أن الدعة . والركون إلى الراحة بعد النصر وتحقيق الفرصة عامل مهم يعجل بفناء الأمة [فتكثر عوائدهم . وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم . ولا يفى دخلهم بخرجهم] .

ويترتب على ذلك ما يلى :

يلجأ الحكام إلى سياسة الترقيع :

ترقيع الدنيا . . بتمزيق مصالح الأمة .

وقد يحاول الحكام المترفون الاقتصاد فى المعيشة . . بلا جدوى !

فيستولون على أموال الأمة . ثم يعطونها أتباعهم .

الأتباع الذين يغرقون فى التنعم . . فيضعفون وبضعفهم يكون ضعف الحكام الذين يعتمدون على «حائط مائل » .

وهكذا يتسع الخرق على الراقع . بمعنى :

أنه كلما اتسعت حاجات الترف . . زاد الإغداق تفاديًا من النتيجة المرة وعندئذٍ تتسع المسافات . . وتختل النسب . . ليكون فى الأمة فريقان يختصمون : فريق فقير : يعيش تحت الصفر . . وغنى مترف : يعيش فى الأعالى :فوق . . بعيدًا عن جاذبية الوطن . . الذى لم يعد يحس بالولاء له .

وعندئذٍ فلابد مما ليس منه بد وهو :

ضياع قيمة الإخلاص . . ثم الاستعانة بالأجانب فى الدفاع عن الدولة :

وقد حدث ذلك فى بلاد الترك الذين استعانوا بالمماليك . . وهذا فى

المشرق .. أما فى المغرب : فقد استعان الموحدون بالعرب .. وتركوا مواطنيهم المترفين الفارغين !

ثم يتحقق وعد الرسول ﷺ : « **ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا** » .

وتعود المذلة يميت فى النفوس حماسًا للحق .. وتحس الأمة بعجز يقيد حركتها ، وتعقد همتها فلا تنشط لعمل صالح . وهكذا كان بنو إسرائيل الذين لم يحسنوا القيام بشكر النعمة على ما يقول عز وجل فى سورة المائدة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠ ـ ٢٥] .

لقد أحسوا بالعجز بسبب استسلامهم للقبط زمنًا :

فعاقبهم الله عز وجل [بالتيه] أربعين سنة . وفى قفر من الأرض بين شقى الرحى .

العمالقة بالشام .. والقبط بمصر :

ولم يَرَوا فى هذه السنوات عمران .. ولم يخالطوا بشرًا .

وذلك حتى يغنى الجيل القديم . فيفسح الطريق للجيل الجديد .

وأين هم من « مضر » ..

وذلك ما يقرره ابن خلدون :

لما بقى مضر فى البداوة . وتقدمتهم [ربيعة] إلى خصب العيش أو

غضارة النعيم .

كيف أرهفت البداوة حدهم فى التغلب عليهم : فغلبوهم على ما فى أيديهم وانتزعوه منهم] (١) .

وإذا صعب عليك أن تتصور أنها أمة يحميها جيش . . ولها رصيد ضخم . . ولها كذلك صوت مسموع فى المحافل الدولية ـ إذا صعب عليك تصور ذلك . . فحاول أن تتصور ضحالة الفرد الذى يتكون منه ذلك المجتمع : فالفرد المترف :

أولاً : يتخذ إلهه هواه .

ثانيًا : معجب برأيه يرفض العقد .

ثالثًا : بخيل حريص على أقصى متعة مستطاعة .

وإذن فهو جرثومة إفساد فى المجتمع . ومجتمع مكون من أمثاله مصيره الزوال .

إنه يسير فى الاتجاه المعاكس لاتجاه المجتمع المؤمن . . والذى كان من علاماته :

أن يتنازل كل فرد فيه عن قدر من متعته . . . ليعيش الآخرون . . وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل فى سورة التوبة :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة : ٨٨] .

ومن هؤلاء الذين آمنوا وجاهدوا : سمرة بن جندب رضي الله عنه . . والذى ألح فى إصرار عجيب على أن يكون مع الرجال فى المعركة الطحون .

وقد أظهرت الحوادث من بعد أنه كان كبذرة الوردة . تحمل الوردة

---

(١) المقدمة ص : ١٢٦ جـ ، الشعب .

بالقوة .. ويريد لولده أن يكون كذلك ومع أن الناس لم يقولوا له : إن ابنك سرق .

ولكنه عد التخمة موتًا أدبيًّا له .

من بصائر ابن خلدون :

وما زلنا مع ابن خلدون « فى مقدمته » وهو يفصل القول تفصيلاً .

فصل فى أن الترف يزيد الدولة فى أول أمرها قوة إلى قوتها

يقول :

[والسبب فى ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف .

كثر التناسل والولد والعمومية . فكثرت العصابة . واستكثروا أيضًا من الموالى والصنائع .

وربِّيت أجيالهم فى جو ذلك النعيم . والرَّفَه . فازدادوا به عددًا إلى عددهم . وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد .

فإذا ذهب الجيل الأول والثانى . أخذت الدولة فى الهَرَم] .

ويذكر سبب ذلك أن الأجيال المتأخرة :

[ليس لهم من الأمر شىء إنما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها .فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ . فيذهب ويتلاشى . ولا تبقى الدولة على حالها من القوة] .

ثم يضرب على ذلك مثلاً :

[واعتبر هذا بما وقع فى الدولة العربية فى الإسلام كان عدد العرب كما قلنا لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفًا وما يقاربها من مضر وقحطان .

ولما بلغ الترف مبالغه فى الدولة . وتوفر نموهم بتوفر النعمة . . واستكثر الخلف من الموالى والصنائع بلغ ذلك العدد إلى أضعافه] .

وعن أثر التنعم فى إضعاف البشر بعدُ .

من مظاهر الضعف :

خير القرون قرنى . . الحديث .

معنى « يحبون السَّمانة »

السمانة هى :

١ ـ كثرة اللحم .   ٢ ـ التباهى بما ليس فيهم .

٣ ـ جمعهم الأموال بحيث يصير ذلك ظاهرة فيهم .

شريطة أن يطلب ذلك . . بخلاف ما كان بأصل الخلقة .

ومن معانى ذلك :

أ ـ عدم إحساسهم بالمسؤولية .

ب ـ خونة : يأخذون موقف العداء من المعانى الكبيرة .

صور توزيع الثروة :

بالزكاة ، وبمنع الربا ومنع الاحتكار ومنع الكنز ثم بالميراث .

والملكية مستمرة :

بل عند مرض الموت لا تزيد الوصية عن الثلث :

ويبدأ تصرف الورثة بالموت بخلاف بعض الدول حين تجعل الميراث لمن يعينهم والماده .

(ستالين) قتل « السوفيت » حتى يوفر طعامهم أثناء الحرب .



الفصل الرابع

الفصل الرابع

[فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم]

وبيانه من وجوه :

الأول : أنها تقتضى الانفراد بالمجد كما قلناه .

وما كان المجد مشتركاً بين العصابة . وكان سعيهم له واحداً . كانت هممهم فى التغلب على الغير والذب عن الحوزة أسوة فى طموحها وقوة شكائمها . ومرماهم إلى العز جميعًا . يستطيبون الموت فى بناء مجدهم . ويؤثرون الهلكة على فساده .

ثم يحدث بعد ذلك ما يأتى :

١ ـ ينفرد أحدهم بالمجد .

٢ ـ يستأثر بالمال .

٣ ـ يتكاسل الباقى لدرجة يصير قبولهم للاستعباد عادة لهم .

٤ ـ يحسبون أجورهم أجراً لهم عن الحماية . . ولا يمكن للنصر أن يتحقق عن هذا الطريق .

٥ ـ ويبدأ الضعف يدب دبيبًا .

وأيضًا [فالترف مفسد للخلق بما يحصل فى النفس من ألوان الشر ـ فتذهب منهم خلال الخير التى كانت علامة على الملك ودليلاً عليه] .

الوجه الثالث :

١ ـ طبيعة الملك تقتضى الدعة .

٢ ـ وإذا صارت الراحة مألفًا وعادة .. ماتت فيهم همم الرجال .. وينسون خلق البسالة شيئًا فشيئًا .. ثم يصيرون عيالاً على حامية غيرهم ..

ويتخير صاحب الدولة أنصارًا من غيرهم أقدر على معاناة الجوع لبعدهم عن الترف .

ونتساءل هنا : ما هى غاية الإنسان ؟

أعطى الرسول ﷺ رجلاً مالاً .. فأبى وقال : ما اتبعتك على هذا .

ولكن اتبعتك على أن أرمى بسهم هاهنا ـ وأشار إلى حلقه ـ فأموت .. فأدخل الجنة !

ومضى الرجل إلى المعركة .. وهو يصدق الله .. فصدقه الله الذى رزقه الشهادة (١) !

ولكن اليد الراعشة .. والجسم الواهن .. لا يحقق النصر ..

[والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. وفى كل خير] .

وإذن فلا بد من حركة قوية مادية .. يساوقها من الداخل يقين يجعل لهذه الحركة قيمة .

فعندما ابيضت عينا يعقوب عليه السلام من الحزن .. لم ييأس ووجه أولاده ليبحثوا عن أخيهم .

فحركة البحث والتنقيب عن الأخ الغائب .كان لها رصيدها من اليقين كطاقة محركة دافعة .

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ج٣ بتصرف .

لا بد من حركة الظاهر .. وحركة الباطن .. معاً .. فإذا عظمت واحدة على حساب أخرى .. اختل التوازن .. واستحالت الحياة .

إن النوايا الطيبة .. والمشاعر النبيلة شيء جميل حقًّا .. وأجمل من هذه المشاعر جميعًا عمل واحد تراه العين ويحقق الرضا !

ودعوى الإيمان مرفوضة ما لم تثمر العمل الصالح المصلح .

وقد ادعى قوم الإيمان وأحسنوا الظن بالله تعالى وقعدوا .. وكذبوا .. فلو أنهم أحسنوا الظن .. لأحسنوا العمل !

ولا حرج على الإنسان أن يتذوق ما حفلت به مأدبة الحياة من أطايب الطعام والشراب .. شريطة أن يسلم باطنه .. رصيده الخلقى .. والذى يشكل مركز الثقل فى حياته .

وقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ :

كل ما شئت . والبس ما شئت . ما أخطأتك خلقتان : سرف . وبخيلة ..

فأنت مدعو إلى الاستمتاع بكل صور المتاع الحلال المنبثة فى الكون .. كما شئت .. بشرط أن يسلم ظاهرك وباطنك من عوامل الانهيار .

أن يسلم ظاهرك من الترف والاستغراق فى الكماليات .. وباطنك من الكبر الذى يحجبك عن رؤية الحياة . كما هى !

وبذلك يفر بك الإسلام أولاً من الإسراف والترف : [ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا] « من حديث شريف » .

ترك الزينة .. ولم يترك الدنيا ! وقد كره ﷺ لنفسه ولأمته الترف وذلك قوله : [استحى إن ترفهت فى معيشتى أن يقعد بى دونهم أى : دون إخوانه من أولى العزم من الرسل] .

وحين يركز الإنسان على الجسم وغزاته .. أقعدته السمنة عن التقدم وأحبطت فى كيانه دفعة النشاط .

درس ... من هناك

[اعلم أن العجم والروم لما تورثوا قرونًا كثيرة وخاضوا فى لذة الدنيا . ونسوا الدار الآخرة . واستحوذ عليهم الشيطان . .

وتعمقوا فى مرافق المعيشة وتباهوا بها . وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها . . فمازالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض . ويتباهون بها

حتى قيل : إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجًا قيمتها دون مائة ألف درهم أولا يكون له قصر شامخ وآبزن (١) وحمام وبساتين . ولا يكون لهم دواب فارهة ، وغلمان حسان ، ولا يكون له توسع فى المطاعم وتجمل فى الملابس . وذكر ذلك يطول . وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم .

فدخل كل ذلك فى أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع .

وتولد من ذلك داء عضال : دخل فى جميع أعضاء المدينة وآفة عظيمة . ولم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه . وأخذت بتلابيبه وأعجزته فى نفسه . وأهاجت عليه غمومًا وهموما لا أرجاء لها .

وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة . ولا تحصل إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم . والتضييق عليهم .

فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم . وإن أطاعوهم صاروا بمنزلة الحمير

---

(١) فسقية .

والبقر يستعمل فى النضح والدياس والحصاد . . ولا تقتنى إلا ليستعان بها فى الحاجات . ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك . وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه] (١) .

(١) حجة الله البالغة . باب إقامة الارتفاقات [عن كتاب النبوة والأنبياء للنووى] .

الحل الإسلامى

لقد عرف أعداؤنا مـا للترف من أثر فعال فى تدميـر الأمة . . فحرصوا عليه إرادة إفناء الأمة .

جاء فى البروتوكول السادس ١٣٩ ترجمة : محن خليفة التونسى :

[ولكى نخرِّب صناعة الأمميين ـ غير اليـهود ـ نساعد المضاربات ونشجع حب الترف المـطلق . وستزيد الأجـور التى تساعـد العمال . . كمـا أننا فى الوقت نفســه سنرفع أثمان الضروريـات الأولية . متخذين سـوء المحصولات الزراعية عذرًا عن ذلك] .

واجبنا :

وهذا هو المحـرض الأول . . والذى يفرض علينـا التصدى لهـذه الخطة الماكرة وذلك بالتسلح بالروح الإسلامية . يقول الله عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر: ١ ـ ٣] .

والسورة الكريمة تعنى أننا بعد الانتصار نتخلى عن الانبهار والاغترار بهذا النصر . . وليكن شعارنا فى لحظات القوة .

التسبيح والاستغفار :

إن الطبيـعة الدينية تذهب بـالتنافس والتحاسـد فى أهل العصبـية وتفرد الوجهة إلى الحق .

فإذا حـصل لهم الاستبصار فـى أمرهم . . لم يقـف لهم شىء : لأن الوجهة واحدة . والمطلوب متساوٍ عندهم . وهم مستميتون عليه .

وأهل الدولة التى هم طالبوها وإن كانوا أضعافـهم لكن أغراضهم متباينة بالباطـل .وتخاذلهم لتقـية الموت حاصل . . فلا يـقاومونهم وإن كانـوا أكثر منهم بل يعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل]

الترهيب من عقبى الترف

ويدخل فى الحل الإسلامى ما جاء به القرآن من أنباء الترف وفيه مزدجر: ومن ذلك :

١ ـ التنعم المفرط سبب للكفر .. وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٧ ، ١٨]] .

إن الاستغراق فى النعمة جر إلى التكذيب .. ثم نسيان الحقائق الكبيرة.. ونسيان المنعم سبحانه وتعالى .

ثم يقول عز وجل فى سورة الأنبياء :﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: ٤٤] .

والمعنى :

[بل متعنا هؤلاء الكفار على حقارتهم وما هم فيه من الحفظ إنما هو منا «لا كائى لهم منه ولا مانع» لأجل تمتيعهم بما لا يغتر به إلا مغرور : لا مانع يمنعهم وآباءهم ـ بالنصر وغيره ـ حتى طال عليهم العمر .

فكان طول سلامتهم غارًّا لهم بنا .. فظنوا أنه لا يغلبهم على ذلك التمتيع شىء . ولا ينزع عنهم ثوب النعمة] .

والنهاية ؟!

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤] .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١ ، ١٢] .

وإنها لنهاية طبيعية لمجتمع غير طبيعى ، مجتمع خلا من الرأى العام

الذى يحاسب ويعاقب .

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]

إنها دعوة تحمل الرموز مسئولية الانحراف .. الذى يتسع به الخرق على الراقع .. عندما يفسر أهل الحل والعقد فى كل موقع .. فيسرى الداء فى جسم الأمة لأن فساد السمكة يبدأ بفساد رأسها !!

وهنا نفهم سر حكمة الحسن البصرى رحمه الله عندما ادخر دعوته المجابة للحاكم الذي يكون صلاحه سبيلاً إلى صلاح أمته .

وأيضًا نفهم ماروى :

أ - إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

ب - والناس على دين ملوكهم .

ج - ما رواه البزار .

[وإياك والتنعيم .. فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين] .

ذلك بأن النعمة : بالاستغراق فيها .. تجر إلى التكذيب . ونسيان الذكر. وما يترتب على ذلك من انتقال لعنة الآباء إلى الأبناء .. ثم هلاك الجميع بسبب من امتلاء الوعى بالنعمة .. ثم نسيان المنعم سبحانه. .والشهوة الحسية قوية جارفة .. ومن شأن النعيم أن يزيد من ضراوتها وليس معنى ذلك : تحريم طيبات أحلها الله تعالى لنا :﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ...﴾ [الأعراف: ٣٢] .

إن هذا التنعيم وتلك الزينة مباحة لنا .. بل هى من الآثار التى يحب الله تعالى أن يراها على عباده .

المهم : ألا تكون مطلباً أساسياً يخدر فى المسلم إحساسه بخالقه المنعم

سبحانه وذلك بعض ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

وفوق ذلك :

فإن الإدخار لوقت الحاجة سياسة إسلامية .. تواجه الأمة به تقلبات الزمان . يقول الله عز وجل : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧ ، ٤٨] .

وفى العصر الحاضر رأينا الخطوط الجوية الأمريكية استبعدت زيتونة واحدة من طبق السلاطة وعلى مدى عام كامل [١٩٨٧] .

وقد وفر هذا الاختزال : مبلغ أربعين ألف دولار !!

أما بعد :

فإن الفارس يمرض .. إذا قعد عن القتال وقد رووا فى ذلك قول الشاعر :

وقال لى الطبيب : امكث سنينا فداؤك فى شرابك والطعام

وما فى طبه أنى جواء أخذ بجسمه طول الجمام

تعود أن يغير فى السرايا ويدخل من قتام فى قتام

المسلم المثالى :

وهكذا كان « ربعى بن عامر » : كان مؤمنًا مثاليًّا ، لقد تعرض لحضارة مترفة .. ملحة .. مغرية .. ولكن همته كانت عالية تناطح السحاب ، فلم تمتد العيون إلى حضارة هى شجرة ثمارها يانعة .. لكنها لا تشبع . زهرها جميل .. لكنه شائك .

أغصانها بهيجة .. لكنها تنفث السموم فى دم الإنسان .

وكانت الإرادة قوية : فلم يسعوا أنفسهم لسائق قطار يدورون معه حيث دار!!

كلمة بالغة من وادى النيل

ومن التطبيقات العمليـة لما قرره ابن خلدون ذلك الموقف من وادى النيل والناطق بالحكمة البالغة والناطق بأهلية وادى النيل ليكون منطلق الحضارة .. ومهداً للتوحيد :

حدث هـذا فى زمن السـفاح . فرَّ أحـد خلفاء « بـنى أميـة » إلى بلاد النوبة.. قال :

أقمت ملياً .. ثم أتانى ملكهم . فقعد على الأرض . وقد بسطت لى فرش ذات قيمة .

فقلت : مـا منعك عن القعود ثيابنا !! فقال : إنى مـلك . وحق لكل ملك أن يـتواضع لـعظمـة الله إذا رفعـه الله .. ثم قال لـى : لم تشـربون الخمر.. وهى محرمة عليكم فى كتابكم ؟!!

فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا .

قال : فلم تطأون الزرع بدوابِّكم : والفساد محرم عليكم ؟!

فقلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم .

فقال : فلم تلبسون الديباج . والذهب . والحرير .. وهو محرم عليكم فى كتابكم ؟

فقـلت : ذهب متـاع الملك . وانتصـرنا لقـوم من العجم : دخـلوا فى ديننا .. فلبسوا ذلك .. على الكره منا .

فأطرق المـلك ينكت بيـده فى الأرض ويقول : عـبيدنا ؟! وأتبـاعنا ؟! وأعاجم دخلوا فى ديننا ؟!!

ثم رفع رأسه إلىَّ وقال : ليس كما ذكرت !!

بل أنتـم قوم : استـحللتم مـا حرم الله عليكـم . وأتيتم مـا عنه نهيتـم ..

وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة.. لم تبلغ غايتها فيكم .

وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى .. فينالنى معكم .. وإنما الضيافة ثلاث . فتزود ما احتجت إليه .. وارتحلى عن أرضى] ا.هـ

وهكذا .. تنطلق الحكمة عن لسان واحد من ملوك « وادى النيل » هذه الحكمة التى توكد :

أنه إذا كان المتكلم مجنوناً .. فيجب أن يكون المستمع عاقلاً .

وقد كان ملك النوبة ذلك العاقل .. الذى عقل ما قاله الخليفة الهارب.

وكانت كل تعليقاته دائرة على محور الإسلام .. مقررة ما يلى :

أننا قد نظن فى سكرة السلطان أننا نسير بالزمان ..ولكن الحقيقة هى :

أن الزمان هو الذى يسير بناء إلى حتوفنا !!.

ونحن لا نرى أقدام الزمان وهو يسير .. كما وأننا لا نسمع وقع أقدامه.. ولكن الذى نراه .. والذى نسمعه هو :

المعبد : الذى ينهار على كل ما فيه ومن فيه !!

من صور الترف

ممثلة أجنبية :

١ ـ قبل الخروج كل يوم .. تقف أمام المرآة ست ساعات !!

٢ ـ سبعمائة جنيه لتصفيف الشعر فى تسعة أشهر .

٣ ـ شب حريق فى الفندق الذى تقيم فيه .. فألحت على خادمها ليقتحم النار .. لماذا ؟ ؟

لإنقاذ حقيبة المكياج !!

أما الفلاحة فى قرانا : فقد استراحت ببساطتها فى كل هذه المعاناة .. وإذا أرادت السكن .. فهى لا تشترى بيتًا .. ولكنها أولاً تشترى الجيران .

ونعود إلى الممثلة المترفة .. فنقول :

١ ـ لقد نضب معين الخير فى نفس تعيش لنفسها فقط .

٢ ـ وهى معجبة بنفسها إعجابًا يرفض النقد . ومحاولة تغيير المسار لأنها سائرة كما تشاء هى .. لا كما يشاء سبحانه .

وإذن .. فقد استجمعت مع مثيلاتها أسباب دمار الأمة على ما يقول الحديث الشريف :« **ثلاث مهلكات : شح مطاع . وهوى متبع . وإعجاب كل ذى رأى رأيه** » .

وهو المقصود بقوله عز وجل : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ [الإسراء:١٦] .

إنها تشير فى الاتجاه المعاكس لحركة الإصلاح ، هذه الحركة التى يقول عنها سبحانه وتعالى : ﴿ **لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [التوبة:٨٨] .

ذهبت مشرقة وسرت مغربًا ـ شتان بين مشرق ومغرب فبينما المترف بخيل بنفسه فلا يجود بها فى معركة الحق .

فهو أيضًا بخيل بماله ووقته فلا يجـود بهما فى نهضة بلاده . . فهو نقطة ضعف ونذير دمار . . تـرى المسلم عاملاً إيجابيًّا يجود بهما معًـا مسترخصاً لهما .

إنه لا يعيـش لنفسه بل : لديـنه . . ولوطنه . . فالوطن مـوجود به . . وفى شخصه . . إنه تنازل عن الزائد من متعته فى سبيلها . . فكانت الخيرات جزاءه وكان الفلاح تاجه الذى توج به سعـيه . . جزاء من جنس العمل بينما المترف ميت أدبيا وإن كان معدوداً من الأحياء .

وقد تمخضت عنها ذاتل تحدثت عنها الآيات الكريمة والتى بينت :

١ ـ معاداتهم للرسل بلا دليل .

٢ ـ تكذيبهم بالحق .

٣ ـ اعتزاز بقيم زائفة .

٤ ـ إنكار لليوم الآخر .

وهذا ما تفصله الآيات الكريمة .

الحكام ... والحكماء

فى بلـد عربى . . وتحت قبة البرلمان . . شوهد الوزير المسئـول يأكل «تفاحة » وقامت الدنيا ولم تقعد . . باعتبار ذلك « ترفًا » أو «رفاهية» تصادم أحاسيس الأمة والمفروض أن يكون الزهد ديدنه . . بل أن يكون دينه!!

وعلى الفـور . . اعتذر الوزير عـلانية بأنه لا يأكل الـتفاحة وإنما يـأكلها «علاجًا » بأمر الطبيب المداوى ؟!

ومع الاقتنـاع بصدق الاعتذار . . إلا أن الموقف يـشى بحساسيـة موقف المسئول . . لا سيما فى الظروف الصعبة التى تجتازها الأمة .

إن الحكام . . وكذلك الحكماء من العلماء هم مرآة الناس .

هؤلاء الناس ـ وبحكم غريـزة التقليد ـ يتجهون إلى هـذين الفريقين فى محاولة لرؤية ما لا يجده عند نفسه من الزهد والورع .

فإذا وجد الحكـام والحكماء مثله : مفـتونين بالدنيا . . فقـد استوى الماء والخشبـة . . والنتيجة هى : فقـدان الثقة بالاثنين معًـا . .وضاع الوطن . . وضاع الدين . . بضياع رموزهما الفاعلة .

ذلك بأن الغرور بالمال والسلطان . . والغـرور بالعلم يعمى ويصم وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص:٧٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً ﴾ .

﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ .

ومن أجل ذلك يقول عز وجل : ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢] .

من ذكرياتى

تمهيد :

فى دولة ما على بسـيط الأرض .. اشترى واحد من أغنياء المسـتعمرين ضيعة كانت ملكًا لواحد من الدولة المستعمرة .

ثم جاء المالك الجديـد يزور ضيعته .. فأثار لدى المـالك القديم ذكريات مُرَّةً حملته على لقائه بوابل من السباب لغيظه المكتوم .

وسأل المالك الجديد صديقه المرافق ماذا يقول ؟

فأجابه : إنه يشتمك !

فسأله : وهل هذه الشتائم ستعيد إليه الأرض ؟

فقال : لا .

فما كان من الغنى إلا أن قال : فليشتم ما شاء له هواه !

وفجـأة كشف عن سـاق .. وشمر عن ذراع .. ثـم هو بالفأس يـعزق الأرض .. فقال له صديقه وهو يحاوره أو يعاتبه :

تعزقها .. وأنت « أمير » ؟!!

فأجابه الرجل الغريب : لأنى آكل خيرها وأنا أمير !!

وحاولت أن أتأمل الموقف .. فبدا من دروسه ما يلى :

لقد بدا الرجل الغربى جديراً بما ملك ؟!

لأنه رجل عملى : يرى فى العمل شرفًا .

لقد ادخر طاقة الغضب عنده .. ليصرفها لا فى الرد على من شتمه وإنما بإصلاح الأرض .. ففعل ما نعرفه نحن نظريًا : حين جعل من الطاعة عقابًا لمن عصى الله فيه !

أما نحن : فبعضنا يرفض تقليد الغالب فى النافع من السلوك .. وإنما التقليد فى الردىء منه : فى المركوب . والملبوس والمطعوم والمشروب فنجحت خطة الغالب فى هزيمة المغلوب نفسيًّا : ليظل له تابعًا . وذلك بإحباط عناصر المقاومة فى كيانه .. حتى يظل الغالب غالبًا .. والمغلوب مغلوبًا .

وهكذا يتأكد لنا : أن لله تعالى سننًا فى إدارة الكون :

من لا يخضع لها .. يظل مغلوبًا .. وإن كانت أمته تسبح فوق محيط من الذهب الأسود .

يقول ابن خلدون :

[إن من أدرك أباه . مثلاً . وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير . والديباج ويتحلون بالذهب فى السلاح والمراكب . فلا يمكنه مخالفتهم فى ذلك إلى الخشونة في اللباس والزى :

إذ العوائد حينئذٍ تمنعه . وتقبح عليه مرتكبه .

ولو فعله لرمى بالجنون والوسواس فى الخروج عن العوائد .

ثم يقول : إن الأمم المغلوبة مولعة بالاقتداء بالغالب فى المذاهب . وأحوال الملابس . والمطاعم . والآنية والفرش .

ويترتب على هذه التبعية ما يلى :

رفة الأحوال . ويتبارون فى أكل الطيب . ولبس الأنيق . وركوب الفاره ثم تبلغ المأساة ذروتها عندما تتوهم الأمة المغلوبة أن انقيادها للغالب إنما هو لكمال فيه .. ثم تكون النتيجة : تعظيمه .

فإذا غالطت بذلك صار اعتقاداً : فانتحلت جميع مذاهبه . وتشبهت به . وعندئذ يستغلها الغالب فرصة مواتية حين يسلط إعلامه بتعميق هذا الإحساس . بحسبان أن هذا التقليد إنما هو السبيل الوحيد إلى الحضارة .

من آثار الترف :

من خلال آيات القرآن الكريم يمكن أن ندرك بعض ملامح هذا الطابور .

يقول عز وجل : ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦] .

ويقول سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤] .

ويقول تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] .

ويقول تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾[المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٨].

١ ـ فالمترفون : مجرمون . . قطعوا كل صلة لهم بمن حولهم .

ذلك بأن المترف يرفض أن يكون تابعًا بعدما كان متبوعًا فهو عصى على الانقياد لغيره .

٢ ـ ولقد عاش المترفون مع « النعمة » ونسوا المنعم سبحانه . فشغلتهم النعم عن التفكر فى العقبى .

٣ ـ ولأنهم يعيشون مع النعمة أبداً . . فقد أورثهم ذلك إخلادًا إلى الراحة . واستمراء البطالة . . ورفض كل ما يكلفهم عناء . . اكتفاء بتبعية الآباء الذين سبقوهم بالحكمة . . فهم أولى بالاتباع . . الذى يؤكدونه بقولهم : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ قطعًا لأمل كل راغب فى هدايتهم .

٤ ـ المترفون يغالون فى حب الدنيا . التى يملكون بناصيتها . . وهم

يبحثون عن المركز المرموق فى متاعها .. فارغين من القيم العليا التى لا تكون كرامة إلا بها .

٥ ـ ولأنهم مغرورون بما يحتازون .

فهم يستكبرون على من يدعونهم إلى هذه القيم العليا ، بل يكفرون بالله تعالى . وهو سبحانه واهب هذه النعم .

٦ ـ بل يحاولون تحريض العامة على مقاطعة من يدعوهم إلى الخير .. بحجة كونه بشراً .

٧ ـ كل ذلك نضح إنكارهم للآخرة : فحياتهم محدودة بين : المهد واللحد .

٨ ـ لقد كفروا بالخالق . وكفروا بيوم القيامة ثم أثاروا الحقد فى قلوب من حولهم .

جزاء المترفين :

ومن جزاء المترفين المعجل :

أن الله تعالى يستدرجهم بإدرار النعم . ودفع النقم .. مع عصيانهم .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]

وفى الآخرة عذاب أليم .. وسيكونون أشد من غيرهم إحساسًا بهذا الألم لأن أجسامهم رقيقة بالترف .. فى الوقت الذى ترى فيه البسطاء عظماء فى نظر الناس .

لأن القيم العليا .. تفيض عليهم من بهائها .. فإذا هم محبوبون محترمون .. بعكس الهوان الذى يكون من نصيب الفارغين من هذه القيم .. والذين يحاولون بالترف أن يكونوا شيئًا مذكوراً .. وهيهات !!

يفعل الماكرون ذلك . بينما الأمة المغلوبة كما يقول العلماء .

لا تدرى أن الحضارة قيمة إنسانية لا تنتحل ولا تستعار وهيهات أن تأخذ كل مظاهر المدنية صفة الحضارة إذا أعوزها جوهرها الإنسانى الأصيل . وإذا كان الترف ظاهرة شيخوخة وهرم فى الدول التى بلغت غايتها من التمدن والثراء والغلبة والنفوذ ، فهو فى الأمم المستضعفة بادرة ضياع ونذير هلاك وموت . يكفى أن تسرى فيها جرثومة الداء لتشوه الإنسان فيختل تقديره واتزانه ، ويفقد وعيه وإرادته أمام جواذب الترف ، ويكفر بكل القيم التى لا يكون بدونها إنسانًا ، فتكون الأشياء الخارجية ، من زى ومظهر ومركب ومسكن ، هى التى تعطيه قيمة وتحدد وزنه وقدره ، والأصل أن الإنسان هو الذى يعطى هذه الأشياء الخارجية قيمتها ووزنها .

ومتى ابتلى شعب متخلف أو مغلوب على أمره بهذا الوباء المدمر ، هان عليه التفريط فى عرضه وشرفه وكرامته ، فأعياه بعد ذلك أن يحمل تكاليف الجهاد لاسترداد ما فقد وأضاع ، فيستسلم لغيبوبة التخدير ميتًا فى الأحياء ، يمضغ الأوهام ويجتر أضعاث الأحلام ليستمرئ مذاق العبودية والعار .

وليس فى الدنيا ما هو أبشع تناقضًا وأفدح نكرًا ، من بلد تعوزه أبسط مظاهر النظافة ، وطرقه تموج بفاخر السيارات ، وأسواقه غاصة بأحدث بضاعة الترف . . . .

ولا فى الحياة أتعس من شعب يتعلق بأضواء الكهرباء والنيون وجمهرته الغالبة لا تفك الخط ، ويرنو إلى كهربة ريفه وبراريه من قبل أن يوفر لها نور العلم المحقق لإنسانيتنا الناطقة .

وتبلغ المأساة ذروتها الفاجعة ، حين تكون الأمة ممتحنة بعدو فاجر ينتهك أقدس حرماتها ويعربد فيما استباح من حماها بوطأة قرصان وخيلاء غالب ، وفى شعبها من يلتمس مهرباً عن واقعه بمخدرات ترفه عنه وتلهيه عن مأساة

أمته ، ويلهث وراء محدثات مظاهر الترف ، بما يستورد من نجوم الأندية الليلية ، والأزياء والعطور الغربية ، ومصانع أجهزة الرفاهية العصرية .

كأن عطور الدنيا مجتمعة يمكن أن تخفى رائحة الهوان ، وكأن أجهزة التكييف يمكن أن تعبئ للأمة من يستجيبون لداعى الجهاد ونفير المعركة !

موقف الإسلام :

الإسلام لا يحرم الطيبات من الرزق :

فالإنسان متاح مباح له الاستمتاع بكل الطيبات .. شريطة أن يتجرد من خصلتين هما :

السرف . والخيلاء ..

أما إذا كان سرف أو خيلاء فقد صار الأمر ترفًا .. والإسلام يحمى أتباعه من الترف فرارًا من أخطاره وأوزاره : يقول العلماء :

إن الإسلام عدو الترف ، وقد اشتد القرآن فى تحذير أمته منه ، وأعطاهم العبرة بمصاير المترفين الذين عرهم متاع الحياة الدنيا فكذبوا برسالات الله وصدوا عن سماع دعوته إلى الحق والخير والتواضع ، ففسقوا وعاشوا فى الأرض مفسدين ، وكانوا فتنة ضل بها من ضل من الغابرين ، وكانت عاقبتهم أن تسلط عليهم داء الانحلال فهلكوا وأهلكوا .

وقد كان من المسلمين الأولين فى عصر الفتوح الكبرى ، من أخذوا أنفسهم بالشدة فى الزهد فى متاع الدنيا تعففًا وتقوى ، بما هم فى الناس موضع قدوة . وأنهم ليذكرون أن نبى الإسلام ﷺ لم يغير قط مستوى حياته المادى ، بما أفاء الله على المسلمين من خيرات . وفى الحديث عن السيدة عائشة أم المؤمنين : « ما شبع آل محمد ، ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعًا ، حتى قبض » .

« أن كنا آل محمد لنمكث شهرا ما نستوقد ناراً » .

فالقضية ، من وجهة النظر الإسلامية ، ليست أن نزهد فى زينة الله التى أخرج لعباده ، وننسى نصيبنا من الدنيا .

وإنما القضية أن نميز فيهـا بين حلال وحرام ، بين طيبات وخبائث . وأن نتقى غواية السرف وبهرج الخيلاء وفتنة الشره ولعنة الترف وعبودية الشهوة ، وهى أمراض أنـهكت أمما وأهلكتـها : ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ .

وفى مواجهة تحديات المعركة وتكـاليف الجهاد ،لا يبلغ عدو من الأمة ما يبلغ منها داء التـرف يشوه الإنسان ويقتل كرامته ونخـوته ، ويعطل فيه حس الحياة فما لجرح بميت إيلام .

يقول د . **محمد البهى** : لكن الإنسان الذى دخل قلبه الإيمان هو الصابر فى البأساء والضراء وحين البأس ، وهو الذى يتخذ من نعمة الله عليه عند الميسرة سبيلاً إلى إسعـاد غيره وداعيًا إلى الاستقامة والسلـوك المهذب فى تصرفاته ، وسبيلاً آخر إلى الزهد والقناعة فى متع هذه الحياة التى هى وفيرة لديه .

إن الدار الآخرة ـ فى نظر الدين ـ هى الحل لمشـكلة الحقد بين الناس فى الدنيا ! لأنـها موضع الأمل الأخيـر فأنظار المؤمنين بـالله تتجه إليهـا وحدها ولذلك حياتهم فى الدنيا يجب أن تكون حيـاة سلام وصفاء ، يسعون جميعًا لخير أنفسهم . إذ هذه الدنيا فى إيمانهم بداية وليست نهاية .

ولأن الآخرة أيضًا دار الجـزاء : فيها النعيم الذى لا يـوصف ، والشقاء الذى لا يعرف مداه ، ونعـيمها أو شقاؤها مرهون بنـوع العمل والسلوك فى الدنيا . . . كان مستوجبًا على المؤمن أن يسعى بعمله فى دنياه للحصول على نعيم الآخرة ولتجنب شقائها . ومن أجل ذلك أيضًا ينبغى أن لا تكون الدنيا داراً للخصـومة أو الحرب بين المؤمنين أنـفسهم . بل على الـعكس يجب أن

يكون التنافس فيها بينهم من أجل الخير العام عن طريق إنكار الذات .

الآخرة إذن دار القرار والجزاء معًا ، والدنيا مجاز ومكان اختبار وتجربة يوصل إليها فحسب . وبقدر ما يكون عمق الإيمان بالآخرة تكون صلاحية التجربة فى الدنيا .

وبهذا التصوير يسعى الدين لحل مشكلة الحقد الإنسانى . وهو الداء المزمن مع الإنسان ، والذى لم يجد فى علاجه حتى الآن تقدم العلم فى القرن التاسع عشر ، وتقدم التكنولوجيا والتطور الآلى فى القرن العشرين .

كما لم تنجح معه فلسفة القرن التاسع عشر المادية الداعية إلى حرمان الإنسان كلية من التملك للمال ، ووضعه فى حياته تحت الرعاية العامة للمجتمع وإنكار هذه الفلسفة للدار الآخرة وللدين عامة لم يفد شيئًا فى حل مشكلة الحقد الإنسانى وأثره فى تمزيق النفوس والمجتمعات البشرية شر ممزق. بل على العكس طرد من النفوس البقية الباقية من إيمان وأفسح بذلك فيها المكان لتمدد هذا الداء الإنسانى الخطير ا.هـ

كما تحدث علماؤنا :

كان العلماء يسهبون فى شرح الفكرة إسهابًا يُراد به توضيحها .

فإذا أحسوا بأنهم أطنبوا .. حاولوا تلخيص الفكرة إرادة استيعابها ..

وهذا واحد من الدروس التى نحاول الآن الإفادة منه .. حين نلجأ إلى تلخيص ما قدمنا حول ظاهرة الترف تلخيصًا يجمع أطرافها .. بعد ما تشعب حولها الحديث .

مَنشأ الترف : .

١ ـ إذا كان الناس على دين ملوكهم . فهم كذلك على دين علمائهم .

ألا وإن [الإنسان مفطور على الهيام بالشىء الذى لا يجده عند نفسه .

فكان المجتمع الإسلامى الأول يجل العلماء الذين كانوا على جانب عظيم من الزهد والقناعة وكبر النفس . وغنى القلب . وعلى شىء من التقشف والبساطة .

حتى كان السلاطين والأمراء يهابونهم ويحترمونهم ويرونهم فوق نفوسهم .

أما وقد أصبح العلماء فى مستوى المتنافسين فى زينة الحياة والحصول على الكماليات أصبحوا لا فرق بينهم وبين أبناء بلدهم وأفراد جيلهم . وأصبح المجتمع ينظر إليهم كعامة الناس . وأصبح لا يخضع لما يصدر عنهم من وعظ أو توجيه التروى الصيت وهكذا استوى الماء والخشبة !

فإذا أضيف إلى ضعف العلماء فساد الأفراد فقد استجمعت الأمة أرباب انهيارها] .

ومن أجل ذلك كان من توجيهات القرآن الكريم فى هذا الباب :

تحذير القمم من الانحراف . . حتى لا يستشرى الفساد . . على ما يقول عز وجل : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢] .

٢ ـ ثم يمضى مسلسل التقليد بالأمة إلى الهاوية .

لأن المترفين مله واحدة عبر التاريخ . . ومن ثم لا بد من التحذير والتنفير . . ونقرأ فى ذلك قوله عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤] .

أ ـ إنه الإصرار المستميت على القديم .

ب ـ ثم رفض كل حركة إصلاحية تصطدم بهذا القديم رفضًا معا ندًا . .

وبلا دراسة .

جـ ـ ثم يكون الانتقام .

د ـ هذا الانتقام الذى يدعونا إلى التأمل فى أحوال هؤلاء المقلدين .

وكيف كان انحدارهم إلى الحضيض ؟!!

فكيف كان ذلك ؟!

إن المعاندين يرفضون الحق . . صادرين فى رفضهم عن عاملين .

أولاً : الاعتزاز بقيم المال والولد .

وثانيًا : إنكار الآخرة .

ولكن ذلك ساقط بما تقرره الآيات الكريمة من أن بسط الرزق لم يكن من أجل زرقة عيونهم . وإنما هو راجع لمشيئته عز وجل .

والحق : أن هؤلاء المترفين : شغلوا أنفسهم بالعرض .

ثم تناسوا الحق الواضح : فضاع الطريق إلى الإصلاح الاجتماعى .

ثم كانوا حطبًا للنار .

يقول الله عز وجل : ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٥] .

يحموم : دخان أسود

وليس هذا فقط . . . ولكنهم صاروا بهذا الترف أداة لإصلاحات الفساد . . يقول الله عز وجل : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] .

المترفون يجأرون بالشكوى :

وعلى عكس ما كان المترفون فى الدنيا . . لا يشتكون من أحد فإنهم فى الآخرة يتجارون بالشكوى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤] .

وذلك جزاؤهم العادل بسبب ما زين لهم الترف من محاولات خداع الجماهير المفتونة بهم : ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤] .

يريدون أن يقولوا للجماهير المخدوعة .

هو مثلكم : فلا تطيعوه !! لماذا ؟!

لأن المثلية لا تسوغ قيادته دونكم . . .

وتأمل حين يذكرون الحياة يقولون : «حياتنا» وذلك يعنى : أنهم لا يؤمنون إلا : بالمحسوس : المحدود : أى يؤمنون بالأسباب . ولا يؤمنون بالمسبب .

وهكذا المترف : الذى أسس قياده لهواه . . فكبكب مع رفاقه فى النار .

إن المترف : هو المنغمس فى النعيم . . كما يشاء . . ولا يمنعه مانع . .

١ ـ مشغول بالكماليات عن الكمال !

٢ ـ طريق اللذات مفتوح أمامه بلا حدود !

٣ ـ تسانده قواه فى تحصيل ما يريد .

سبب الشقاء

وسبب شقاء المترفين : بقاؤهم فى النعيم زمنًا طويلاً . .

وكان عليهم ألا يتخذوا من المانع من الانحراف ـ وهو النعمة ـ مقتضيًا له!!

روى عن أبى أيوب الأنصارى ﵁ ـ أنه قال فى هذه الآية : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] .

إنها نزلت فينا معشر الأنصار .

لما نصر الله تعالى نبيه . وأظهر الإسلام قلنا : نقيم فى أموالنا نصلحها. فأنزل الله تعالى هذه الآية :

وإذن . . فالإبقاء بأيدينا إلى التهلكة هو .

(أن نقيم فى أموالنا نصلحها . وندع الجهاد) : تفسير ابن كثير ج / ١.

ويلاحظ هنا أن الله تعالى أمرهم بما أمر به « قارون » المترف .

والذى أمره سبحانه : وأحسن كما أحسن الله إليك .

وكان ذلك فرارًا من مثل مصير أيوب . .

وعليهم أن يحذروا . . لأن الإسلام لن يشفع لهم حينئذ . . لأن ذلك المصير سنة منه تعالى لا تتخلف مدركين رحمته تعالى حين لا يعاجل قومًا بالعذاب قبل أن ينذروا . . ولقد أنذروا . .

يحملهم على ذلك ما يلى :

(أ) أن النعمة من الله أولاً .

(ب) ثم إن تنعم الدنيا قليل إلى جانب نعيم الآخرة .

(جـ) ولابد من أن نقيدها بالشكر والدعاء .

وفى ذلك يقول عزوجل : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ .

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وقال ﷺ : « **والله . ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه فى اليم . فلينظر ماذا يرجع إليه** » .

أما بعد :

فلقد كان ذلك المصير كذلك طبق هذا التسلسل :

(أ) يلجأ الحكام لسياسة الترقيع : ترقيع الدنيا بتمزيق الدين .

(ب) تبوء محاولاتهم للاقتصاد فى المعيشة دون جدوى . .

(جـ) يغدقون الأموال على أتباعهم ليسكتوا ويضمنوا لهم أنصاراً . .

(د) يزداد الأتباع والمتبوعين تنعماً . . وبالتالى يزدادون ضعفاً . . وهكذا يتسع الخرق على الراقع !!

(هـ) يترنح الحكام بين أتباع ضعاف وشعب جائع حانق . .

(و) من إذن سيدافع عن الدولة ويحارب من أجلها ؟! لا أحد !!

(ز) وإذن فلابد مما ليس منه بد من الاستعانة بالأجانب الذين يستولون تدريجيًا على الحكم . .

وقد حدث ذلك فى الشرق .

حدث مع الأتراك الذين استعانوا بالمماليك وفى المغرب : استعان الموحدون بالغرب !!

وفى النهاية نقول : إن سمة الترف هذه هى خاصية الحضارة الحديثة . . الأمر الذى يحملنا على أن ننتقل من التذكير إلى التحذير من عقبى الانغماس فى الحس . . والزهد فى نعيم الروح .





الفصل الخامس



الفصل الخامس

الظلم

من عوامل انهيار الأمم

مدخل :

البحث فى الأمور الإنسانية من الصعوبة بمكان . . لماذا ؟

(١) الإنسان مخلوق معقد .

(٢) لا يتصرف على وتيرة واحدة . بينما الكون : يمضى (لا إرادى) يخضع لقوانين صارمة . لا تستثنى أحدًا .

ولعلنا نستأنس لذلك بقوله عزوجل فى سورة فصلت : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وشاهدنا هنا :

أنه عز وجل يعدنا أن يرينا من آياته تعالى فى الكون وفى النفوس ما يدعم فى قلوبنا أصول الحق . .

ولما كانت آيات الآفاق أوضح قدمها تعالى فى الذكر على آيات الأنفس الدقيقة الخفية على ما يقول البقاعى .

ونفصل لهم مع ذلك ما فى الآدمى نفسه من بدائع الآيات . وعجائب الخلق . وغرائب الصنعة . وما فيه من أمارات الحدوث . واختلاف الأوصاف . .

ثم يستشهد بقول « الرازى » فى اللوامع . . قال : (الاستدلال بالأفعال على فاعلها واضح . وطريق لائح .

والأفعال على قسمين :

أحدهما : الآفاق : وهو جملة العالم .

والثانى : النفوس : فإن من عرف نفسه عرف ربه) ا.هـ

وبعد هذا المدخل .. تصورت صعوبة الرحلة فى أعماق الإنسان .. وكان لابد من الرجوع إلى « الأضابير » لأعيد قراءة « رؤوس المسائل » حول موضوع « الظلم » كما سجلتها نقلاً عن أستاذى د . محمد الغمراوى رحمه الله .. ومنذ أكثر من خمسين عامًا !!

ومع إضافة التجارب التى خضتها .. ومراحل العمر التى تجاوزتها .. كانت هذه الصفحات حول سبب من أسباب انهيار الأمم وهو : الظلم .

إن للأمم .. كما للأفراد أعمارًا : تمتد .. وتنقطع لأسباب .

أسباب قوة : تمتد بها أعمارها ..

وأسباب ضعف : بها تشيخ . ويعتريها الضعف .. ثم ينقض غزلها من بعد قوة أنكاثًا .

يقول عزوجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] .

من أسباب القوة :

ذكرها الحق سبحانه فى قوله عزوجل : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥] .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢] .

إنه الأمن . والتمكين . والرخاء . والصحة . . وعدا من الله تعالى لا يتخلف . . متى فعلنا ما يراد منا من الطاعة . ثم الاستغفار . .

المراد بالانهيار :

ونقصد بالانهيار هنا : الانهيار الأدبى . . وإلا . . فقد تملك الأمة ناطحات سحاب . . كما تملك مصانع تدور عجلاتها لا تتوقف . . ومع ذلك فإن شبابها ذلك الظاهر لا يمنع من أن تكون هناك علل تسرى فى أوصالها !

في الوقت الذى يبدو التخلف واضحًا عند قوم آخرين . . ولكنهم أقوياء بما يعملون : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

نحن . . وهم .

إن للقوة أسبابها . . كما أن للضعف عوامله . .

والإحاطة بأسباب القوة وعوامل الضعف يعنى : تشخيص الداء . . لنعرف نوعه . وكيف نتصدى له .

وقد نجح أعداء الإسلام فى دراسة أسباب انهيار الأمم . . على نحو مكنهم من استغلال ثمرات معارفهم فى ضرب الأمة الإسلامية بعوامل فنائها . . المستخلصة من دراساتهم لمسير الحياة قديمًا وحديثًا . .

وما كان لهم أن يحققوا مآربهم فى هذا المجال لولا أننا مكناهم من رقابنا . بتلك الغفلة التى جعلت على قلوب أقفالها .

فلم تستجب للتوجيه القرآنى بالسير والنظر فى مناكب الأرض . . لترى « كيف » كان عاقبة المكذبين . . و « كيف » كان عاقبة الظالمين .

وربما ظن البعض أن ذلك التوجيه القرآنى يخاطب أممًا غيرنا !؟

وفى سكرة هذا الظن المخدر نهضت فعلاً أمم لا تدين بالإسلام : فدرست ثم عرفت . . وكان ما كان .

الأمر الذي يفرض علينا أن نبدأ الإصلاح بالخطوة الأولى . . متلمسين عوامل انهيار الأمم . فى محاولة للتخلص منها . . فراراً من مثل عقبى الغابرين الذين ظلموا . . فدمر الله عليهم . . وللظالمين اليوم أمثالها سنة منه تعالى لا تتخلف . .

ونبدأ بدراسة رذيلة الظلم : نشأة ومصيراً .

معنى الظلم :

تقول اللغة (الظلم وضع الشىء فى غير موضعه) إما بنقصان أو زيادة. ومنه قيل من استرعى الذئب فقد ظلم .

ويستوى فى ذلك الأمور المادية والمعنوية .

فوضع الرجل فى غير موضعه الملائم . . واغتصاب حقوق الغير . . وتطفيف الكيل والميزان . . كل أولئك ظلم . . كما أن تسخير ملكات الإنسان فى غير ما خلقت له . . والاتجاه بالولاء إلى شجر أو حجر أو بشر . . ظلم . . بل ظلم عظيم . .

يستوى فى ذلك من بدأ بالشرك فعبد غير الله سبحانه . . ومن تابعه فقلده فى ضلاله .

إن الفكر الإنسانى . . أو الوجود الأدبى الإنسانى ثروة . . والتفريط فيها بالتبديد . . إنما هو وضع لها فى غير موضعها . . فإذا سلمنا بأنها أثمن ما يملك الإنسان . . سهل علينا أن نفهم لماذا كان الشرك . .

وكان موقف المستكبرين والمستضعفين معًا . . سواء . . على نحو ما سنفصله فى موضعه إن شاء الله تعالى .

نشأة الظلم :

لا ينقاد الإنسان للحق إلا بواحد من دافعين :

(أ) دافع الرغبة .

(ب) دافع الرهبة .

وأكبر الرغبة : الطمع فى رحمة الله عزوجل .

وأكبر الخوف : الخوف منه تعالى .

فمن لم يرج الله تعالى ولم يخفه سبحانه يصير الاستكبار عن قبول الحق طبعه وديدنه . .

فلا يفعل الخير . . ولا يهتم بغيره . .

لقد انقطعت صلته بالمبدأ والمنتهى . . فعاش بهيميًّا أنانيًّا بلا هدف إلا مصلحته . .

إطلاقات الظلم :

قال العلماء : والظلم يقال فى مجاوزة الحق .

وفى الكثير والقليل .

بالعدول عن مكان الشىء وزمانه .

(وفى الذنب الكبير . والذنب الصغير . . ولذلك قيل لآدم صلوات الله عليه وسلامه ـ وفى تعديه : ظالم . وفى إبليس : ظالم .

وإن كان بين ظلميهما من البون ما لا يخفى) [١] .

---

(١) بصائر ذوي التمييز ج٣/ ٥٤١ .

دركات الظلم

قال الحكماء :الظلم ثلاثة :

(١) ظلم بين الإنســان وبين الله تعالى . وأعظمه : الكــفر . والشرك . والنفاق .

ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] .

وإياه قصد بقوله : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود:١٨] .

(٢) والثانى : ظلم بينه وبين الناس .. وإياه قصد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ [الشورى:٤٢] .

(٣) والثالث : ظلم بينه وبين نفسه . قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [فاطر :٣٢] .

قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥] .

أى : من الظالمين أنفسهم ..

وكل هذه الأقسام فى الحقيقة : ظلم للنفس .

(فإن الإنسان أول ما يهم بالظلم .. فقد ظلم نفسه .

فإذا الظالــم أبدًا مبتدئ بنـفسه فى الظلم .. فلــهذا قال تعالى فــى غير موضع : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل:٣٣] .

صور من ظلم النفس :

ذات يوم جاشت نفس الشاعر ..الحطيئة .. بالرغبة الملحة فى أن يهجو إنسانًا ؟!

فلما لم يجد ذلك الإنسان .. هجا نفسه !!

وذلك قوله :

أبت شفتاى اليوم إلا تكـــلُّما بشر .. فلا أدرى لمن أنا قائله ؟!

وكان من سوء حظه أن وجد فى صحن داره بركة ماء ..

فلما رأى وجهه فيها .. أنشد :

أرى لى وجهًا شوه الله خلقــه فقبِّح من وجه وقبح حامله !!

من آثار الظلم

يقول ابن خلدون :

إن الظلم مؤذن بخراب العمران : وفى تاريخ الإنسانية ما يؤكد هذا المعنى .

يروى أن « أنو شروان » العادل .. كان يشوى صيداً .. ولم يكن هناك « ملح » فأرسل خادمه إلى القرية ليشترى له ملحًا .

وكان مما حذره منه : أن يأخذ الملح من البائع بلا ثمن .. بل لابد أن يدفع الثمن للبائع .

حتى لا تخرب القرية .. وحتى لا يكون الحاكم قد سن فى رعيته سنة سيئة .. إذا قبل موقف البائع الذى قد يجامل خادم الملك .. فلا يأخذ ثمن الملح .

ولكن نفراً من حاشيته تعجبوا وقالوا .

وأى خلل يتولد من هذا القدر ؟!

إنه شىء يسير .. ولا خطر هناك ..

ولكن « أنو شروان » يلقى عليهم درسًا لا ينسى .. فقال لهم :

لقد كان أساس الظلم فى الدنيا ضئيلاً أول الأمر ..

ولكن .. كل من جاء زاد عليه .. حتى وصل إلى هذه الغاية ؟!

ثم هز وجدانهم بقوله محذراً لهم :

إنه إذا أكل الملك تفاحة من بستان الرعية .. فإن غلمانه سوف يقتلعون الشجرة من أساسها ؟!!

وصدق القائل :

إن قليل النار غير قليل !!

وإذا تسامح المسئول فى أكل الصغير .. كان لغلمانه فيه قدوة سيئة .. بل سوف يقتلعون نفس الشجرة من جذورها .. فلا ترى إلاَّ شجرة مقلوعة.. وثماراً ممنوعة . وهو ما أشار إليه ابن خلدون بقوله : (اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها . لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ..وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها .. انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى والاكتساب) .

ثم يقول :

(والعمران ووفوده . ونَفَاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب : ذاهبين وجائين) .

وتكون النتيجة :

(١) يخف ساكن القطر . وتخلو الديار .

(٢) يختل السلطان ... لماذا ؟

لأنه صورة للعمران : يفسد بفساد مادته ضرورة وتلك سنته تعالى فى الظالمين ..

ويعنى ذلك : أن حدوث النقص فى العمران بالظلم والعدوان أمر واقع.. لا مفر منه ووباله عائد حتمًا على الدولة .

وقد تكون الدولة كبيرة .. كثيرة العمران .. وإذن : فإنها قد لا تشعر بهذا النقص ..

ولكنه يدب فيها دبيبًا غير ظاهر للعين المجردة .. نظرًا لاتساعها وقد

تذهب الدولة المعتدية قبل خراب الأمة ..

وقد يشتبه ذلك على الناس .. الذين قد تخف ثقتهم بسنة ربهم فى الظالمين .. ولكن الذى قد يحدث هو .

أن دولة أخرى تخلف هذه الدولة الظالمة .. فتتحاش أسباب الظلم .. فيعلو بنيان الدولة لهذا السبب ..

وتبقى سنة الله تعالى فى الظالمين ماضية .. لا تتخلف أبدًا .

خطورة الظلم

قال الحكماء : (الملك يبقى مع الكفر . . ولا يبقى مع الظلم) .

قال الشاعر :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم آخره يأتيك بالندم

نامت عيونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وفى بعض الآثار :

إذا كان يوم القيامة يجتمع الظلمة وأعوانهم ومن ألاق لهم دواة وتبرى لهم قلمًا . فيجعلون فى تابوت ويلقون فى جهنم .

وقال النبى ﷺ : «اتق دعوة المظلوم . فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». من حديث ورد فى الصحيحين .

وقال الشاعر :

يا أيها الظالم فى فعله فالظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت . وحتى متى تسلو المصيبات وتنس النقم ؟!

يقول عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان: ٢٧] .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [سبأ: ٣١] .

﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٤٥] .

وقال آخر :

من ظلم الناس تحاموا ظلمه وعز عنهم جانباه واحتمى

وهم لمن لان لهم جانبه أظلم من حبات أنباث الشفا

عبيد ذى المال وإن لم يطمعوا من غمرة فى جرعة تشفى الصدى

وهم لمن أملق أعداء وإن شاركهم فيما أفاد وحوى

عاجمت أيامى وما الغر كمن تأزر الدهر عليه وارتدى

لا يرفع اللب بلا جد ولا يحطك الجهل إذا الجد علا

من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما راح به الواعظ يومًا أو غدا

من قاس ما لم يره بما يرى أراه ما يدنو إليه ما نأى

من ملك الحرص القياد لم يزل يكرع من ماء من الذل صرى

من لم يقف عند انتهاء قدره تقاصرت عنه فسيحات الخطى

من ناط بالعجب عرى أخلاقه ثيطت عرى المقت إلى تلك العرى

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى

وللفتى من ماله ما قدمت يداه قبل موته لا ما اقتنى

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسن لمن وعى

« ابن دريد »

يقول عز وجل : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٣٥] .

وهكذا حين يدعى الأتباع أن ضلالهم كان بسبب من تحكم المتبوعين فيهم من مركز القوة . . هنا ترد دعواهم من قبل المضلين ببيان أنكم لم تكونوا مؤمنين . . فأضللناكم نحن . .

بل إنكم كنتم بطبيعتكم مستعدين للكفر . .

وكل ما فعلناه نحن هو : أننا دعوناكم فاستجبتم طائعين : فحق علينا القول بسبب أننا وأنتم كنا طاغين .

جاوزنا الحد فى الاستبداد . . مثلما جاوزتم أنتم الحد فى التهاون والاستسلام . وضاع الصراط المستقيم منا جميعًا .

بين إفراطنا . . وتفريطكم .

وعندئذٍ فمن العدل أن يشترك الجميع فى العذاب على سواء . . بعد اشتراكهم معًا فى تناول أسبابه فى الدنيا : حين ماتت الضمائر . وفسد التصور .

تصور الكون . . وتصور حقيقة الإنسان .

هذا الموت الذى حق عليهم بسبب أنهم رفضوا دعوة التوحيد استكبارًا فى الأرض ومكر السيئ . ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله . . وتلك سنة الله فى خلقه .

ولقد كان العذاب هو الدواء الناجع لأمة تفش فيها الظلم .

بمعنى أن كل فرد يعبد بالغرور ذاته . . وذلك يعنى : توفير لذاذاتها بأى ثمن وبأى طريق . . بعد ما فقدوا معنى الشفقة والرحمة بفقدان سببها وهو : التوحيد : إن من رحمة الله تعالى بالإنسان أن كانت الحاكمية له تعالى وحده.

فهو سبحانه الخالق : الرازق : المشرع . . المعز المذل . . المحيى المميت. . الرافع الخافض . . ولا أحد سواه .

وحتى يتأكد هذا المعنى . . نزلت الآية تترى تذكر الناس بها . . حتى تقطع بها طريق الظلم . .

ومن دلائل ذلك : أن الظالمين لما رأوا أتباعهم وقد تحملوا فى سبيلها صنوف العذاب تأكد لهم صدق هؤلاء الأتباع المشتق من صدق عقيدتهم .. فدخلوا فى دين الله أفواجًا ..

ولكنّ الإنسان هو الإنسان .

يرى الدنيا نقدًا .. ويرى الآخرة نسيئة : وكما يقول الغمراوى : يرى سهولة الرذيلة .. وصعوبة الفضيلة .. بل يرى الأشرار فى منعة وأصحاب الحق فى بلاء ..

ومدفوعًا بطبيعة الأنانية فيه .. يندفع مع التيار .. فيظلم ..

وإذن .. فقد كان من رحمة الله عز وجل دوام تذكيره :

تذكير الظالم .. حتى لا يُفرِط ..

وتذكير المظلوم .. حتى لا يفرِّط !!

بمثل قوله عز وجل وعيدًا للظالمين : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٩] .

حتى إذا جاءهم العذاب جاء فى موعده المحدد .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

ثم .. إن ما يملكه الإنسان ـ ولو كان ملء الأرض ـ لقدمه فدية له .. ولكن : لن يقبل منه .

والمعنى الجدير بالتأمل هو : أن ذلك العذاب لم يكن عبثًا .. وإنما جاء طبق سنته تعالى فى الظالمين: الذين استبدوا .. فظلموا .. والذين ضنوا بأسباب المقاومة المتاحة لهم .. فاستسلموا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي

الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩] .

ويبقى الأمل فى قلوب المظلومين : أن المستقبل لهم .. وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

[ابراهيم: ١٣، ١٤] .

ومن معانى ذلك : أن الأمة الظالمة تجهل أو تتجاهل منهج الإصلاح الممثل فى شريعة الحق سبحانه .. والذى هو استجابة لفطرة الإنسان وتعبير صادق عن آمالها ومن ثم .. تضرب فى التيه .. على غير هدى .

النتيجة :

ضياع الجهد والوقت فيما لا يجدى .. فتضعف الأمة رويدًا رويدًا .. إلى أن تصير نهشة لحم بين أنياب أمة أخرى قد استجمعت أسباب القوة .. ولو كانت الأمة الظالمة هذه مسلمة ما تغير الأمر .. ولابد أن تهلك على يد الأمة القوية ولو كانت كافرة .

فالله تعالى ينصر الأمة العادلة .. ولو كانت كافرة .. ويخذل الأمة الظالمة ولو كانت مؤمنة .

وهلاك الأمة على هذا النحو لم يكن وليد يوم وليلة .. بيد أنه تفاعل أسباب الدمار على المدى الطويل .. حتى يخر السقف على أناس نسوا الله فأنساهم أنفسهم .. ثم كان الطوفان الذى لم يكن مفاجأة إلا لهؤلاء الغافلين.. ولكنه فى واقع الأمر نتيجة طبيعية لأسباب غير طبيعية أملتها أهواء الإنسان المنحرفة عن جادة الصواب والذى قطع بانحرافه وظلمه حبال الأخوة بين أفراد المجتمع فلم يكن ثمة اتصال . ثم كانت النهاية .

وتبدو آثار رحمة الله عز وجل فى أنه : لا يحابى أحدًا .ثم إن المصير لم يكن ظلمًا .. بل كان من رحمته أنه لم يعاجلهم بالعذاب .. بل إن الأمة لما خالفت قوانين التقدم غرقت فى شهواتها . فضعفت .. فتداعت إليها الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها .. إلى قصعة الأمم المتداعية .. يعنى .. تهاجمها . وبلا مقاومة .. لأنها قصعتها هى ثم حذف التاء فى «تداعى» وما فى هذا الحذف من سهولة شاهدة بفقدان الأمة عناصر المقاومة .

مسؤولية الظلم

يقول الله عز وجل : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

فالله تعالى يحذر المفرطين فى حقوقهم المتهاونين فى متابعتها من وقوع فتنة بهم يظنون أنها تصيب الذين ظلموهم خاصة . . بينما توشك هذه الفتنة أن تصيبهم مع الظالمين فى وقت واحد . . ثم تذكرهم الآية بشدة عقاب الحق سبحانه . . هذا العقاب الذى يترصد خطى المستكبرين . . والمستضعفين القادرين على مقاومة الظلم : تذكرهم بشمول العذاب الذى سيصيب الراضين عنهم . . لأنهم سكتوا .

يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز : (الجماعة لا يمكن أن تكون مسئولة عن أعمال اقترفها عضو من أعضائها دون أن تشارك فى هذه الأفعال بطريقة ما .

وعلى ذلك فكل مواطن يعيش فى مجتمع معين يحمل جانبًا من المسئولية فى وجود بعض الشرور الاجتماعية ، ولا يقتصر ذلك على تدخله الإيجابى فى إحداث هذه الشرور .

أو على القدوة السيئة . بل إن مسئولية الفرد تمتد إلى الحالة التى يترك فيها الشرور تنتشر . دون أن يتدخل لمنعها . أو على الأقل لفضها وإعلان سخطه عليها .

فاللامبالاة الاجتماعية تتساوى فى التجريم مع الفعل الإيجابى .

والامتناع عن إعلان الرأى بشأن المخالف للشرع . يعتبر نوعًا من الاشتراك فى المخالفة) (١) .

---

(١) مقدمة دستور الأخلاق فى القرآن .

وفى هذا المعنى يقول سبحانه : ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود:١١٦] وتلك مسئولية الجمهور عن مواجهة الظالم ولو بالكلمة.

لقد كان وجود الناهين عن الفساد ضروريًّا لكسر شوكة هذا الفساد إن لم يمكن وأده فى مهده . .

فلما سكتت الأصوات وسكنت الحركة . . وجد الظلم الطريق أمامه ممهودًا معبدًا . . فكان عقاب الله عادلاً حين ينصب على رأس الفاعلين والمستسلمين جميعًا . .

وفى السنة النبوية الكريمة شواهد على ذلك . . نقتطف منها ما ذكره الدكتور محمد سعاد جلال في تعقيب له على هذا الحديث الشريف .

قال ﷺ : « **لم يمنع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء . ولولا البهائم لم يمطروا** » .

يقول الدكتور فى تعليقه : (إخراج الزكاة من أموال الأغنياء لسد حاجات الفقراء بالمقادير التى حددها الشارع ركن التوازن الاجتماعى ، وأداة تطهير النفوس من الأحقاد والمحاسدات والثارات وبالتالى سبيل أقوم لتماسك الأمة وتعاونها ومن ثم كانت طاعة عظيمة لله يعاقب الأمة على ترك أدائها بالجدب ومنع المطر ليذوقوا الجوع والجاجة كما أذاقوهما للفقراء المستحقين : بخلوا فبخل الله عليهم الطبيعة . لأن الجزاء من جنس العمل أذى للنفس وألم . فهو إيلام وتوبيخ . ثم لا ينزل من المطر إلا ما يكون رحمة بالبهائم : فإذا أمطر المانعون للزكاة فبفضل البهائم المسخرة لهم : ليفهم من يفهم أن مانعى الزكاة لما قست ـ بهذا الشح قلوبهم وجفت مشاعرهم وقصرت عن المصلحة المقصودة أنظارهم وانحطت رتبتهم عن البهائم فلم يعد لهم عند الله حساب هلكوا بالجدب أم حيوا . وإنما يصيب الجدب الأمة كلها لأنهم جميعًا

مسؤولون عن شيوع المنكر فيهم لعدم قيامهم بتغييره) .

وسوف يعترف الظالمون بظلمهم . . ولكن حيث لا ينفعهم الاعتراف .

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٦] .

﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤] .

حوار المجرمين

وقد يحاول المستضعفون أن يتنصلوا من مسئولية الظلم الذى لم يباشروا أسبابه .. وإنما باشرها الظالمون المستكبرون ..

وردًّا على هذه الدعوى يقول علماؤنا : فآيات النحل تشدد النكير على المستسلمين الذين ضلوا ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف ثم هاهم أولاء لما رأوا العذاب لا يذكرون ضمن أعمالهم سوء ما قدموه ، ناسين أنهم بموقفهم السلبى المخزى قد أفسحوا الطريق أمام الظالمين فملكوا رقابهم بل ملَّكوهم رقابهم فكان جزاؤهم هذا المصير المخزى يطوى به الله تعالى حياة حرمها الظلم من رؤية سنن الله تعالى فى التقدم والإصلاح فلم نتلمس وسائل ذلك الإصلاح ولم تأخذ بأسبابه ففقدت بذلك مقوماتها بل وصار اختفاء الظالمين من بين صفوف المجتمع نعمة تستحق الشكر على ما يقول سبحانه وتعالى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥]) إنه مصير يطوى به الله حياة حرمها الظلم من رؤية وسائل الفلاح . وسنن التقدم.. فحكمت على نفسها بالموت..

ولعل هذا كان سبب ذلك السؤال ..الذي وجهه أحد الصحابة إلى الرسول ﷺ : « **أنهلك وفينا الصالحون ؟؟** »

فقال ﷺ : « **نعم .. إذا كثر الخبث** » بمعنى : إذا تحول الظلم إلى طوفان جارف .. لم يجد مقاومة تذكر من أحد .

ومن معانى **ذلك** : أنه لا يكفى لبراءتك من الظلم ألا تكون قد ظلمت.. وإنما لأنك كنت ساكتًا ساكنًا .. حتى استشرى هذا الظلم : فالعقاب مشترك بين الظالمين.. ومن أناخوا لهم ظهورهم .

فى الحديث « من صدقهم بكذبهم فأعانهم على ظلمهم فليس منى . ولست منه » (١).

---

(١) الحسبة ص :٢٤ط ، الشعب .

ومن مقال الدكتور محمد سعاد جلال قال : سئل رسول الله « **أنهلك وفينا الصالحون ؟** » فقال : « **نعم إذا كثر الخبث** » .

والخبث : الفساد .

يظن بعض النـاس ، بناء على أن بقاء الأمم ، وهلاكهـا ، منوط بقدرة الله النافذة فى خلقه أنه يمتنع عن إهلاك الأمة بكـثرة الأتقياء ، والعباد فيها ، وهو ظن خطأ ، ونفاق فكرى ، يتشاغل به العامة ، وبعض المنتسبين للعلم، فإن الله لا يدبر أحوال المجتمعات البشرية بأسلوب العفوية ، والتخليط ، كما يظن هؤلاء ، تجنيًا ، على طبيعة الإسلام المنطقية .

فجـاء الحديـث ردا على هذا الـزعم الذ يمثل جـريمة الكـسل والغـباء ، والتفريط فى حق الـدين ، والمجتمع بالإعراض المتهوس عن مـلكية الوسائل الفعالة علـمية وعملية وأخلاقـية ، لحماية الدولة والملة من غـوائل التخريب والسقوط .

فالخبث يقرر أن انتشار الفساد فى الأمة يؤدى لهلاكها مع وجود الصالحين فيها ، ودعائهم غير المستجاب ، لأن العامل الحاسم ، الذي يقرر بقاء الأمة، إنما هو الـتزام مطابقـة النوامـيس الكونيـة الاجتمـاعية فـى سلوكهـا ، تلك النواميس التى أرسـاها الله فى الكون وجعلها معبـرة عن إرادته فى بقاء الأمم أو هلاكهـا ، فمن التزم السلوك عـلى وفق منطقها فـقد استحق البـقاء ومن ناقض أحكامها بسلوكه من الأمم فقد ضل وهلك لا محالة .

حكمة تحريم الظلم

مقاصد الشرع الضرورية هى :

حفظ الدين . والنفس . والعقل . والنسل . والمال . ولما كان الظلم عدوانًا على هذه الأصول وهدمًا لها . . وكان بالتالى مؤذنًا بخراب العمران وانقطاع النوع البشرى كله . . كان تحريمه قاطعًا .

وفى رأى ابن خلدون أن خطر الظلم يكمن فى أنه ليس من نوع المعاصى التى يسهل على كل واحد ارتكابها كالزنى والسكر فلم يوضع بإزائه من العقوبات كما وضع لهما . .

فلا يقدر عليه إلا من لا يقدر عليه : لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان . فبولغ فى ذمه . وتكرير الوعيد فيه .

عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه فى نفسه . .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] .

ويحكى ابن خلدون اعتراضًا على القول بعدم تحديد عقوبة الظلم بما حدد من جزاء الحرابة .

ثم يرد هذا الاعتراض بما ذكره من أن المحارب قصاراه .

إخافة يتخذها ذريعة لأخذ المال (فلا يوصف بالقدرة) أما الظالم فهو مبسوط اليد بالعدوان بلا دافع .

يقول ابن خلدون : (إن الملك لا يتم إلا بالشريعة . . والقيام لله بطاعته . والتصرف تحت أمره ونهيه .

ولا قوام للشريعة إلا بالملك . .

ولا عز للملك إلا بالرجال .

ولا قوام للرجال إلا بالمال . .

ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة . .

ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل . .

فالعدل ـ هو ـ الميزان المنصوب بين الخليقة :

نصبه الرب وجعل له قيمًا وهو الملك . .

وأنت أيها الملك عمدت !! الضياع فانتزعت من أربابها وعمارها . . وهو أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال . .

وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة . . فتركوا العمارة . . والنظر فى العواقب) .

الشرك أعظم الظلم

لماذا كان الشرك ظلمًا . . ؟ بل كان أعظم صور الظلم ؟

ذلك بأن الشرك بالله سبحانه وتعالى : عبادة لـلفرد . . والحال أن ذلك الفرد :

(١) لا يعلم الغيب

(٢) لا يقدر على العقاب

(٣) وإذن فمنهجه قاصر عن الإصلاح

(٤) ليس مصدرًا لنعمة من النعم التى يتقلب فيها الإنسان .

(٥) إنه ـ أى الشرك ـ جحود فضل الله تعالى على الإنسان . . وهذا موقف سلبى .

ثم معصيته تعالى وهذا موقف إيجابى .

وفى نفس الوقت يبذل ولاء الإنسان لفرد مثله لا فضل له عليه .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] .

ويقول عز وجل : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥] .

وشدة حرص الإسلام على تماسك الأسرة . وترابط المجتمع . . تبدو واضحة فى رفضه معالجة الظلم بظلم مثله !

فالإسلام لم يطلب من الولد مفارقة الوالدين وإلى الأبد . . بل يأمره بحسن صحبتهما . والوفاء لهما .

على أن تكون تبعيته لأهل الحق والعدل ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ .

ومن أجل ذلك .. كان توكيد الإسلام لعقيدة التوحيد أشد من توكيده لوجود الله سبحانه وتعالى .

أولاً : لأن وجود الله عز وجل فطرة تهتف بها أعماق الإنسان من داخله.. وحوله فى مشاهد الكون مايدعم هذه الحقيقة .

وثانيًا : لأن الإيمان بالإله الأحد ألزم من الإيمان بالعقيدة الإلهية على إطلاقها .

لأن الإيمان بأكثر من إله واحد مفسد لفهم الكون ، ومفسد لفهم الضمير ،ومفسد لفهم الواجبات الأدبية والفرائض الدينية ومفسد فى النهاية لعلم الإنسان بحقيقة الإنسان.

ولك أن تتصور أية حياة تلك التى تبدو فى غيبة التوحيد قاعًا صفصفًا . .

وفى ضوء ما تقدم .. ومع التسليم بأن التدين فطرة .. يسهل علينا فهم دوافع الشرك الحقيقية .

وكيف كانت بذور الفساد فى الأرض .. حين يريد المتألهون من البشر العدوان .. فتحملهم إرادة العدوان على فرض سيطرتهم : بين شرير يدمر ما عمرته يد الإنسان ، وشهوانى : يبحث عن لذته بأى طريق وبأى ثمن ؟!!

وإذن : فتوحيد الله . وطاعته تعالى على رأس السنن التى تصل بالطائعين إلى العزة والرخاء .. وهذا ما يؤكده قوله عز وجل فى سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]

فالعمل الصالح : من الذكر والأنثى على سواء .. حين يجىء طبق شريعة الله ومنهجه (وهو مؤمن) يحقق للجماعة فى النهاية ما تصبو إليه من سعادة الأبد .

هذه السعادة التى تظل متجددة الأسباب . مع دوام طاعة الله عز وجل : يقول سبحانه : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ .

وتركز الآيات الكريمة دائمًا على الطاعة سبيلاً إلى الهدى .. ووضوح الرؤية وتحقق الفوز .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] .

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

حتى نزول الملائكة عونًا فى الحرب لا يتم مصادفة بل هو خاضع أيضًا لسنة الله فى الطائعين الصابرين المتقين .

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] .

فليس نزول الملائكة أمرًا غيبيًا بلا ضابط .. بيد أنه خاضع لسنة الله تعالى : فالملائكة تنزل بشرط نزولها : من الصبر والتقوى .. ثم هى تنزل بعدد محدد محكوم بإرادة الحق سبحانه .. لتؤدى أيضًا على أرض المعركة عملاً محددًا .

يقول علماؤنا :

- لابد أولاً من ردم منابع الظلم الآسنة .. فى نفس الإنسان :

(١) ويتم ذلك بالتذكير بالآخرة .. وما فيها من حساب وعقاب

(٢) التركيز على عقيدة التوحيد التى نفر بها من ظلم أرباب متفرقين . . اعتزازًا بعقيدة التوحيد : توحيد الله تعالى . . الذى لا يظلم أحدًا .

يقول عز وجل : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩] .

والمعنى : أننا أرسلنا إليهم رسلاً . . ولم نعاجلهم بعقاب . . فلما رفضوا الحق جاءهم العذاب جزاء وفاقًا .

وما ظلمهم الله . . ولكن كانوا هم الظالمين .

(٣) الأمر بالعدل بمثل قوله عز وجل فى سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] .

ولاحظ من فقه الآية الكريمة مايلى :

فصيغة « فعلان » وهى : الشنآن . . تعبر عن الحركة الزائدة . . ويكون المعنى : حتى إذا بلغت كراهيتهم لقوم درجة التشبع . . فلا يحملكم ذلك على ظلمهم . .

بل . . استمسكوا بقيمة العدل . . ودائمًا . . مهما كانت الظروف . .

ولاحظ من الانصاف أن تضاف مادة « جرم » إلى المؤمنين . . لا إلى غيرهم ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ .

الترغيب فى العدل

(أ) ومن الترغيب فى العدل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

(ب) ومن الترغيب فيه إن الإمام العادل فى ظل عدله يوم القيامة .

(جـ) ونذكر هنا حديث :

« إن المقسطين على منابر من نور » .

والتنفير من الظلم .

ويتم ذلك المعنى بالتنفير من الظلم . . بمثل قوله ﷺ : « **الظلم ظلمات يوم القيامة** » .

والأصل القرآنى هنا قوله عز وجل فى سورة يونس : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤] .

وقوله عز وجل فى سورة هود : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] .

وقد يرخى تعالى لبعض الظالمين من حبال الأمانى . . حتى يأخذهم بقره .

وذلك قوله عز وجل فى سورة الحج : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج: ٤٨] .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩] .

ضمان الاستقرار

وفى غياب الطاعة يكون التسيب ثم الانهيار .. لأن الظالم مستكبر . ومن شأن المتكبر .

أ ـ احتقار الآخرين .. بما فى ذلك : استباحة أعراضهم . والاعتداء عليها .

ب ـ الذعر بكل شاردة وواردة تمس شخصه . ومضاعفة العقاب عليها .

وينعكس على المجتمع كفل من ذلك .. فيترنح .. ثم يسقط فى النهاية على رؤوس الجميع : الظانين . والمظلومين .

وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

أجل : تقع على رأس الظانين : لأنهم ظلموا .

وعلى رأس المظلومين : لأنهم أعانوهم على الظلم .. فكانوا : فى الإثم .. ثم فى الجزاء سواء .

التحذير من الركون إلى الظالمين

إن معايشة الظالمين . والسكوت على جرائمهم يمهد للظلم أن يستشرى؟!

والعدل المطلق : يحكم على الظالم ومن أعانه بنسبة واحدة . . وعلى قدر مالكليهما من دور فى التمكين للفساد .

يقول عز وجل فى هذا المعنى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٤٠] .

وهكذا يحشر الظالمون وأهلوهم . ومعهم معبوداتهم الباطلة : هكذا . . على نحو ساخر بهم: حين يركمهم جميعًا بعضهم فوق بعض . وما فى التعبير بالفعل « اهدوهم » من استهزاءهم .

إنهم عندئذٍ أحوج ما يكونون إلى العزاء . . ولكن . . يجنيهم الاستهزاء مضاعفًا لعذابهم . ثم يقفون جميعًا ليسألوا من ظلمهم . . وتفرق بينهم رهبة الموقف فلا يتناصرون . . كما كانوا فى الدنيا . بل يقفون مستسلمين : يلوم بعضهم بعضًا .

من ملامح المنهج الإسلامى
فى التحذير من الظلم

إنها خطة الإسلام المثلى فى ردع الظالمين حتى يروا أنفسهم ويقفوا على مصيرهم من خلال هذا العرض القرآنى لمصارع الغابرين .. لعلهم يرجعون.. فيتأملون كيف نجا عباد الله المخلصون من هذا المصبير الرهيب ..

وما ذلك إلا لأنهم عبدوا الله الواحد الأحد .. فكان التوحيد صخرة النجاة ..

وعلى قدر ما للظلم من آثار خطيرة فى حياة الفرد والمجتمع . فإن منهج الإصلاح فى الإسلام كان شاملاً .. على نحو ما نفصله فيما يلى :

قام منهج الإصلاح فى الإسلام على أساس :

التخلية .. قبل التحلية..

ومن ثم .. شدد النكير على الشرك كمنبع للظلم .. ثم كان التنفير والتحذير من عاقبة ذلك فى الدنيا والآخرة .. مع التركيز على النهى عن الركون إلى الظالمين .. ويتم منهج الإصلاح بالأمر بالعدل وما يترتب على تحققه من فلاح .. وذلكم هو الإجمال .. وإليكم التفصيل :

التحذير من الظلم

(أ) يقول عز وجل : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [النساء : ١٦٠] .

وإذن فشؤم الظلم لاحق اليهود لما فرطوا فى جنب الله .

(ب) روى الإمام أحمد : (دعوة المظلوم مستجابة . وإن كان فاجراً : ففجوره على نفسه) .

ويعنى ذلك : الحذر من مقارفة الظلم فراراً من عقباه .

﴿ واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ﴾ .

والمعنى :

(أنها ليس لها صارف يصرفها . ولا مانع يمنعها . ونفى المانع من وصول دعوة المظلوم إلى الله كناية عن قبولها وإجابتها) .

أشار ﷺ إلى ديار ثمود . ونهى عن استعمال مياههم . وطرح ما عجن به وإهراقه وقال : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم المقدمة / ف ١٨ فى آثار الدولة .

مع « **الكواكبى** » : وفى التحريض على مقاومة الظلم نقرأ ما كتبه « عبد الرحمن الكواكبى » :

(إن المستبد . يود أن تكون رعيته بقراً تحلب . وكلاباً تتذلل . وتتملق : وعلى الرغبة أن تدرك ذلك : فتعرف مقامها منه .

هل خلقت خادمة له ؟؟

أو هى جاءت به ليخدمها . . فاستخدمها ؟!

والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد : تقول له : لا أريد الشر . . ثم هى مستعدة لأن تتبع القول بالعمل :

فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا . . لم يجرؤ على ظلمه) .

وذلك واحد من دروس « بلال » رضي الله عنه :

إنه بلال « الحبشى » مع سيده القرشى . والذى تفنن فى ظلمه . . فلما رأى منه ثباتًا على الإسلام . . وكلما زاده طغيانًا ازداد إيمانًا . . لما رأى منه ذلك تساهل فيه حتى باعه للصديق رضي الله عنه . . والذى قال الفاروق فيه: أبو بكر سيدنا . . وأعتق سيدنا !!

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٧ ـ ٣٩] .

وإذًا فلم يكن موقف المستضعفين سلبيًّا وحنى الأيدى للغبن سلبيًا فهو فى الواقع موقف إيجابى مكسوب بعمل الإنسان وإلا فقد كان من الممكن أن يكون للأتباع مواقف إيجابية فى حدود إمكاناتهم المتاحة بالمقاطعة الأدبية والإنكار وعدم المجالسة ويمكن أن يكون بالهجرة من هذه الأرض .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[النساء: ٩٧ ـ ٩٩] .

وإذًا فقد أخذت الآيات الكريمة على هؤلاء الناس أن الهجرة كوسيلة للفرار من التبعية كانت أمرًا متاحًا وطواهم فى استغلاله فحق عليهم العذاب

بمثل هذا الأسلوب الوارد فى الآية الكريمة ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ ﴾ أما المستضعفون الذين لم يستطيعوا حيلة ولم يهتـدوا إلى سبيل للفرار فلا لوم عليهم وهم مع ذلك على رجـاء عفو الله تـعالى عذابـه فكيف الحال بمـن مكنته ظـروفه من الهجرة لكـنه خان واستسلم ولا ننسـى أن القرآن الكريم بهذه اللمـحة يعرب عن شدة إنكاره لمعنى التبعية مهمـا كانت الأسباب فقد عذر الرجال والأطفال الذين لا حيلة لهم ولكـن على مضض فليفهم الذين ظلمـوا أنفسهم بالخنوع والاستسلام هذا المعنى جيداً .

وعن سوء المصير المرصود للتابعـين والمستسلمين يقول الله تعالى :﴿ قَـالَ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل:٢٧ ـ ٢٩] .

بل العدل : من شيم النفوس

وهنا سؤال يفرض نفسه .

هل صحيح الظلم من شيم النفوس ؟

أجاب بالإيجاب ذلك الشاعر اليائس القائل :

والظلم من شيم النفوس . . فإن تجد ذا عنة . . فلعله لا يظلم !!

يريد أن يقول : إن الله تعالى خلق الناس ظالمين : ولدتهم أمهاتهم كذلك . .

ولو فرض ورأيت رجلاً عادلا لا يظلم . . فإنه لا يعبر عن فطرته . . وإنما هو لمصلحة شخصية يعدل . . حتى قضيت المصلحة عاد إلى طبعه : إلى الظلم المستقر فى كيانه : وهذا واحد من هذه المدرسة التشاؤمية يقول :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر

وبقيت فى خلف : يزين بعضه بعضًا : ليدفع معور عن معور !!

وهو نفسه المعنى الذي عبر عنه القائل :

(نحن فى زمن : لا يزداد الخير فيه إلا إدبارًا . . والشر . . إلا إقبالاً . . والشيطان فى هلاك الناس إلا طمعًا .

اضرب بطرفك حيث شئت :

هل تنظر إلى فقيرًا يكابد فقرًا ؟ أو غنيًا بدل نعمة الله كفرًا ؟ أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفرًا ؟ أو متمردًا كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقرًا ؟) .

ومن معانى ذلك : أن حلم « المدينة الفاضلة » وهم وخيال . . وضلال من الضلال . . و« أيٌّ » هكذا خلقت كما يقولون . . وليس فى الإمكان أبدع مما كان !! . . وإذن . . فلا داعى للتربية . . ولا إلى الدعوة . . وهو المطلوب !!

رد هذه الدعوى

أولاً : يقول الله عز وجل فى سورة الروم : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] .

يقول المرحوم د. محمد أحمد الغمراوى :

(فالفطرة أولاً مضافة فى الآية إلى الله فاطرها سبحانه . وفى هذا ما فيه من تشريفها . وتوكيد تمامها وكمالها . وتمام الدين المعبر بها عنه وكماله . ثم هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها . .

إن الإسلام كدين يتعلق أول ما يتعلق بفطرة الإنسان نفسه . وبالسنن التى فطر الله الإنسان عليها . والتى لا راحة للإنسان ولا سعادة إلا فى تحقيقها وتطبيقها . كاملة غير منقوصة .

والتعبير فى الآية الكريمة بلفظ « الناس » على الجمع . . بدلاً من لفظ «الإنسان » أصرح وأوضح فى الدلالة على أن الإسلام قد أنزله الله طبق فطرة الإنسان فردًا أوجنسًا . قبائل . وشعوبًا . أفرادًا وجماعات .

والآية الكريمة تجعل الإسلام : ليس فقط دين الفطرة . . ولكن : نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها .) ا.هـ .

ومن معانى ذلك :

(أن الإسلام : دين الله هو والفطرة الإنسانية السليمة شىء واحد . وأن مبادئ الإسلام وأحكامه مطابقة تمامًا لسنن الفطرة .

وأن ما يعتور الناس من عوج إنما هو أمر طارئ راجع إلى الخروج عن التربية الإسلامية الصحيحة . .

ومن عجائب تلك الآية الكريمة ودلائلها الباهرة : وصفها الفطرة بأخص أوصافها وهى : الإطراد . والثبوت وعدم التخلف (لا تبديل لخلق الله) .

وإذن فليس الظلم من جوهر النفس الإنسانية . . وإنما هو طارئ عليها . وعارض من عوارضها .

كانت الدعوى : أن الظلم من شيم النفوس . . كانت لها آصارها :

(أ) فهي دعـوة إلى الظلم . . ورفض قيـمة العدل . . من حـيث إمكان احتجاج الظالم بأنه بدد فطرته .

(ب) ثم إنها تزين الظلم . . وتسهله ليـكون أساس التعامل بين البشر : وفعلاً . . كانت لهذه الدعوى آصارها . . ومنها :

ذلك الشاعر الذى يزهو فخوراً بأنه من قبيلة ظالمة ـ !! ـ

وذلك قوله :

بغاة ظالمين . . وما ظلمنـا ولكنا سنبـدأ ظالمينـــا

ونشرب إن أردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

إنه لا بأس فى مـنطق المغتـرين أن يكون لهـم العجين . . ولسـواهم : الطين !! إنه الظلم . . وليس العدل . . هو عزهم وهو مجدهم . .

ومع أن أحداً لـم يفكر فى ظلمـهم . . لكن احـترامهم لا يفـرض على الآخرين إلا بظلمهم :

هذا الظلم الذى حـاولوا أن يجعلوا منه سنـة اجتماعيـة . . وعليه تدور الحياة. . حتى قالوا : (ومن لا يظلم الناس يظلم) !!

ومن ذلك مـا روى ما أن أعـرابيًّا لعبد الملك لما سألـه عن الحجام فقال مادحًا له . تركته يظلم وحده !! إن العرب مولعـون بالرياسة متنافسون فيها . لا يسلم بها أحد لأحد ولو كان أباه أو أخاه .

وبهذا المقـياس : فالحجاج : مـلك أحد . يظلمك هو وحـده !! وكفاه بذلك شرفًا !!

إن انفراده بالظلم « فضـيلة » يتفرد بها ؟؟!! ومن العار أن يشـاركه فيها عادل !! وعلى هؤلاء جميعًا يرد « كعب بن زهير » و « حسان بن ثابت » رضى الله عنهما .

أما كعب فقال يمدح الأنصار :

لا يفرحون إذا نالت سيوفهم قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا

وأما حسان فقال :

لا فخـر إن هم أصابـوا من عدوهمـو وإن أصيبـوا : فلا حـقد ولا جزع .

إن المعـركة مفـروضة عليـهم . . وإلا فهـم مسالمون . عـادلون . . ولا يريدون ظلم أحد . وكان شعارهم :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخـروا بـزيـد أو تمـيـم



الفصل السادس



الفصل السادس

تمهيد :

بعد الفراغ من تسجيل ما سبق من صفحات حول : الظلم . . والظالمين والمظلومين . . حدث ما لم يكن فى حساب !

فقد تعرض « الكويت » الشقيق لغزو العراق . .

وبعد انحسار المد العراقى : رأيت وسمعت . . وقرأت عن آثار هذا الظلم المبين . . فكان لابد من أن أسجل انطباعاتى . .

وهذه الانطباعات كان قد وافق على نشرها المرحوم الصديق الأستاذ أحمد محمد جمال فى سلسلة « دعوة الحق » بالسعودية . . فلما مات رحمه الله وتغيرت الأمور . . صرف النظر عن نشرها . . ولكنها بقيت راقدة حبيسة الأدراج . . حتى شاء الله تعالى أن ترى النور اليوم . . فقررت نشرها تبصرة وذكرى . .

وقد نختلف . . كما وأننا قد نأتلف . . ولكنه الخلاف الذى لا يفسد للود قضية . .

وعلى أى حال فإن فيها نظرات ربما كانت صائبة فى حينها . .

وصوابها « مع إيقاف التنفيذ » حتى يوافق عليها القارئ العزيز . .

وتبقى دروسها وعبرها فى وعينًا لا تغيب . . مؤكدة ضرورة المحاولة التى بها نقارب ونسدد وقد فعلنا ذلك . . والله المستعان .

من أساليب الطغاة

من رحمة الله تعالى بنا أن هدانا النجدين : طريق الخير وطريق الشر . .

ومن تمام رحمته سبحـانه أن بين لنا ملامح الذين سلكوا هذا أو ذاك . . لتكون لنا فى الأخبار قدوة . . بقدر ما نتقى مسالك الأشرار . .

فللمنافق آيته . . والمؤمنون تعرفهم بسيماهم . .

ولقد كان للطغاة مناهجهم الضالة المضلة . والتى فصلها القرآن تفصيلاً . على قدر مالهم من خطر على مستقبل الإنسان . . حتى تكون الشعوب منهم على حذر .

وفى سورة « طه » . . ذكر الحق سبحانه وتعالى بعض أساليب الطغاة. . ليتجدد وعى الأمة بها . . فراراً من آثـارها المدمرة . . والتى ينطق واقعنا بها اليوم . . وحتى لا تتكرر المأساة . . وبالـذات مأساة انخداع بعض من يتلون آيات الله آناء الليل وأطراف النـهار . . ثم لا يصيخون السمـع إلى ما تنطوى عليـه من تحذير مـن ألاعيب المضلـين . . فيتـلقون بألسـنتهم . . ويقـولون بأفواههم ما ليس لهم به علم : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١٥]

غافلين عن هذه الحقيقة وهى : أنك عـندما تمدح الطاغية القاتل . . ولو بكلمة عابرة . . فقد اشتركت معه فى إثم الدم المسفوح !

بين السياسة الإسلامية والإسلام السياسى

ينزل الماء من السماء رائقًا . سائغًا للشاربين . .

ثم يمضى فى مجراه بحرًا يمنح الناس من لدنه لحمًا طريا . . فيه جزر من اللآلئ .

والمرجان . . متراحب . . مفتوح على كل البحار . .

وبالملح الذائب فيه يصح . . ويبقى شريان الحياة . .

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . .

ثم تحول البحر إلى بحيرة :

لا تتصل بغيرها : تضعف عندها روح التعاون والإيثار . . تتراجع القيم الأصيلة التى كانت تحكم سير الحياة فى عصرها الأول . .

لكنها على أى حال تحتفظ بنصيب من الحياة . . إن لم يكن على مستوى البحر الموار . .

إلا أنها تظل تمد الحياة بنفحات من الخير يستمر بها نهر العطاء دافقًا .

ثم تتحول البحيرة إلى مستنقع آسن !

ومع الأيام : تغير لون البحيرة . . وطعمها وريحها . .

مات فيها السمك . . والطير . . والحيوان . . بل والإنسان . . ثم مات الأمل فى الحياة .

واقعنا المعاصر فى ضوء هذه المخاطر :

عبرت هذه الخواطر أفق خيالى . . وجرائم حاكم العراق تزكم الآفاق برائحة الغدر والنفاق . .

وانتقلت بخيالى إلى أرض العراق . . فى سياحة أنقل خطاى فيها بين

الأطلال .. لأرى كيف كان العراق .. وكيف أصبح ؟

ولم تكن الإجابة شقشقة لسان .. أو مهاترات فى أروقة الحزب الحاكم.. لكنها كانت لقطات من تاريخ العراق .. تحول فيها من البحر .. إلى البحيرة .. ثم إلى المستنقع الآسن على يد صدام حسين ! ..

وهى لقطات لا أهز بها ضمير الحاكم الأوحد ومن احتطب فى حبله .. فلم يترك لهم الغدر ضميراً فيه رمق حياة ..

ولكننى .. من خلال الواقع الصارم أهز بها ضمائر بعض العاملين فى الحقل الإسلامى .. ممن خدعوا بالطاغية ..

وأسجل أولاً أسفى على قلة مسلمة تقع فى الشرك المنصوب ..

وليت شعرى .. إذا لم يفهم بعض المخدوعين هذا الطاغية على حقيقته.. فمن يفهمه إذن ؟ .. الجهال ؟

إن الجهل قد ينهض عذراً ينقذ صاحبه من العقاب أو العتاب ..

بينما يحق العقاب على من يملكون وسائل التمييز .. ومع ذلك يعاندون.. أو يجحدون ..

لقد فهم الفلاح البسيط فى قريتى نوايا صدام حسين منذ اللحظات الأولى . وحكم بأن هذا الرجل : مفتر .. كذاب ..

فهمها الفلاح .. فكيف لم يفهمها أخوه المتعلم ؟

المشكلة إذن ليست مشكلة ذكاء .. ولكنها مشكلة : المرض .. والغرض!

حاكم الكوفة فى العصر الذهبى :

كان سعد بن أبى وقاص واليًا على الكوفة .. فحكم البلاد طبق السياسة الإسلامية .. ونقصد بها السياسة التى يخدم صاحبها الإسلام ولا يستخدمه.

يعيش له . ولا يعيش به .

يموت . . ويبقى الحق مرفوع اللواء .

ونذكر هنا أحد المواقف التى تكشف النقاب عن السياسة الإسلامية الرشيدة التى أسعد الحاكم بها البلاد والعباد [(١)] .

(كان سعد بن أبى وقاص واليًا على الكوفة . فاستدان من بيت المال . وكان خازنه عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما .

فاستقضى عبد الله بن مسعود . . سعدًا . واشتد فى مطالبته . فاستمهله سعد . فلم يقبل . وكان بينهما تلاوم .

فلامهما عثمان ﷺ . لما وصله ذلك وقال لهما :

أنتما أصحاب رسول الله ﷺ . فكيف تتلاحيان هكذا أمام الناس ؟

وعزل سعدًا . وأقر عبد الله بن مسعود على عمله) [(٢)] .

ونتأمل ذلك الموقف فيطالعنا بما يلى :

(١) أن الوالى هنا خال رسول الله ﷺ .

(٢) يعيش ضائقة مالية خانقة .

(٣) فلا يسمح لنفسه أن يأخذ المال غشًّا . أو تحايلاً . . وإنما يطلبه قرضًا مضمون السداد .

(٤) ومع أنه واحد من « النشامى » . . والخيل والليل . . والبيداء تعرفه قائدًا شجاعًا . . ثبت الله تعالى به قواعد الإسلام . . إلا أنه لم يرض لنفسه أن يأخذ من بيت المال عوض ذلك .

---

(١) يراجع : المنهج للدكتور عبد العظيم الديب .

(٢) الطبرى ١/ ٢٨١١ .

(٥) وهو « سعد » السعيد بأنه مستجاب الدعوة . . والتى لم يستغلها ضد ابن مسعود . . وقد رفع يديه إلى السماء وقال .

اللهم رب السموات والأرض . . فقاطعه ابن مسعود قائلا :

ويلك . . قل خيراً ولا تلعن . . من خوفه أن يدعو عليه . .

فقال سعد : أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك !

(٦) ولاحظ ما يجب أن يكون عليه الرجال القياديون من وقار يحفظ الهيبة . . فلا يتنازعون . . ليظل للناس فيهم أسوة حسنة . وحتى لا يبيعوا هيبة السكوت برخيص الكلام !

(٧) ثم كيف أن الحاكم لم يستطع أن يمنح نفسه سلطة النهب من بيت المال . . أو حتى سلطة تأخير يوم سداد القرض .

(٨) وكيف لم يتحرج حاكم الدولة من عزل خال رسول الله ﷺ والإبقاء على المسئول المالى تقديراً لموقفه .

(٩) ويتألق الدرس المفيد هنا . . والذى غاب عن ذهن بعض الحكام اليوم فضاعت أمتنا . .

هذا الدرس هو :كيف تم انفصال السلطة التنفيذية عن السلطة القضائية والتشريعية . فماتت فى أنفس الحكام نوازع الطمع . . فاستقامت أمور الدولة.

وهو عكس ما يحدث اليوم من إحكام القبضة . . قبضة الطغاة الذين يمسكون بزمام السلطات جميعًا . . فضلوا . وأضلوا . .

وكان ما ينطق به الواقع اليوم من دمار . . تلافاه الخليفة المسلم فى هذه الواقعة . . بعزل الوالى سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها . . من كل حاكم يصون . . ولا يبدد . . يستشير . . ولا يستبد [١] . .

(١) راجع : المنهج للدكتور عبد العظيم الديب .

من البحر إلى البحيرة :

على قسوة ما يحفظ التاريخ من ذكريات « الحجاج بن يوسف » .. فقد كان على قساوته يحمل قلب إنسان يخفق أحيانًا لأنات المعذبين !

ولا نحاول هنا الدفاع عن الحجاج ..

لكننا فقط ـ وفى غمرة ما رأينا من جرائم صدام حسين ـ نؤكد للناس أن الحجاج على قسوته كان..

(أ) كان فيه رمق من إيمان أعانه على تطبيق السياسة الإسلامية فور توليه أمور العراق .

(ب) وكانت له مع ذلك نزعته الإنسانية التى كانت تبرق أحيانًا من خلال ممارساته القاسية ..

والهدف من بيان ذلك إثبات أن العراق حتى فى أظلم عصورها كانت أرحم مما يحدث اليوم فى عهد الحاكم المهيب ..

ولقد صار الأمر على ما يقول الشاعر :

رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه !

وإذا لم يكن الحجاج « بحراً » زاخراً بالخير .. فقد كان على الأقل «بحيرة » تربطها بالمحيط العظيم واشجة القربى ..

ونتساءل : من هو الحجاج ؟

كان صاحب « كُتّاب » يحفظ الصبيان القرآن الكريم .

ثم صار جنديًا فى سلاح خدمة الجيش .

وآل أمره أخيرًا ـ فى عهد عبد الملك بن مروان ـ فكان واليًا على العراق .

فماذا فعل ؟

لقد وجد الأقنية (١) قد ردمت . أو طمرت .

فخلت المزارع من فلاحيها . وهجرت القرى . . فصارت قاعًا صفصفًا.

وبدأ الرجل عمله بما يلى :

(١) أعاد بناء البلد .

(٢) حفر الأقنية .

(٣) أمر بإرجاع الفلاحين إلى قراهم .

(٤) جمع الضرائب .

(٥) بدأ يرسل الجيوش للفتح .

(٦) انتشر الأمن . إلى حد كانت المرأة تنام وحيدة فى بيتها . . وبابها مفتوح (تنام فى بيتها . . لا فى الخندق كما يحدث اليوم !)

اختيار قواد الفتح :

إذا كان بعض الحكام متخصصًا فى التخلص من أقربائه بقتلهم . . فقد كان الحجاج يعتمد عليهم فى تنفيذ خطته :

أراد فتح بلاد « السند » (باكستان) . . وكانت الرحلة : بعيدة . . والبلاد كبيرة . . وغنية فى نفس الوقت . . .

فحشد جيشًا من الشباب . . وأمَّر عليهم ابن عمه : محمد بن القاسم الثقفى . وعمره حينئذٍ سبع عشرة سنة (٢) !

سار الجيش من الناشئين . . لكنه كبر فى الطريق . .

وانتصر . . وعند توقيع معاهدة الصلح . قال محمد للمهراجا الكبير .

---

(١) جمع قناة .

(٢) راجع تجديد فى الاسلام . للدكتور عمر فروخ .

املأ لى هذه القاعة ذهبًا !

ثم أرسل هذا المال كله إلى الحجاج !!

فانظر ماذا ترى :

(١) الحاكم يرى طاقة شبابية مهدرة . قد تقتل وقتها السائب بالجدل الفارغ . فيتجه بها إلى التعمير . . لا إلى التدمير .

(٢) يختار لها ابن عمه الشاب . ثقة به . وتعبيراً عن مسئولية الحاكم الذى لا يستبقى أهله فى رفاهية الفنادق . . بينما الكادحون يحترقون فى الخنادق !

(٣) وإذا كانت القاعدة تقول :

آه لو عرف الشباب . . وآه لو قدر المشيب . .

فقد عرف الشباب طريقه إلى العمل . . ومن ورائه قيادة واعية ترتاد به المجاهيل . . وتفسح للدعوة طريقًا عبر الحدود .

(٤) ولقد حقق الشباب النصر . . لا على أمه وأبيه وفصيلته التى تؤويه . . وإنما حقق النصر على التخلف . . والجهل . . فخرجت البلاد به من الظلمات إلى النور . . فدخلت فى دين الله أفواجًا . .

ولقد حقق الشباب النصر بالعمل . . لا بالأمانى . . والشعارات .

(٥) وعاد الشباب بالأجر والغنيمة . .

وكانت الغنيمة ذهبًا غير مسروق ولا منهوب . . وإنما حق مشروع . . يعمر به بيت المال . . وسوف يرتد إلى البلاد الفاتحة . . والمفتوحة . . مشروعات وخدمات تسعد بها البلاد والعباد .

(٦) لقد نجح الحاكم فى تسخير الجندى المسلم إلى ما خلق له وهو : تعمير الأرض . . وحماية العرض . . فتمت الثقة به كمالاً . .

وحين يزرع الحاكم النفوس بالثقة .. فسوف يجنى ولاء الجند الذين يؤثرون أوامره على ملاعب الصبا .. وأمانى الشباب .. وسوف تسعد الأمة بالاثنين معًا !

الحجاج .. الأواه !

أما عن نزعته الإنسانية ـ التى تستحى مما يفعله صدام اليوم ـ فقد كانت واضحة تؤكد بقاء عنصر الخير فى قلب المسلم حتى فى أحلك الظروف :

(أ) أرسل الحجاج « سالم بن عبد الله » لينفذ حكم الإعدام فى رجل قرر قتله .

فلما واجه « سالم » الرجل قال له :

هل صليت الصبح ؟ قال : نعم .

فعاد بسيفه إلى الحجاج .. ورماه بين يديه وقال له :

لقد سألت الرجل هل صليت الصبح .. فقال : نعم .. فلم يكن لى أن أقتله وقد قال رسول الله ﷺ :

« من صلى الصبح فهو فى ذمة الله »

وكيف أجرؤ على قتل رجل هو فى ذمة الله تعالى !!

المهم أن الحجاج .. سكت .. ولم يعاقب سالمًا ..

ومن وراء سكوته إحساس مرهف يقدر سنة رسول الله القاضية بحماية دم رجل صلى الصبح !

(ب) وعندما سأل امرأة منكوبة أن تختار واحدًا فقط من أسرهم : أخاها .. أو ولدها .. أو زوجها ليطلق سراحه قالت : الابن مولود . والزوج موجود .. والأخ مفقود ..

فاختارت الأخ .. فرق لها الحجاج وأطلق سراحهم جميعًا ..

ومن العجيب أنه كان يقول أحيانًا . .اللهم اغفر لى . . فإنهم يزعمون أنك لا تغفرلى !

وبعد :

فقد مات الحجاج . . والزمن يظلل العراق . . وكانت المرأة في عهده تنام وباب دارها مفتوح . . لا تخاف أحدًا إلا الله تعالى . .

ثم كانت ثروته التى خلفها هى :

مصحف . وسيف . وعشرة دراهم فضة !!

من البحيرة إلى البركة الآسنة :

ثم جاء صدام حسين فكان ما كان مما ينطق به الواقع الماثل :

كانت العسكرية المحرومة من جذورها الإنسانية . . فسالت الدماء أنهارًا . . وماتت النخوة العربية فهان العرض . . واغتصبت الأرض . . وصوحت الغصون الزاهرة . . وكانت الديار بلاقع :

تحولت البحيرة . . إلى ماء وطين . . وسموم تقتل الحياة . .

ثم . . وفى ساعة العسرة . . يلجأ المنافق « إلى الإسلام السياسى » كورقة يحسبها رابحة . . ومن وراء ذلك الشعار الخداع مارس الطاغية ما يستحى الشيطان أن يفعله !

وهكذا الطغاة دائمًا :

يتشبثون بشبر من الأرض لا يملكونه . . ولو أضاعوا فى سبيله الحزم . . والمروءة . . والشرف بل والدين أحيانًا .

تعجبت . . حتى كدت لا أتعجب !

ولقد تعجبت حتى كدت لا أتعجب من شرذمة قليلين يسوغون ممارسات الطاغية ؟!

فإذا كان الطاغية منطقيا مع نفسه .. يبذل فطرته الدنسة .. ويمارس هوايته المفضلة فى تدمير الحياة .. فما هو عذر هذه القلة حين تنهض مدافعة عنه ؟ وباسم الإسلام المفترى عليه .

إن هذه القلة تعمل على شاكلتها .

ففى كيانها نوايا العدوان .. وكراهية الحياة .. لكن الفرصة لم تواتها بعد للتنفيس عن هذه النوايا العدوانية .. فلما ناب عنها صدام فأهلك الحرث والنسل .. استراحوا لرجل يحقق مآربهم ..

فاللهم احمنى من أصدقائى ..

أما أعدائى .. فأنا كفيل بهم !!

حكام يقتلون أنفسهم .. وشعوبهم :

لو قتل حاكم العراق نفسه لقلنا : إلى حيث ألقت ..

ولكنه يجر أمته .. بل يجر العالم معه إلى القبر ..

بل إنه وهو يسفك الدماء العربية المسلمة .. يأبى إلا أن يقتلها برصاصة يدفعها الشهيد من ماله .. وقبل أن يموت ..

وكيف كان ذلك ؟

لقد فرض على الأمة الإسلامية أن تحمل السلاح فى مواجهته لتقلم أظفاره .. فى إطار قوله تعالى : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

ومعنى ذلك أن السلاح المرصود لأعدائنا وأعدائه يفرغ الآن فى قلب المسلم .. الذى ينزف دمًا .. لحساب العدو المتربص بنا .. أى أن الرصاصة التى يطلقها صدام .. والرصاصة التى يطلقها المعتدى عليهم .. كلها من بيت مال المسلمين .. وكان الظن أن تسخر لتدعيم الحق . وحماية الدماء

المسلمة أن تراق .. تبعًا لهوى حاكم العراق .

وغدًا .. سوف تحاول كل دولة أن تدخر من المال المعد لشراء رغيف الخبز .. لتشترى به سلاحًا جديدًا من دول لا تضمر لنا الخير .. بل ربما كان ما يحدث بعض مآربها ..

التى نحققها لها طواعية واختيارًا .

وهكذا نبدد أموال المسلمين .. لتصبح غدًا قوة لإسرائيل ومن وراء إسرائيل ..

ولعلك تدرك المأزق العصيب الذى يجعل من الحرب ضرورة .. ويجعل من تبديد أموالنا قدرًا مقدورًا .. هذا المأزق الذى حصرها فيه حاكم العراق:

فلا بد من عودة الكويت إلى أهلها ..

ولابد أيضًا من الحفاظ على العراق الشقيق ..

ولقد بدا من العسير أن توفق أمتنا بين هذين الأمرين .. بعد أن تحدى حاكم العراق إرادة الأمة .. ووقف العقل المسلم موقفًا لا يحسد عليه .. حين مزقته الحيرة .. فى أمر رجل تنازل فى لحظة عن صراع ثمان سنوات من الحرب المدمرة مع إيران .. ثم استعصت الكويت على الحل مع يسرها وسهولتها ؟ ووضوح الصواب فيها ..

أين إذًا حاكم العراق من العدل .. وأين هو من مقومات الزعامة التى يقول عنها الشيخ محمد الغزالى (١) :

(إن إذلال الشعوب جريمة هائلة . وهو فى هذه المرحلة من تاريخ المسلمين عمل لحساب إسرائيل نفسها . فإن الأجيال التى تنشأ فى ظلمات الاستبداد الأعمى . تنشأ عديمة الكرامة . قليلة الغناء . ضعيفة الأخذ والرد.

---

(١) من خطبة له فى جامع عمرو بن العاص بالقاهرة عام ١٩٧٣م .

ومع اختفاء الإيمان المكين . والخلق الوثيق . والشرف الرفيع .

ومع شيوع النفاق . والتملق والدناءة . ومع هوان أصحاب الكفايات . وتبجح الفارغين المتصدرين . . مع هذا كله لا تكون جبهة صلبة . ولا توجد صفوف أبية باسلة .

وهذا هو أمل إسرائيل عندما تقاتل العرب .

لأنها حينئذٍ ستمتد فى فراغ . وتشتبك مع قلوب منخورة . وأفئدة هواء. والواقع أن قيام إسرائيل ونماءها لا يعود إلى بطولة مزعومة لليهود . ولكنه يعود إلى عمى بعض الحكام العرب المرضى بجنون السلطة . وإهانة الجماهير .

لو أنصف اليهود لأقاموا لهؤلاء الحكام تماثيل ترمز إلى ما قدموا لإسرائيل من عون ضخم . ونصر رخيص) .

منطق اليسار :

إنه منطق اليسار المعكوس .

التنادي بالويل والثبور . . لإسرائيل . . وفى نفس الوقت نمكن لها فى الأرض . . بسوء اختيارنا . .

وياللنفاق فى أوضح صوره . . يتولى كبره حاكم العراق اليوم . . ألم تر إلى آية هذا النفاق . . حين تسمع عن الصاروخ العراقى يطلق على تل أبيب اليوم . . وفى نفس الوقت يطلق على السعودية ؟!

وإذا لم تستح فاصنع ما شئت .

نفاق حكام العراق بالوثائق :

كنت ممن دعى إلى المؤتمر الإسلامى العالمى لنصرة العراق . والذى انعقد فى بغداد فى يونية ١٩٩٠ .

وقد استمعت ـ فى صحبة علماء المسلمين على مستوى العالم ـ إلى الرئيس صدام حسين .

يتحدث عن الإسلام وأهمية الالتزام به حديثًا لم نكن نتوقعه .

فقد كنا نتوقع أن نستمع إلى واحد من قادة « البعث » . يدور حديثه حول « القومية » أو « التقدمية » إلى غير ذلك من المصطلحات التقليدية .

إلى جانب حديث عابر عن الإسلام الذي يحتمى به في ورطته . . وليكون ذلك رشوة يقدمها لعلماء المسلمين . . استمالة منه إليهم . . لعله أن يفوز برضاهم .

لكن حديث رئيس العراق كان مفاجأة لنا جميعًا . . حيث توارت اللهجة البعثية .

ووجدنا أنفسنا بين يدى زعيم يحدثنا من خلال عباءة الإسلام حديثًا حمل بعض العلماء على التصريح بأنه الأمل المرتقب . . وإنه زعيم العرب . . بل زعيم المسلمين أيضًا ؟!!

وسوف أترك لوعوده أن تتكلم . . لنرى بعد ذلك هل أنجز الحرُّ ما وعد؟

وأنقل هنا نص حديثه . من واقع البيان الختامى والتوصيات التى أصدرها المؤتمر . . وأنقلها من واقع البيان . . لأن ذلك يعنى تذكير بعض العلماء الذين مازالوا مخدوعين بصدام حسين . . إنهم كانوا شهداء على ما أنقله . . ومن ثم فقد وجب عليهم الالتزام بنتيجة هذه الشهادة وهى :

أن حاكم العراق أخلف الميعاد . . وآثر النفاق شرعة له ومنهاجًا . . جاء فى البيان ما نصه :

(. . واستفتح ـ الرئيس ـ حديثه بقوله « الحمد لله الذي جمعكم على كلمة سواء . لتقدموا ما أنتم مقدمون عليه . بعون الله . مما يفيد الأمة .

ويجمع كلمتها على الحق ليندحر الباطل بعون الله) .

وذكر - حفظه الله - أن العروبة والإسلام حالة واحدة . وإذا ما ضعف العرب ضعف الإسلام . وإذا ما نهض العرب - ولن ينهضوا من غير مفاهيم الإسلام الحنيف - سوف ينهض المسلمون فى كل أرجاء الأرض ويزدادون عزة .

وإن العروبة فى خدمة الإسلام . والأمة العربية جزء من الأمة الإسلامية . وأن من يقول بالتناقض بين العروبة والإسلام فهو لا يعرف من الإسلام شيئًا .

وأن الله سبحانه قد خص العرب فى محكم كتابه الكريم بمسئولية . كحملة رسالة . وخدم للإسلام . وهذا هو مفهوم القومية العربية .

وقرر سيادته أنه (عندما يتعارض أى سلوك تحت عنوان . أو مفهوم الوطنية مع الإسلام يلغى هذا المفهوم . وعندما يتعارض مفهوم الوطنية فى العراق مع المبادئ الإسلامية العليا يلغى . .

تلغى المبادئ المتعارضة مع القيمة العليا . وعندما يتعارض السلوك تحت عنوان سلوك قومى مع المبادئ العليا فى الإسلام . فعلى السلوك القومى هذا أن يعدل ويلغى لصالح القانون الأعلى .

هذا هو فهمنا للعلاقة بين العروبة والإسلام .

وقال أيضًا : وبعون الله . ثم بعونكم سوف نعمل على كل ما يزيد الإسلام والمسلمين عزة . وكل ما يزيد العرب اقتدارًا . ليكونوا فى خدمة الإسلام والمسلمين . وأضاف :

(نحن هنا أيها الأخوة حزب الله . وحزب الله هو أكبر من كل الأحزاب وأقواها) .

ونحن نتساءل :

على فرض أن للعراق حقوقًا تاريخية فى الكويت .. فهل كان ذلك الاجتياح الغاشم .. هو السبيل القاصد لنيل هذه الحقوق ؟ هل هو سبيل الإسلام لفض النزاع ؟ أين المفاوضات ؟ وأين الأخوة العرب القادرون على فض النزاع عن طريق الجامعة العربية ؟

وإذا قرر حاكم العراق فيما نقلناه عنه هنا أنه إذا تعارض السلوك القومى مع السلوك الإسلامى فعلى السلوك القومى أن يلغى لصالح الإسلام ..

إذا كان قرر ذلك وأنتم شاهدون عليه .. فلماذا لم يعدل سلوك الغزو القومى .. إلى غيره من الوسائل السلمية ..

والخطاب هنا للعلماء المخدوعين .. ومن احتطب فى حبلهم .

وهل غزو الكويت مما يزيد الإسلام عزة . والعروبة اقتدارًا كما قال ؟

وإذا كان ذلك الاجتياح أسلوب حزب الله .. فما هو أسلوب حزب الشيطان إذن ؟!

لقد كان بإمكان الرئيس أن يستدعى نفس المؤتمر الإسلامى ليعرض عليه القضية ليحسمها ..

إذا لم يكن يثق بحل عربى .. لكنه لم يفعل .. لأن هدفه السرى .. كان شيئًا آخر ..

لقد كان المسلمون يخوضون الحروب مضطرين .. صادرين فى هذا الاضطرار عن إحساس عميق بكرامة الحياة الإنسانية .. مهما كانت العقيدة..

ولم يكونوا يطلقون الرصاصة الأولى عند المواجهة ..

فإذا غامر الأعداء وبدؤوا الحرب .. حمل المسلمون أول شهيد لهم إلى

أعلى . . بحيث يراه الأعداء يقطر دمًا . . لعلهم يرتدعون فلا يكون قتال . . فإذا لم يرعووا . . حمل المسلمون عليهم حملاً . .

حملوا على من ؟

على الكافرين . . المعتدين . . وليس على الكويتيين المسلمين . . العرب . . كما نفعل اليوم . .

وهكذا يحتفظ الإسلام للأعداء بحقهم فى الحياة . . ثم لا يحتفظ بعض زعمائنا اليوم للمسلم . . أو العربى بحقه في هذه الحياة . .

وتخرج الأسرة الكويتية عبر الحدود . . وفيها النساء والأطفال . . والمرضى . . والزمنى . . بلا تحية وبلا وداع .

العراق وحسن الجوار ! !

وفى كتاب (عصر صدام حسين) كتب طه يس رمضان نائب الرئيس العراقى يقول فى المقدمة « فى ١/١/١٩٨٨ » :

(حرص العراق على إقامة أفضل العلاقات مع الدول المجاورة . وتجنب قدر الإمكان إضعاف هذه العلاقات . خصوصًا وأنها علاقات تاريخية . عززها الدين الإسلامى الحنيف .

ولهذا ثبت الإعلان القومى للسيد الرئيس القائد صدام حسين فى بند خاص تحريم استخدام القوة المسلحة فى أى نزاع مع هذه الدول .

فالشعب العراقى اعتبر حسن الجوار سندًا له . فى نضاله ضد الإمبريالية والصهيونية .

خصوصًا وأن اغتصاب فلسطين العربية والقدس الشريف أولى القبلتين وثالث الحرمين . وتحريرها ليست مسئولية الأمة العربية فحسب . بل هى مسئولية كل المسلمين . فى العالم . ولو التزمت الأقطار العربية ببنود الإعلان

القومى الذى أصدره السيد القائد المهيب الركن صدام حسين فى ٨ شباط سنة ١٩٨٠ لما اجتاحت قوات العدو الصهيونى الأراضى اللبنانية . دون أن تواجه بمقاومة عربية موحدة . ولما تجرأ عـدد من دول أمريكا اللاتينية على الاعتراف بالقدس عاصمة للعدو الصهيونى الغاصب . ونقلت سفارتها إليها .

والدليل على هذا : أنه لم يحصل قطر محارب على التأييد الدولى مثلما حقق العراق طيلة سنوات الحرب المفروضة عليه من إيران) .

وهكذا . . شهد شاهد من بنى إسرائيل على أهله !

لقد قرر نائب الرئيس العراقى حـرص دولته على حسن الجوار . . التزامًا بالدين الحنيف . . وليس فقط من منطـلق قومى وطنى . . مما يجعل الالتزام هنـا حتـميًّا . . بل إن الرئيس العراقى نفسه أعـلن تحريم استخدام القوة فى حل أى نزاع . . وعلل حـسن الجوار . . باعتبار الدول المجـاورة سندًا له فى نضاله ضد الإمبريالية والصهيونية .

وقد نعى عـلى الأمة العربيـة عدم التزامهـا بهذا الإعلان مما ترتـب عليه احتلال فلسطين . . فهل وفى صدام بوعده ؟

إن الواقع هنا أعلى صوتًا ولا نحتاج فى تقرير الحق إلى تعليق .

حكم الشرع :

ونوجه الحديث إلى المخدوعين :

من السهل أن نتعلم الأحاديث . . ولكن الصعب أن نتعلم منها ؟!

فأين حديث رسول الله ﷺ . . والذى نحتكم إليه . . لنتعلم منه كيف نحكم على الناس والأحداث ؟ :

عن أبى هريرة رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : « **آية المنافق ثلاث : إذا**

حدث كذب . وإذا وعد أخلف . وإذا ائتمن خان » [١] .

ولقد حدث حاكم العراق . . ووعد . . وائتمن . .

ثم كذب . . وأخلف موعده . . وخان الأمة !

وهكذا تقول النصوص التى نقلناها آنفًا .

ومع وضوح الحقيقة . . إلا أن هناك بعض المخدوعين أو المأجورين من أبواق الدعاية يفترون على الكذب . . وقد يرمون المؤمنين بدائهم ثم ينسلون!

يحجبون الشمس ولكن لن يطفئوها :

وقد نبه طبيب النفوس ﷺ إلى ما يملكه الخداعون من منطق خلاب . يحاول حجب الحقيقة . . والتمكين للباطل فى محاولة لإظهاره . .

ولذلك قال ﷺ فى رواية أخرى . . بعد ما بين علامات المنافق الآنفة الذكر قال : (وإن صام . وصلى . وزعم أنه مسلم) .

يعنى هو منافق . . وإن كان عليم اللسان . فصيح البيان . .

وإن غير « علم البلاد » فأضاف إليه شعار الإسلام « الله أكبر » ذلك بأن الغيوم الإعلامية قد تحجب الشمس يومًا . . لكنها أبدًا لن تطفئها . .

وقد يخدع علماء أمام هذا البريق الخداع . .

وحينئذ تصبح الهموم كبيرة . . لكننا ـ وفى ضوء بيان رسول الله ـ نتغلب عليها باستنشاق الأمل . . كالطائر الذى قد ينقر الصخرة الصماء . . غير يائس . . فلعله أن يجد طعامه !

من خداع الإعلام :

هذا المنافق الذى يتخذ من الصلاة والصيام سترًا يحجب الوحش الكامن

---

(١) متفق عليه .

فى قلبه .. لن يدوم خداعه طويلاً ..

وأذكر هنا أن بعض مَنْ أثق بهم من علماء المسلمين حدثنى ونحن فى مؤتمر ببغداد أن الرئيس العراقى يقود المجموعة الإسلامية المستكنة في قلب البعث العراقى .

وتأمل كيف يلطف الكيد ويدق حتى على فهم أكابر العلماء !!

فلقد أكد غزو العراق أنه لم يكن هناك اتجاه إسلامى داخل البعث .. ولا يحزنون .. والصحيح أنه كان هناك جنين يتخلق في كيان هذا البعث .. صار من بعد مجنونًا فى بيت من زجاج !!

ولقد استمعت فى إذاعة عربية إلى زميل يقول :

من المؤسف أن أمتنا الآن تتعرض لهجمات من أناس يجتمعون على تدمير كل ما هو عربى وإسلامى .

ثم يذكر متباكيًا وصية أبى بكر ﷺ لشرحبيل بن حسنة فاتح الأردن . والتى قال فيها :

(لا تقتلوا امرأة ولا صبيًا ولا شيخًا . ولا تقطعوا شجرًا ..

وكيف أن أمريكا اليوم تقطع وتدمر ..

ونسى أن أمريكا كافرة .. وليس بعد الكفر ذنب !

أما حاكم العراق فمسلم .. ومع ذلك .. قتل الأطفال .. وخرب الديار ..

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وما يقوله الزميل صحيح .. وأصح منه أن يذكر الحلقة التى يغفلها عمدًا .. وهى أن صدام حسين متخصص فى تدمير كل ما هو عربى وإسلامى !

والذيـن يواجهـهم صـدام اليوم مـن الكفـار الذين جلـبهم إلـينا بسـوء اختياره.. يواجهـهم بأسلحة من عندهم مدفوعة الثـمن إليهم .. وهو يدمر بها أسلحة مجلوبة أيضًا من عندهم .. ونتيجة هذا الخراب .. ذلك النزيف من عملتنا الصعبة والسهلة . والذى يستفيد منه الكفرة المارقون !

وأذكر المتباكـين هنا .. بموقف ذلك الإمام الذى استأثر بمـسجد معين لا يخطب فيه سواه ..

فلما ضمـته الدولة إلى الأوقاف .. ذرف الدمع السخـين أسفًا .. على الحرية المهيضة ..

ونسى أنه صانع هذه النهاية بمنعه أشياخه من العلماء من دخوله ..

وإذن فموقف الدولة أعـون على أمر الله من استبداده هو .. إنـها قصة القشة التى يراها المغرور فى عيون الآخـرين .. ثم لا يرى الخشبة الممتدة فى عينه هو !!

ومـا أحوجنـا إلى النظـرة الموضوعـية الـشاملـة .. فرارًا من الأحـكام المبتسرة.

من ملامح المنهج الإسلامى فى مقاومة الظلم :

من أسباب كراهية الحق. وتدمير الحياة: الحسد .. والعجز .. والجهل.

فالحـسد : هو أكبر آفة فى تسمم منابـع الحب والمودة ـ كما يقرر البصراء بطبائع النفوس ـ ولقد كان ظـهورها من إبليس اللعين لآدم أول الخلق ، كان نذيرًا لنا حتى نعتبر .

فالحسد داء عياء . وهو أول معصـية ارتكبت على ظهر الأرض حين قبل قربان هابيل . لأنه انتقى شاة سمينة جميلة وقدمها قربانًا لله تعالى .

أما قابيل : فاختار حزمة من القش !! ومن ثم لم يتقبلْ الله تعالى قربانه.

واختمرت فى قلبه رغبة العدوان وبدل أن يصحح موقفه .. انطلق مع هواه فلم يسدد رأيه بالتأنى ، ولا عقيدته بالسلامة . ولا ضميره باليقظة. ولا باطنه بالإخلاص .. فقتل أخاه .

فلم يترك الحسد له عقلاً يفكر به .. ولا قلبًا يحب .. ولا إرادة تحسم وتنفذ . وكان جزاؤه أن عاد ضرر الحسد عليه هو أولاً .. وقبل المحسود . ولك أن تتصور هذا الحسد إذا علمت بالمعركة الناشبة فى كيانه كلما أنعم الله على غريمه بنعمة .

فهو مسلط نفسيًّا .. وعمليًّا على هدم كل كمال . وتشويه كل جمال . أى أن الجمال والجلال .. وهما الباعثان على التمدن .. يصبحان فى منهج الطغاة الحاسدين من عوامل الهدم فتنعكس الآية .

أما العجز : فإن الحاسدين يفقدون القدرة الذهنية والنفسية على الأعمال النافعة . ثم يعجزون فى نفس الوقت على ضبط نوازعهم المهتاجة المغتاظة ، وعندئذ : يهرعون فيخربون كل شىء ، كعاصفة هوجاء : لا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .. ذلك بأن الشىء القوى يفضح ضعفهم . والشىء الجميل يظهر قبحهم . والشىء الكبير يكشف ضآلتهم .

ومن ثم فالجمال ، والقوة ، والنظام .. عدو الحاسد الحقيقى ، عدوه الذى يتحداه ..

ولذلك يحاول الحساد هدم كل جميل وقوى لأن فى هدمه كما يزعمون حفظًا لحياتهم . فهى إذن عملية تعويض نفسية ، تزين لهم من الداخل أنهم صاروا أندادًا للعظمة التى يريدون تشويهها . وبدل أن ينظروا ، ويتفكروا ، ويمضوا فى طريق العاملين يشدون من أزرهم ، وينسجون على منوالهم ، نراهم يواصلون عملية الهدم .. هدم حياة الذين أغنوا الحياة ، وأعلوا شأن الإنسانية فيها . فإذا سألت الواقع اليوم عن سر تشويه الجمال ، وهدم

الكمال على أرضنا المسلمة ففتش عن العلة الدقيقة خلف الضلوع . .

وقل معى : إن أسوأ من المخربين ، من يصفقون لهم !!

إنهم مثلهم مخربون ، لكنهم لا يقدرون . . ولو قدروا لساروا على دربهم !!

عقوبات الحاسد :

وبعد فقد قالوا :

يصل الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود :

(١) غم لا ينقطع .

(٢) مصيبة لا يؤجر عليها .

(٣) مذمة لا يحمد عليها .

(٤) سخط الله تعالى .

(٥) يغلق عليه باب التوفيق .

وهكذا : وفى غفلة الزمن يظهر الطاغية على المسرح ، ثم يحاول تهيئة البيئة التى يعيش فيها .

يفسد العقول التى تسلط الأضواء على ممارساته الكاذبة الخاطئة . ويعكر صفو القلوب بما يثيره من فتن كقطع الليل ، تلبس الناس شيعًا ، ويذوق بعضهم بأس بعض .

ثم تطيش سهام الإرادة ، وتتعثر الأقدام على الطريق . فى ظل سياسة القهر وفرض الرأى الواحد ويتفرد الطاغية بالساحة وحده .

هو الذى يفكر ويقرر . . بينما القطيع يبرر . . ويحرق البخور !

والنتيجة .

لا يبقى للظالم إلا جاهل يمجده بل ويعبده ومتملق يغضب الله تعالى فى رضاه .. ويصبح الناس حوله كما قيل بحق : كبقر الجنة : لا ينطحون ولا يرمحون !!

وهكذا تنتهى حياة الأمة حين يتراجع المخلصون ، ويتصدر المتملقون . وماذا يبقى من أمة تجمدت عقولها ؟ وفسدت قلوبها ؟ وخدرت إرادتها ؟

وهو بعض ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ [الكهف : ٥٩] .

ذلك كان هلاك الظالمين نعمة واجبة الشكر : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

ذلك بأن هلاك الظالمين يعنى عودة الحياة إلى الأمة من جديد . وتتراجع معانى الخوف . والطمع . والغفلة . فى ضوء اليقظة الجديدة .. لتتقدم الطلائع المخلصة ، تنير العقول بعد أن حاول الظالم إطفاء شعلة الحق فيها .

إذن فالظالم يمضى فى الاتجاه المعاكس للحياة . وقد يبلغ به الإفساد حدًّا يجعل النفاق والرياء شعارًا مألوفًا لدى جمهرة الدائرين فى أفقه . بل قد تتعود الأمة الانحطاط . وتستمرئ أخلاق العبيد ، حتى إن المصلحين ليدعونها إلى الترقى فلا تزيدها الدعوة إلا إلى مزيد من التسفل من طول ما تعودت !

وإذا ظن الطاغية يومًا أنه فاز بتحقيق ما يؤمله ، فإن ذلك الظن لن يطول وسوف يسقط مع الضحايا الذين خدعوا به .. وسوف تطفو الحقيقة على السطح ، تلك الحقيقة التى حاول إخفاءها بين طوفان شائعات أطلقها طابوره الخامس ، والحقيقة هى ما قررته الآية الكريمة : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

فالمفروض : أن بتناسق العمل البشرى ، مع قوانين الكون التى صاغتها يد

القدرة الإلهية .

وأن يسير العمل على وفقها فى عالم المادة ، وعالم الفكر . ولكن الظالم أفسد هذا التناسق بتصرفاته المخلة به ، بالظلم والجهل . فهو نشاز فى لحن متناسق . وإذن . . فلن يدوم .

أما الدائم فهو : عمل المصلحين الطائعين المنسجمين بطاعتهم مع الكون المسبح الساجد العابد !

وإذا طالت دولة الظلم ، فلا يعنى ذلك سلامة بنيتها ، وإنما تعنى غفلة أصحاب الحق ، والذين يجب عليهم أن ينهضوا لإحقاق الحق وإبطال الباطل من جديد .

منهج الإسلام فى محاربة الظلم :

حرص الإسلام على حفظ كرامة الإنسان حين أقام حياته على قواعد الصدق ، والوفاء والأمانة . وفى سبيل التمكين لهذه الفضائل نراه أشد حرصًا على تطهير المجتمع من النماذج الرديئة التى تفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، فتشوه وجه الصدق بالكذب وتشوه معنى الوفاء بالغدر ، وتقوض الأمانة بالخيانة .

أجل ، كان للإسلام منهجه الرشيد الذى يحبط به مفعول هذه الألغام المنبثة فى بيئة خلقها الله تعالى طاهرة نقية . وقد حرص الإسلام على مقاومة الظلم بوسائل منها :

(أ) ترهيب الظالمين بسوء الحال والمآل .

(ب) تحذير المؤمنين حتى لا يمكنوا لظالم أن يقوم بينهم .

(جـ) تنبيه المظلوم ليغير واقعه حتى يغير الله ما به .

(د) التحذير من مصاحبة الظالمين .

ترهيب الظالمين :

يقول ابن القيم فى بدائع الفوائد ترهيبًا للظالمين : (أتراهم نسوا الليالى لمن تقدمهم . وما بلغوا معشار ما أتيناهم فما هذا الاغترار . وقد خلت من قبلهم المثلات . فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ من لهم إذا طلبوا العودة فحيل بينهم وبين ما يشتهون؟

سبحان الله ! كم بكت فى تنعم الظالم عين أرملة ، واحترقت كبد يتيم، وجرت دمعة مسكين !

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ . ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ .

ما أبيض من رغيفهم حتى اسود لون ضعيفهم وما سمنت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه .

أيها الظالم : لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك :

ويحك : نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت .

وقوسه : قلبه المجروح . ووتره : سواد الليل .

وأستاذه : صاحب : « لأنصرنك ولو بعد حين » وقد رأيت . . . ولكن لست تعتبر .

احذر عداوة من ينام وطرفه باك . يقلب وجهه في السماء . يرمى سهامًا مالها غرض سوى الإحشاء منك . فربما ـ ولعلها إذا كانت راحة اللذة تثمر ثمر العقوبة لم يحسن تناولها ـ ما تساوى لذة سنة غم ساعة . . فكيف والأمر بالعكس . كم فى يم الغرور من تمساح ، فاحذر يا غائص . . ستعلم أيها الغريم قصتك . . عند تعلق الغريم بك .

إذا التقى كل ذى دين وما طله ستعلم ليلى أى دين تداينت

تحذير المؤمنين :

وقد حذر الرسول ﷺ أمة الإسلام من التمكين للطغاة وللمنافقين بالمدح الكاذب وذلك قوله : (لا تقولوا للمنافق « سيد » فإنه إن يك سيدًا ـ فقد أسخطتم ربكم عز وجل) .

وهو تحذير للأمة الإسلامية حتى لا تنتخب ، ولا تجامل هؤلاء المنافقين الانتهازيين . . الذين يتاجرون بالمبادئ والشعارات ، بل يتاجرون بحياة الناس . . وإلا فإن مدح المنافق أو الفاسق يعنى أن المادح يحب أن يعصى الله فى أرضه . والجماعة التى تنبت فيها تلك النابتة ، أشد من المنافق نفاقًا . وأحرى بأشد العذاب ، كفاء ما مكنت له ، ولفكره من اجتياح كرامة الأمة . وعندئذ سوف يعزل الأخيار الأطهار ، ليصبح المجتمع فى يد قلة تسوقه إلى الدمار وإذا كان الطاغية منطقيًّا مع نفسه ، حين يركب رأسه ماضيًا إلى حتفه ، فلا عذر للعقلاء الذين يسوغون رأيه . ويزينون له عمله فى الوقت الذى يقودهم معه إلى الجحيم .

تنبيه المظلوم :

نبه ابن القيم رحمه الله تعالى كل مظلوم أن يراجع حساب ربحه وخسارته ، لعله يتلاقى ما بسببه وقع عليه الظلم . قال :

وأنت أيها المظلوم :

فتذكر أين أتيت . فإنك لا تلقى كذرًا إلا من طريق جناية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ . ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ .

كان لبان يشوب الماء باللبن . فجاء سيل فذهب بالغنم فجعل يبكى . فهتف به هاتف :

اجتمعت تلك القطرات . فصارت سيلاً . ولسان الجزاء يناديه : يداك

أوكتـا . وفوك نفح اذكر غـفلتك عن الأمـر . ولا تنس إطراح التقـوى عند معاملة الخلق . فإذا انقض غاصب فسمعت سوطه يضرب عقد المكسب جزاء لخيانته العقود . فلا تستعظم ذاك . فأنت الجانى والبادى أظلم .

وإلى جانـب ذلك حرص الفكر الإسـلامى على استـحياء شعـور المؤمن بكرامته فـى مواجهة الطغاة ، ليظل ذلـك الإحساس سوراً مانعًا فلا يـستباح الحمى .

شكا صـديق لصديقه جـور السلطان فقـال له : إذا كان الملوك يعـتزون بجنودهم . فاعـتز أنت بمن بيده ناصية هؤلاء المـلوك وجنودهم . وإذا كانوا ينامون فى حراسه الجند فنم أنت فى حـراسة مَنْ لا ينام سبحانه ، وإذا كانوا يغالبونك بدنياهم فاغلبهم أنت بدينك .

التحذير من مصاحبة المسلمين :

للبـيئة أثـرها فى تكوين الإنـسان ، لا سيـما فى باكـورة حياتـه . وقد يستحوذ صـبى حدث على مجموعـة من الصبيان يأمرهم وينـهاهم ، بحيث يصير هو الفاعل ، وهم ردود فعله . . فماذا يحدث ؟ . يأخذ الأتباع وضع الاستعداد للتلقى ، ثم التنفيذ وبلا مناقشة ، بينما ينتفخ المتبوع ، ومع الأيام يزداد عتوًّا حين يضيف نصيبهم مِن الحرية إلى حسابه هو . .

وتسفر التجربة عن وضع نفسى متـدهور لدى المتبوعين ، وتكون النتيجة فشل التجربة ، التى لا تتم إلا برجال أحرار . . أما هؤلاء الأتباع فقد صاروا أصفارًا !

وفى أمريكا . . أرادوا أن يصلوا إلى قرار بشأن الوضع النفسى المشتق من موقع الإنسان الاجتماعى فوضعوا مجموعة من الشباب فى السجون ثم نصبوا عليـهم حـراسًا من الخـارج ، فكانـت النتـيجـة أن آل أمر المسـجونـين إلى الإحساس بالذلة والمسكنة والخنوع . . بينما أحس السجانون بالكبر والقسوة .

وانتهت التجربة مؤكدة أثر البيئة البارز فى أخذ الإنسان بعوائد الخير أو الشر .

ونقرأ فى السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ لما مر بالحجر من ديار ثمود قال : «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم . إلا أن تكونوا باكين**» .

وقد علق الدكتور محمد سعاد جلال بما ملخصه :

لا تصاحب الظالمين . . لماذا ؟

(أ) لأن مصاحبتهم إيناس لهم .

(ب) وبالتالى فهى تشجيع لهم على المضى فى مسلسل الظلم .

(جـ) وربما أصابتهم قارعة . . فنالك منها شظايا !

(د) وأخطر ذلك كله .

إن مساكنهم مطبوعة بطابع اللعنة والشؤم . والمؤمن مطالب بالتجافى عن مساقط الغضب .

(هـ) ربما مر بديارهم مغرور يشعر بأنه أقوى منهم ، فيزين له ذلك مزيدًا من الغرور وقربًا من الهلاك .

(و) وربما كان الداخل ضعيفًا . فيتحسر عليهم . ويحزن لما أصابهم إعجابًا بهم . فيقع فى مثل لعنتهم .

أما الذين يمرون عليها فى خشوع ووجل واعتبار . . فهم بنجوة مما أصابهم . وقد كان سلفنا الصالح على وعى بهذه الحقيقة . . فكان الواحد منهم يباعد بينه وبين الحكام ، تاركًا طلاب الدنيا حاشية لهم . فلما سئل فى ذلك قال :

إن حاشية الحاكم سوف يصيبها كفل من دنياه التى لا تسلم من الجور . . أما أنا فأرسل إليه النصيحة من بعيد . . حذر أن يصيبنى كفل من شرره

المتطاير . ومن هذه النصائح ما قاله أحدهم :

ركوبك النعش ينسيك الركوب على   ما كنت تركب من بغل ومن فرس

يوم القيامة : لا مال ولا ولـــــد   وضمة القبر تنسى ليلة العـــرس

الناحية الإيجابية فى مقاومة الظلم :

كانت قاعدة الشورى هى الصخرة العاصمة من طوفان الظلم والتفرد باتخاذ القرار . ومبدأ الشورى قديم قدم الحياة نفسها .

يقول الله تعالى بشأن « بلقيس » ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل:٣٢] فالمرأة هنا فى مركز القوة . وقادرة على اتخاذ القرار بحكم مسؤليتها . لكنها لم تفعل حتى تأخذ رأى أهل الحل والعقد من قومها .

وحين جاء الإسلام كانت الشورى أساس الحكم (١). فمع أن الرسول ﷺ مؤيد بالوحى من ربه . إلا أنه كان يأخذ رأى أصحابه فيما يعترض من أمور.

وقد حققت هذه السياسة الحكيمة أهدافها والتى تتلخص فيما يلى :

١ـ صارت الشورى مبدأ مهما . وقاعدة راسخة من قواعد الحكم فى الإسلام . حالت دون وجود أفراد متسلطين . وطغاة متجبرين . ومنعت حزباً معينًا أن يستأثر بالرأى وحده .

٢ـ طابت نفوس الصحابة الكرام لهذا التقدير من قبله ﷺ . وأحسوا بالرحمة المهداة تشملهم بهذا الاحترام لآرائهم .

٣ ـ تجلية الحق الذى يظهر بوضوح فى ضوء العقول الكثيرة الباحثة عنه . حتى إذا خطت الأمة خطوها كانت عارفة بما يسفر عنه المستقبل . . فلا تخبط

(١) راجع : الحرية فى الإسلام للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين .

خبط عشواء .

٤ ـ صار مبدأ الشورى أرضًا خصبة تنبت فيها الحرية وتثمر .

مع ملاحظة أن الشورى لا تأخذ طابعها الإسلامى حتى تكون نابعة من عاطفة الرحمة بالأمة .. والحرص على حياتها .. لا مجرد الحرص على أخذ الآراء .. ثم نبذها ليتفرد الحاكم بالقرار .

وقد شاور النبى ﷺ أصحابه يوم أحد . فى المقام والخروج . فلما رأوا الخروج ـ وافقهم على ذلك .

وقبل ذلك شاورهم فى شأن الأسرى . وذلك فى غزوة بدر الكبرى . وشاور أيضاً علياً وأسامة بن زيد فيما رمى به أهل الإفك عائشة رضى الله عنها . فسمع منهم حتى نزل القرآن فجلد الرامين .

وجاءت الأئمة بعد رسول الله ﷺ فكانوا يستشيرون الأكفاء من أهل العلم فى الأمور المباحة . اقتداء بالنبى ﷺ .

وعندما تتم المشاورة تأتى العزيمة التى لا تتردد . والتى تتخذ القرار فى اللحظة المناسبة . وهى مطمئنة واثقة متوكلة على الله سبحانه وتعالى والذى يوفق الجماعة من أهل الشورى إلى ما فيه الخير والسداد .

من سمات مجتمع الشورى :

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦ـ ٣٩] .

تشير الآيات الكريمة إلى طبيعة الإنسان التى تتردد بين طاعة الله تعالى . وبين التأثر بالنوازع الإنسانية .

فبينما تـذكر الآية الأولى كيف أن المؤمنين متوكلـون على ربهم دائمًا . . تذكر الآية التالية ما يعتريهم من ضعف بشرى قد يقترب بهم من الإثم يومًا. لكنهم سرعان ما يفلتون من جاذبيته .

وإذا كانت الصلاة عـماد الدين . . وكان الإنفاق دعمًا للأمـة الإسلامية فى مـواجهـة أعدائهـا . . فإن الشـورى تقف بين هـاتين الفريـضتين تـؤكد أهميتها. وضرورة الأخذ بها .

فالغـضب انفعـال إنسانى محـتمل فى كل تـعامل . . والظلم مـن شيم النفوس النزاعة إلى أخذ ما ليس لها .

ومن هنا يقـع الصراع بين الحق والباطـل . . وحينئذٍ يجـب الرجوع إلى الشرع ليـحسم الخلاف . كمـا يجب الالتجـاء إلى الشورى التى تتـضح بها الأمور . . وينتزع فى ظلها الحق من الآراء المختلفة .

فإذا وضح الحق بالشورى كان لا بد من اتباعه .

وقد كان الأنصار مـثلاً أعلى فى الأخذ بالشورى التى كـانت سمة بارزة فى حياتهم . وقـيل : إن قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ نزلـت فى شأنهم .

قال المفسرون : (قيل نزلـت فى الأنصار : دعاهم النبى ﷺ فاستجابوا له) .

واسـتقـراء أحوال الأمـة الإسلامـية يؤكـد أهمـية الشـورى فى النـظام الإسلامى:

ففى العـصور التى تناصـحت فيهـا الأمة . . وفتحت الأبـواب لمختلف الآراء أن تتحاور فـى النور . . تبينت الأمة عـيوبها . . فتخلـصت منها . . واستأنفـت حياتها نظيـفة قوية . . وفى العصـور التى مارس فيها الاسـتبداد

وجوده . . ركبه الغرور . . ولم يفطن إلى الهـوة التى سيقع فيها . . ومضى معصوب العين مع الأمة المظلومة إلى العاقبة الوخيمة . . وتلك حقيقة تاريخية لا ينكرها إلا مكابر . . وهى التى تفرض على أمة الإسلام أن تجعل من الشورى دستور حياتها . . حتى تأخذ مكانها تحت الشمس .

من توجيهات الإسلام فى الحفاظ على كرامة الإنسان :

كانت الأوامر الصادرة إلى جنود العراق أن يخطفوا ما أمكن من المدنيين ثم إيداعهم سجون العراق . وكان الجنود ـ وبطريقة عشوائية ـ يقتحمون البيوت . . ثم يسوقون أمامهم رجل البيت . . أو ولده إن لم يكن موجودا .

وقلت لبعض المخدوعين : هل سمعت بهذا النبأ الذى تواتر حتى صار معلومًا بالضرورة ؟ وبعد هذا هل عرفت حكم الإسلام فيه ؟

قال ﷺ : « **من أطلع فى بيت قوم بغير اذنهم . فقد حل لهم أن يفقأوا عينه** » .

إن المتجسس : يكشف أسرار الناس . . ومن ثم فهو يؤذيهم . . ومن ثم : يكرهونه . . ثم يتربصون به . .

وقد أحل لهم الإسلام المعاملة بالمثل قصاصًا . . فحياة الإنسان الخاصة مكفولة . وللمنازل حرمتها . . وتأمل رحمة الإسلام فى العقاب فلم يقل : عينيه وإنما عين واحدة . . وليس ذلك واجبًا . . وإنما فقط : يحل . . ولعل ذلك يردع الظالم ابتداء فيستحيى من المعصية !

والغريب أن يسأل صاحبى عن حكم الاستعانة بالأجنبى ثم يسكت سكوتا مريبًا عن حكم هذا الذى لم يطلع فى بيت القوم فقط . . ولكنه اقتحم المخادع . . وعاث فيها فسادًا . . وهو بهذا ينتهك حق الكويت :

١ ـ الجار .

٢ ـ العربى .

٣ ـ المسلم .

٤ـ والذى أعطى وما أكدى .. فكان شكر جميله .. العدوان !

قال (.. لهم..) للأعداء ولم يقل اعدوا السلاح للمسلمين . ولكن بعض المخدوعين يمضون فى الطريق المعاكس .. ولا حرمة عندهم للدماء .. بل ربما كانت رؤية الدم المسفوح بعض أمانيهم !!

ونذكر هنا أن الحق سبحانه وتعالى عندما حذر فى كتابه الكريم من التشبه بالكافرين والمنافقين .. كان يردع المؤمن حتى لا تزل قدمه فتنزلق إلى مثل عمل هؤلاء الماكرين .. ولقد دهمتنا الأيام النكدة بمن سار على دربهم .. وأحيا ما خفى من جرائمهم : كان القانون الإنجليزى حتى القرن الماضى يبيح بيع الزوجات .

ومع ذلك فالغربى يستسمح جاره المقابل فى اللون الذى يرضيه من نافذته حتى لا يصدم بلون لا يحبه ؟!

يحافظون على الألوان .. ويستبيحون النسوان !!

إنها الحضارة التى تجعل على وجهها غلالة رقيقة .. تستر الوحش الكامن فى الأعماق ! ولقد منع الإسلام الاختطاف . بل اعتبره جريمة منكرة. وكان الاختطاف أساس الاستعباد .

وظلت أوربا تمارسه حتى القرن التاسع عشر .

وكان لملكة إنجلترا « اليزابث » سفينة اسمها « يسوع » تشتغل بخطف من يصيرون عبيداً . فى غرب أفريقيا : خطفت الأحرار .. وأفتى القساوسة بحل هذا اعتماداً على نصوص التوراة [1] .

---

(١) راجع قضايا المرأة للشيخ محمد الغزالى .

أما فى الإسلام : فليس فيه ذلك .. جاء فى الحديث القدسى : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر . ورجل باع حرًا فأكل ثمنه. ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » [١] .

حق الحياة لكل الأحياء :

أراد المتنبى أن يصور أفجر الناس فقال :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستبيح دم الحجاج فى الحرم

ما معنى هذا ؟ إن مفهوم العبادة فى الإسلام أمران :

أولاً : تعظيم الخالق.

وثانيًا : الشفقة على المخلوق . وقد هدم هذا الشيخ الركنين معاً : فهولم يقدر الله تعالى قدره حين جعل الفريضة نافلة فلم تكن للصلاة فى قلبه قيمتها .. ثم يريد دماء الأبرياء .. وفى الحرم الآمن بالذات . وبهذا الاستهتار .. وتلك القسوة . صار أفجر الخلق على الإطلاق .

حرمة الإنسان :

وقبل أن نعرف مدى حرمة المسلم نضرب بعض الأمثلة لحرمة الطير والحيوان فى منطق الإسلام : قال رسول الله ﷺ : «**لا تسبوا الديك . فإنه يوقظ للصلاة** » « الترغيب والترهيب » . فانظر كيف يحتفظ الديك بحقه فى الاحترام من أجل مهمة جليلة يؤديها وهى الصياح المعين على اليقظة والنهوض للصلاة .

ونقرأ عن أبى الدرداء رضي الله عنه : عندما كان يحتضر خاطب «بعيره» قائلاً :

لا تخاصمنى إلى ربك . فإنى لم أحملك فوق ما تطيق .

---

(١) البخارى فى البيوع ٣/ ١٠٨ ، وابن ماجه فى الرهون ٢/ ١١٦ أو ٨١٦ .

وتأمل رقة الشعور . . ودقة الإحساس بالمسؤولية لدى أبى الدرداء رضى الله عنه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . . راجيًا أن يقبل الله منه عمله الذى وصل به الحسن إلى درجة لم يظلم فيها الحيوان .

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه. وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم . فلما رأوا ابن عمر تفرقوا فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا : أن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا [(١)] .

فأنت ترى فتياناً فارغين قد استعاروا طيراً اتخذوه لهواً ولعبًا . . وكان لديهم إحساس بخطأ ما يفعلون بدليل أنهم تفرقوا لما رأوا ابن عمر رضي الله عنه .

ولقد لقنهم رضي الله عنه درسًا بليغاً فى احترام الروح مهما يكن موقع صاحبها . . وفيه إشارة إلى ضرورة توجيه الطاقة الشبابية إلى البناء بدل الهدم . . وإلى التعمير بدل التدمير .

بل إن الأمر فى الإسلام وصل إلى حد أن امرأة عذبت فى النار بسبب أنها كانت تسجن فى البيت هرة ضعيفة : (عذبت امرأة فى هرة : سجنتها حتى ماتت . فدخلت فيها النار) [(٢)] .

فانظر كيف يحتفظ الحيوان الأعجم بحقه فى حياة كريمة . . فما هو الظن بالإنسان وهو خليفة الله تعالى فى أرضه ؟

إن حظه من التكريم أوفى من كل مخلوق على ظهر الأرض . بسبب دوره المرموق فى ترقية الحياة وإسعاد البشر .

وعندما يصل الأمر إلى استرخاص روحه . والتلاعب بأقداره . . فإن

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه ابن عمر ـ متفق عليه .

الأمر يحتاج إلى مراجعة نتبين بها علو مقداره .. وضرورة الحفاظ على كرامته .. وإلا .. فلو ضاعت كرامة الإنسان .. تعطلت قواه .. ومن للإسلام بعد ذلك .. ومن الذى يبلغه وينشره ؟! وقد غاب صاحبه .. أو شلت حركته ؟!

حتى تظل جسور المودة قائمة :

عن ابن عباس ﷺ قال : (رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة وهو يقول : ما أطيبك وأطيب ريحك . ما أعظمك وأعظم حرمتك . والذى نفس محمد بيده . لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك . وأن نظن به إلا خيرًا) (١) .

إن الكعبة المشرفة عظيمة وطيبة لكن حرمة الإنسان أعظم منها .

ويلاحظ أنه ﷺ يؤكد هذا المعنى بالقسم البليغ . الذى يصون دم الإنسان أن يهدر . وماله أن يغتصب . وسمعته حتى لا تهان .

وكان ﷺ (يكره أن يحد الرجل النظر إلى أخيه . أو يتبعه بصره إذا قام من عنده . أو يسأله من أين جئت وأين تذهب) « يحد أى يركز » لأن تدقيق النظر والإلحاح فيه ربما أوحى إلى المنظور إليه بالشك فى وجود شىء غير عادى فى مظهره لم يلتفت إليه . أو ينتبه له .

وسؤال الإنسان : من أين جاء . وإلى أين يذهب .. فيه من الإحراج ما فيه .. ومن هنا يوجه الإسلام نظر المسلم إلى التعفف عن مثل هذا التطفل صيانة للمسلم من حرج لا داعى له .

الإسلام يسد أبواب الفتنة :

لكن ما هى الوسائل التى وضعها الإسلام .. ليتلافى المسلم التورط فيما نهى عنه الشرع .. ولتظل نظرته إلى أخيه المسلم نظرة تقدير واحترام؟ هذا ما

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ٢/ ١٢٩٧ .

يبينه الحديث الذى رواه مسلم : قال ﷺ : « **إياكم والظن .. فإن الظن أكذب الحديث . ولا تجسسوا . ولا تحسسوا . ولا تنافسوا ولا تحاسدوا . ولا تباغضوا . ولا تدابروا . وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله تعالى**

المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره .

بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه .

إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم . ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم . التقوى ها هنا .. التقوى ها هنا .. التقوى ها هنا .. ويشير إلى صدره ألا يبع بعضكم على بيع بعض . وكونوا عباد الله اخوانًا . ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث [1] .

وتأمل حرمة هجران المسلم فوق ثلاث ليال .. ثم انظر كيف بلغت المأساة اليوم منتهاها حين يحمل المسلم السلاح فى وجه أخيه المسلم بلا رادع من دين أو ضمير . وإذا كان الهجر ساعات .. حرامًا .. فكم تكون حرمة هذا الدم المراق .. هذا النزيف الذى يسلب الأمة عافيتها .. إن الإسلام ليس كلامًا .. ولا شعارات .. وإنما هو مواقف عملية يصير بها حقيقة لا نقولها خطبًا فوق المنابر .. ولا مقالات تجرى بها أنهار الصحف .. وإنما هو حقيقة نصنعها صنعًا لنكون حقا مسلمين .

نعمة الأمن :

إن نعمة الأمن .. من أجل النعم التى من الله تعالى بها على الإنسان : الأمن على طعامه وشرابه ليظل محتفظاً بحياته .. والأمن على هذه الحياة ذاتها لتستمر .. وتستقر .. ولما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوجه الإنسان إلى إفراده تعالى بالعبادة ذكره بنعمة الأمن الباعثة على عبادة المنعم بها

(١) رواه مسلم .

سبحانه يقول عز وجل : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ .

والسؤال الآن : ما هى الإجراءات التى اتخذها الإسلام لتبقى أعلام الأمن مرفوعة وفى ظلها يعيش الإنسان آمنا فى سربه معافى فى بدنه ؟

التحذير من وسوسة الشيطان :

يقول ﷺ : إن الشيطان قد يأس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب . لكنه لم ييأس من التحريش بينهم [١] « أى الوقيعة » .

والحديث الشريف يلفت النظر إلى خطة الشيطان الرامية إلى الوقيعة بين المسلمين ليحذروه ويتخذوه عدوا .

ومن خطط الشيطان أن يحمل المسلم على الهجوم على أخيه المسلم أو التحرش به . وإخافته وترويعه . ومن هنا جاءت توجيهات الإسلام صريحة فى الحفاظ على أمن المسلم وسلامته حتى نبطل عمل الشيطان: وكانت التوجيهات الإسلامية دقيقة فى هذا الباب : يقول ﷺ : «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا**» [٢] ولا يسمح الإسلام حتى بمجرد الإشارة مما يتسامح فيه الناس عادة .

قال ﷺ : « **من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينزع . وإن كان أخاه لأبيه وأمه** » [٣] . ذلك بأن قد يخرج من يده فيصيب أخاه من حيث لا يقصد فيكون من أهل النار . وذلك ما أشار إليه قوله ﷺ : «**لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح . فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار**» [٤] . ومعنى ينزع : أى : يفسد ويغرى بالعدوان . على أن الأمر

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه مسلم .

(٤) متفق عليه .

لا يقتصر على السلاح . . وإنما يحظر على المسلم إخافة المسلم على أى نحو كان التخويف . . حتى لا يلقى جزاءه الرادع فى الآخرة . يقول ﷺ : « **من أخاف مؤمنًا كان حقا على الله ألا يؤمنه من أفزاع يوم القيامة** » (١) . وحتى التخويف بنظرة العين ولو من بعيد . . فإنه داخل فى دائرة التحريم : قال ﷺ : « **من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة** » (٢) وإذا كان الحفاظ على مشاعر المسلم بهذه الدرجة من الأهمية بمكان . فلم تكون حرمة دمه وماله وعرضه ؟ إنها بلا شك أدخل فى الأهمية وأولى بالرعاية والحفظ .

إن ظروف الحياة قد تفرض علينا حمل السلاح دفاعًا عن قومنا وأنفسنا . لكن هذا الدفاع ليس مشروعًا بلا ضوابط . وسوف يتحول إلى عصبية بغيضة لو كان دفاعاً لا تعرف أهدافه ولا دوافعه . . والحديث يقول : «**خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم** » أى أن الدفاع مقبول إذا جاء على شرط الإسلام صيانة للحق ودفعاً للظلم . . أما استباحة حمى المسلم هكذا بلا ضابط فهو الهوى المتبع . . ونعوذ بالله من عبادة الهوى .

أما بعد :

فربما ظن بعض الناس أن مذهباً من مذاهب الأرض يقاوم الظلم . . ناسيًا أو متناسيًا كيف تصدى الإسلام لهذا الداء الخطير فقلم أظفاره على نحو غير مسبوق .

ألا فليظن من شاء . . ما شاء . . لكن الحقيقة ستفرض نفسها فرضًا . . وهى : أن الإسلام هو الذى قاوم الظلم . ودوخ الطغاة . وانطلق المسلم من فكرة العدل المطلق . . ليؤدب الطغاة فى كل مكان . وليصحح مفهوم العدل ليصبح شاملاً كاملاً . وإذا كانت القومية تدافع لكفاح الاستعمار . . وكانت

(١، ٢) رواهما الطبرانى .

الاجتماعية تكافح .. لمقاومة الإقطاع .. وكانت الحرية تنطلق لضرب الاستبداد .. فإن روح الإسلام الطليقة تجمع كل هؤلاء فى صعيد واحد .. تحت اسم الظلم .. ثم تدفع بنا جميعًا لاحترام إنسانية الإنسان حيثما كان .. واحترام آدميته بحفظ حقوقه مهما كانت ديانة هذا الإنسان .. ومهما كان موقعه فى الأرض الواسعة .. من أجل ذلك كان المسلم فوق هذه المذاهب الضيقة المحدودة .. يطلب العزة للناس جميعًا .. لا لجنس ولا للون .. ويطلب العدل فى كل مجال .. ومع كل إنسان .. وقد بلغ من دقة الإسلام فى مقاومة الظلم أن قرر أنه يوم القيامة يقتص للشاة التى لا قرن لها .. من الشاة التى لها قرن .. فإذا تعلق الأمر بظلم الإنسان كانت نبرة التهديد عالية جدا .

ونقرأ فى ذلك قول الرسول ﷺ : « **اتقوا الظلم . فإن الظلم ظلمات يوم القيامة** »[1] . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله ليملى أى يمهل للظالم . حتى إذا أخذه لم يفلته لم يدعه حتى يأخذ جزاه** ثم قرأ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[2] .

والتعبير بقوله « أخذ » فى الحديث الشريف والآية الكريمة يشعر بأن إحساس الظالم بنفسه وبقوته وعشيرته أغراه بالظلم فلم يشعر إلا بنفسه . وغاب عنه الآخرون .. من أجل ذلك « يأخذه » الله تعالى .. حتى لا يصير له وجود بالمرة . جزاء له من جنس عمله .. وتنحية له من الساحة التى لم يحترمها .. وعزله من مجتمع لم يعرف له حقًا .

الطريق إلى الجنة :

إنه تحت ظلام السيوف .. نعم .. ولكن أى سيوف ؟ وفى مواجهة

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

من؟

إنها السيوف تحملها أيد مؤمنة .. وتحركها أيضًا قلوب مؤمنة تواجه بهذه السيوف أعداء الله وأعداءها من الكفرة والفجرة .. أما أن تكون هذه السيوف موجهة إلى صدر المسلم .. فلن تكون بحال طريقًا إلى الجنة .. بل إنها حطب جهنم .. مع اليد التى تحملها .. أما الطريق إلى الجنة فهو السلام.. والود .. يقول ﷺ : « والذى نفسى بيده : لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا .. ولا تؤمنوا حتى تحابوا .. « أفشوا السلام تحابوا » وإياكم . فإنها هى الحالقة .. لا أقول لكم تحلق الشعر . ولكن تحلق الدين . وإذن فالطريق إلى الجنة مراحل هى :

إفشاء السلام .. وإعطاء الأمان .. ثم يكون الحب الجامع ثمرة لهذا الأمان .. وبالسلام والحب .. تكون مسلمًا .. مستحقا للجنة التى أعددت لها قلبًا ودودًا.. وعقلاً رشيدًا .

المسلم الحق :

والمسلم الحق هو كما وصفه الرسول ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أى أن المسلم لا ينال شرف الإسلام لمجرد شهادة لا إله إلا الله يلوكها بلسانه . وإنما يناله ذلك الشرف إذا حقق مقتضى هذه الشهادة فكان سلمًا للآخرين .. فحماهم من أذى لسانه .. وأذى يده ..

وحين نتأمل ذلك الحديث الشريف نرى كأن اسم « الإسلام » ليس فقط « اسلام الوجه لله » وإنما معناه أيضًا : من سلم الناس من أذاه .

ومعنى هذا: أن الذى يحمل اسم الإسلام .. ثم يحمل فى نفس الوقت سلاحاً يرفعه على مسلم .. هذا المسلم يحمل شهادة الإسلام غشًا وزورًا ..

لأنه يقول لا إله إلا الله .. أسلمت وجهى لله .. ثم يناقض نفسه فى ذات اللحظة حين يرفع السلاح فى وجه الخلق وهم عيال الله !! ولو كان مسلمًا حقا .. لأكمل فى نفسه معنى الإسلام بقسميه : فكان مستسلمًا لله تعالى.. وكان سلامًا لأهل ملته وعياله سبحانه .

ومعنى ذلك أيضًا :

أن الطريق إلى الجنة ليس مفروشًا بالدماء .. ولا بجماجم الضحايا .. وإنما هو حسن الخلق .. ونبالة السلوك .. وغريب أن يأمرنا الإسلام بحسن معاملة الكتابى وهو على غير ملتنا فنستجيب له طائعين .. محتفظين له بحقه كاملاً فى العيش الكريم .. ثم لا نحتفظ لأخينا فى الإسلام هذا الحق.. ولا نمكنه من العيش بسلام . وأغرب من هذا أننا لا نتعلم من الطبيعة حولنا .

إن الذئب .. لا يأكل الذئب . والأسد .. لا يفترس الأسد . وهكذا شريعة الغاب .. أما فى دنيا الإنسان : فالعربى يقتل العربى .. والمسلم يقتل المسلم .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الجهاد فى الإسلام .. مدخل إلى السلام :

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

إذا كان الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .. وليحولوا الحياة إلى بحور من دماء الأبرياء .. فليفعلوا ما شاء لهم هواهم .. ولكن ليعلموا النتيجة النهائية لهذا المسلك العدوانى كما أخبرهم بها الحق تعالى : ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ .

أما المسلمون فلهم مع القتال شأن آخر يوافق عقيدة الإسلام الذى جاء

لينشر السلام وهو ما أشارت إليه الآية التى صدرنا بها الحديث .

فالمسلمون مأمورون بالاستعداد إلى الدرجة القصوى . . والتسلح بأحدث ما وصلت إليه « تكنولوجيا » العصر . . ذلك بأن أعداءهم يمكرون بهم . . ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم . . وتدميرهم . . والعقل قاض بضرورة الاستعداد دائمًا لمواجهة ذلك الخطر الداهم والدائم . . لكن ما هى غاية هذا الاستعداد ؟ إن الآية الكريمة تجيب عن هذا السؤال : ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ أى أن ذلك الاستعداد لا يراد به الهجوم . . وإنما هو لإرهاب كل من تسول له نفسه العدوان . لتخويفه حتى لا يكون قتال بالمرة .

تخويف : الأعداء المكشوفين المعروفين . . ومن يحركونهم ويوسوسون لهم من خلف الستار . . حتى إذا اكتشف هؤلاء الأعداء أن قوة المسلمين رادعة . . وأن جيشهم غالب بإذن الله . . كفوا أيديهم . . ومكروا ألف مرة قبل أن يطلقوا رصاصة واحدة . . وهكذا : لكى تمنع الحرب . . استعد لها . . وقد أمرنا الله تعالى بهذا الاستعداد تحقيقًا للسلام وحفاظًا عليه . . وحتى لا تراق قطرة دم واحدة . . سواء كانت القطرة من جسم مسلم . . أو كافر . . فالمهم أن تصان دماء الإنسان حيثما كان .

ولا يتم ذلك إلا بحسن استعداد المسلمين . . وما يترتب عليه من خوف على الجانب المعادى . . وبالتالى لا يكون خصام . . ولا يكون صدام .

ومن هنا ندرك معنى السلام الكامن فى دين الإسلام : إنه السبيل النبيل . . الشامل . . الكامل . . السلام الذى يخاف على الحياة . . حتى حياة الحشرة . . والطائر . . والحيوان . إنه يحترم معنى الحياة : ومن أجل ذلك يقول سبحانه : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ

جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وتأملوا كيف كان قتل نفس واحدة .. قتلاً للناس جميعًا .. وكيف كان إحياؤها إحيـاء للبشر جميعاً .. لأن الإسلام يحـب الحياة .. ويحب الذين يحافظون عـليها .. مهمـا كان مستقـر هذه الحياة .. والعدوان عـلى معنى الحياة فى فرد عدوان على كل من يشاركه فى هذا المعنى .

وتأملوا أيضـاً كيف قالت الآية : كتـبنا على بنى اسرائـيل .. ولم نقل مثـلاً : كتـبنا عـلى النصـارى .. ليـدرك المسلمـون اليـوم دور اليهـود فى الإفساد.. والإثارة العصبية وتحريض المسلمين على القتال .. ليصنع لهم من جماجمنا هرمـاً يقتعدونه .. ثم لينفردوا بالساحة بعـد أن تركناها لهم لسوء اختيارنا .

السلام من مركز القوة :

كان انتـصار المسلـمين فى بدر نقطة تحـول فى تاريخ الإسـلام قضى الله تعالى به على أهمية العدد والعدة فى غيبة الإيمان .. وكان الظن أنهما أساس الانتصار .. فـى الوقت الذى برزت أهمية العـقيدة المسلحة بـالقوة .. على نحو قـلب حسابـات العدو .. وحطم مـقاييـسه فى وزن أقدار الـرجال .. والتنبؤ بنتائج الحرب .

ومع أن الانتصار فـى معركة بدر كان حاسمًـا .. إلا أن الأمر بالاعداد للجهاد ما زال مستمراً .. بينما دماء المشركين لا تزال ساخنة عبر الصحراء . جاء ذلك فى قـول الحق سبحـانه وتعالى بعـد بيان أحداث الغـزوة فى سورة الأنفال : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ

هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٩ـ ٦٢] .

والآيات الكريمة تطالعنا بالحقائق الآتية :

١ ـ قد يبرز العدو تقدمًا فى مجال الدعاية . . ومن الناحية العسكرية قد يكسب نصراً خاطفًا فيحسب أنه سبق فى المضمار سبقًا يدل به عليكم ويزهو . . ولكن ذلك ظن خاطئ . . فتجربة الأمس تفند هذا الزعم . . أن من ورائه قوة قادرة محيطة من جند الحق سبحانه والذين إن فاتهم مجاراته فى حملة التضليل . . فما فاتهم أن يتركوه على الساحة أشلاء . . ولم يعجز جند الحق يومئذ هربًا.

٢ ـ وحتى يظل زمام المبادرة فى أيدى المؤمنين . . فلا بد من الاستمرار فى إعداد القوة جهد الطاقة . . ليبقى المسلمون فى أذهان أعدائهم قوة مخيفة تشل حركتهم . . وتلزمهم التريث قبل كل خطة يدبرونها . . أو شر يبيتونه ومن ورائهم قوى عالمية تمهدهم فى الغى وتزين لهم العدوان . .

إن العدو المباشر واجهة تخفى نوايا حاقدة تتربص بالإسلام الدوائر . . ولا بد أن يكون الديدبان يقظًا . . مسلحًا بالوعى . . والقوة .

٣ ـ وهذه المسئولية الكبرى تفرض على كل إنسان فى الدولة أن يسهم فى المعركة مهما كان وضعه المالى . . لأن العدو يستهدف الدين . . وهو حياة الجميع . . فلا بد حينئذ من أن يظل شملهم جميعًا . . وعلى ارتباط وثيق بالمعركة التى لا تغيب عن بالهم . . بكل صورة من صور البذل : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

٤ ـ إذا نبتت فكرة السلام فى أذهان الأعداء ودعوكم هم إليها فلا جناح عليكم فى قبول سلام تتحقق به إرادة الإسلام له . . لأنه حينئذ يجىء من مركز القوة . قوتكم أنتم التى ملأت أعين الأعداء فسعوا إليكم طائعين .

أما السلام المرفوض فهو ذلك الذى تدعون أنتم إليه من واقع الضعف

والتخلف .. على ما يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] .

إن سلامًا من هذا النوع يصبح استسلامًا يأباه وضعكم القيادى الذى حصلتموه بمشيئة الله سبحانه .. والإيمان به .. على أن تذكروا جيدًا أن رغبة الأعداء فى المعايشة السلمية مشكوك فيها على ما يفيده حرف الشرط ﴿إن .. جنحوا﴾ .

إنه (جنوح) أى : ميل .. بالرأس . قد يكون خداعًا بينما أقدامهم متشبثة بعقائدهم ومكائدهم .. فكونوا منهم على حذر .. ثم كونوا أشد حذرًا من الاعتماد على قوتكم المرصودة .. وتوكلوا على الله وحده .. ﴿وتوكل على الله﴾ .

إن القوة ليست فى نوعية السلاح .. بقدر ما هى فى يد تحمله .. يحبها الله ورسوله ويبقى ألا تنسينا أفراح النصر واجب الإعداد المستمر لمعركة مستمرة بين الحق والباطل .. ولن تضع أوزارها ما دامت هناك حياة ..

من صور الإعداد للمعركة :

كل كلمة .. كل حركة .. كل جهد مبذول من أجل المعركة .. محسوب بميزان الحق الذى لا يظلم مثقال ذرة .. قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] .

أى أن الرصاصة الواحدة .. التى تنطلق فى سبيل الله .. تفتح أبواب الرضوان أمام كل يد شاركت فيها إعدادًا .. وتنفيذًا .. على شرط أن يتم

ذلك استجابة لبواعث الخير . . واستهدافًا لإعلاء كلمة الله .

أى أن السلاح فى الإسلام للتعمير لا للتدمير . . وحين يشرعه المسلم فى وجه عدو الله وعدوه فمن أجل إرهابه وكف يده حتى لا تمتد بأذى . . حفاظاً على الدماء أن تراق . . مهما كانت عقيدة الإنسان . . وقد كانت استجابة المسلمين للإعداد صادقة .

كان « عروة البارقى » يملك وحده سبعين فرسًا معدة كلها للقتال .

وتصور معى ذلك الجهد الموصول فى رعاية هذا العدد من الخيل . . والذى يشغل الرجل وأهله . . وولده . . وتساءل معى : كم يبقى من عمر هذه الأسرة . تنفقه من ملذات الحياة ؟!

لا ريب أن المعركة ملأت حياتها إلى حد لم يعد فى حياتها وقت للهو أو لعب . . حتى لغلمان لا بد لهم من اللهو واللعب .

حتى الخيل نفسها تندمج فى الدور . . وتصبح ملاقاة العدو أيضًا شغلها الشاغل ! : فعن معاوية بن خديج : أنه مر على أبى ذر وهو قائم على فرس له . فسأله : ماذا تعالج من فرسك هذا ؟ فقال : إنى أظن أن هذا الفرس قد استجيب له .

قلت : وما دعاء بهيمة من البهائم .

قال : والذى نفسى بيده . . ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم . . إنك خولتنى عبداً من عبادك . . وجعلت رزقى بيده . . فاجعلنى أحب إليه من أهله وماله وولده . .

فانظر كيف كانت أمنية الفرس. أن يظل فى وعى صاحبه ركوبًا فى معركة الحق . . وألا يشغل عنه بما يخلد به إلى الأرض من مال وأهل وولد. . إنه التدبير الإلهى إذن . . يجعل من البيئة الإسلامية معسكرًا تدريبيًّا

يوحى كله بالجهاد والإعداد .. إلى حد يجعل من تعلم الرمى عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه .. بحيث لو نسى الرمى يومًا كان ذلك معصية ينبغى التوبة منها بالرجوع إلى إجادتها والتدريب عليها .. يقول ﷺ : « **من ترك الرمى بعد ما تعلمه رغبة عنه .. فإنها نعمة كفرها** »(١) على أن يتم ذلك فى حدود الاستطاعة البشرية .. وتبقى نتيجة المعركة بعد ذلك إلى الله وحده .

ولا يفوتنا ونحن نواجه موقف أبى ذر أن ننبه إلى جانب من حياته العملية إعداداً للمعركة .. لقد جرت آراؤه فى الإصلاح الاجتماعى تجيد تردادها .. ثم لا تقدم للمعركة من جهدها شيئًا مذكوراً .

إنها فقط تتمسح بآرائه .. ثم تتناسى واقعه العملى الشاهد على أنه كان يعمل أولاً ثم يقول ثانيًا .. لم يكن يركب (الخيل المسومة) من طراز القرن العشرين .. ولم يكن يلبس الخاتم الذى يكفى لإطعام آلاف المساكين .. لكنه كان مع الخيل المسومة خادمًا .. وراعيًا .. اعداداً لنفسه كمجاهد فى سبيل الحق سبحانه .. يجعل من آلام البشر شعوراً يجيش به فؤاده .. لا شعاراً براقًا يسيل على الورق حبراً .. أو ينبعث من المذياع حديثًا يروى !!

أما بعد :

فلكل دعوة .. أبو جهل ! يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ** ﴾ [الأنعام: ١١١ـ ١١٣] .

مضت سنة الله فى الأولين .. أن كل مكذب بآية مبصرة تحق عليه كلمة العذاب .. وصار هلاكه نتيجة حتمية لعناد تجاهل البرهان المحسوس .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير .

وفى حلقة من سلسلة عناد المشركين تطلب قريش من الرسول ﷺ آيـة حتى يؤمنوا إذا هم شاهدوها .

وقد استـطاع المشركون فـيما يبدو أن يـتكلفوا الجد فـى الطلب . . وأن يتقنوا الـدور إلى حد ظن فيه بعض المسـلمين صدقهم . . فضمـوا أصواتهم إليهم فى رغبتـهم المتعلقة بنزول الآية المقترحة . . لينتـهى بنزولها صراع طال مداه .

أى أن الخطة الماكرة تقترب من تحقيق نـصر تبدو الآن بوادره حين تستميل إليها قلوب عامة المسلمين . . فى الوقـت الذى لا يسير ميلهم فى اتجاه يخدم الدعوة . . تلك الدعوة التى تهتف بهم أن يحرروا أنفسهم من كل ركون إلى أعدائهم : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ [هـود:١١٣] ولقد أفصح المشركون عن هذه الرغبة قبل ذلك . . فأقسموا أن لو جـاءتهم لآمنوا بها . . ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٩].

والآية الكريمة تشير إلى كذبهم على نحو أكيد . . لكن المسلمين الطامعين معهم لا يشعـرون بموقفهم الجامد لو نزلت هذه الآيـة . . وأى شىء يجعلهم شاعرين بهذه النتيجة مدركين لها . . والحال أنهم لا يعلمون الغيب ؟

وفى الآيات التى معنـا يلفت الحق سبحانه وتعالى المسـلمين ليدرأوا عن أنفسهم هـذا الخطر فيقطعوا كل آمـالهم فى قوم كتب الله عليـهم الكفر لأنه سبحانه لو أجابهم إلى ما طلبوا . . بـل وفوق ما طلبوا فلن يؤمنوا . . فلتبق للمؤمنين شـخصيتهم المتميـزة بعيداً عن كل ما يؤثر فـيها . وإن بدا فى ذاته يسيراً جائز الوقوع . . لأنه شرك منـصوب يراد به زعزعة الصف . . وتفريق الشمل . . صدوراً عن خطتهم الماكرة فى حرب الإسلام وأهله والتى فضحها الله فى القرآن الكريم : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ

كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١] .

فلو أنه سبحانه وتعالى نزل عليهم الملائكة .. ولو بعث آباءهم من قبورهم شاهدين عليهم بالكفر .. وحتى ولو جمع لهم كل كائن يشهد بصحة الإيمان .. ما أذعنوا .. إلا أن يشاء الله ذلك .. فهو وحده القادر عليه .. والعليم بموقفهم من عقيدة الإسلام .. وهذا أمر لا تملكونه أنتم .. وتعجز وسائلكم البشرية عن تحقيقه .. ومن ثم .. فقد اتجهت بكم أمانيكم إلى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء .. حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ..

والحقيقة التى يجب أن يكونوا على وعى كامل بها .. أن هؤلاء أعداء الدعوة .. وإن استترت هذه العداوة وراء محاولات خادعة براقة .. وفى ضوء ذلك .. ينبغى أن تكون صلتهم بهم من اليوم .. وهم يسيرون على سنة أسلافهم فى معاداة الرسالة .. كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام: ١١٢] .

وإذن .. فلا يعتبر رجاؤهم للآية مبادرة سلام .. لكنه شرك الردى ينصب لكم بغية تفتيت الوحدة التى تلتقون عليها .. ولا يكون لكم من بعدها وجود ..

انظروا : يزين بعضهم لبعض .. هكذا كتلة واحدة .. حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها .. ولا يزالون يقاتلونكم بالكلمة الخادعة حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا .. وإذا كان المجرمون يلتقون هنا على الباطل جماعة .. وإذا كانت روح الحقد تسلكهم قبيلاً واحداً يتربص بكم الدوائر .. فكيف يكون موقف المسلمين .. الذين يدعون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ؟

إنهم فى حاجة إلى مزيد من الوعى يطلعهم على حقيقة أهداف القوم .. ليشجبوا فى النهاية دعاية القوم المغرضة .. ويلتفوا حول محمد ﷺ سدًا

منيعًا يفوت عليهم أغراضهم .. ويكشف دعواهم الكاذبة بشأن السلام .. بينما هم ينسفون كل محاولة من أجل السلام !

ومن أجل تفوق الإنس فى عدوانهم .. وتعقد حيلهم .. يقدمهم السياق على شياطين الجن الذين تقصر حيلهم .. ويتضاءل خداعهم إلى جانب ما يبيت البشر لبنى جنسهم !

يروى عوف ابن مالك عن أبى ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت يا رسول الله: وهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم : هم شر من شياطين الجن)** .

وبوحى من القرآن والسنة المطهرة يقول مالك بن دينار : إن شياطين الإنس أشد علىَّ من شياطين الجن .. وذلك أنى إذا تعوذت بالله ذهب عنى شياطين الجن .. وشياطين الإنس تجيئنى فتجرنى إلى المعاصى عيانًا . ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢] .

إن الأعداء لا يشكلون دولة داخل الدولة وليسوا هم أصحاب مملكة يقيمونها فى ملكوت الله العريض .

وموقفهم المنحرف يقع فى إطار من مشيئته سبحانه ولو شاء ألا يقع .. ما وقع .. بيد أنه أراده خيراً يتاح للمسلمين أن يجنوا ثماره .. من خلال الصراع المستمر بين الحق والباطل .. وإذا كان جسم الإنسان يقوى بالرياضة.. فإن روحه تسمو من خلال جهاده المبذول فى مواجهة وسوسة الشيطان .. وإذن .. فإمساك الآية المقترحة رحمة بالأمة التى علم الله عدم إيمانها بالآية لو جاءت فحال بينها وبين الهلاك بهذا الإمساك . وكذلك كان اختبارها بالأعداء من شياطين الإنس والجن فرصة يربى فيها الله سبحانه إرادتهم حتى تصقل .. ليكونوا بعد ذلك أصلب عوداً .. وأشد مراسًا .. وإذا كان الأمر كذلك .. فليتركوا الأعداء وشأنهم . ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

ومن تمام نعمة الله سبحانه بالأمة المسلمة أن يكشف لها عن خطة هؤلاء الماكرين فى محاربة الدعوة : إنها تبدأ بوسوسة عابرة فى ألفاظ منمقة براقة.. ثم هى وسوسة على مدى الأيام مكرورة متجددة .. كما يفيد التعبير بالفعل المضارع ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ ﴾ واستمرار هذا التزيين من شأنه أن يخلف انطباعًا يعمق بمرور الزمن .. ثم يتحول من انفعال طارئ إلى عاطفة متأصلة.. تحن إلى العمل : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ ﴾ .

ومع إلحاح الوسواس الخناس يكون الإنسان قد اتخذ لنفسه موقفًا محددًا يتجه به نحو الإثم مباشرة : ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ .

ولم يبق بعد ذلك إلا ممارسة الشر سلوكاً : ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾. وما دام الأمر كذلك .. فإن كل تهاون من قبل المسلمين وإن بدا ضئيلا .. يتحول فى غفلة الزمن إلى عمل وسلوك .. وكل توجيه يستهدف مصلحة المسلمين فى أول الطريق .. وقبل أن يستفحل الشر يجب الاستماع إليه والالتزام به .. تفويتًا لخطة الكافرين ومن ورائهم اليهود الذين يباركون مثل هذا المكر إن لم يكونوا هم واضعى أسسه !

إن هذا التزيين لا يؤثر إلا فى قلوب (لا تؤمن) بالآخرة جزاء ومصيراً.. من قلوب الماديين الذين يأخذون حياتهم بالطول والعرض ولا يتصورون يومًا ينظر المرء فيه ما قدمت يداه .

وبذلك يتميز الفريقان تمييزاً لا شبهة فيه :

فريق هو من الآخرة فى شك.. يعمل لحساب الشيطان .. وفوقهم جميعا يستعلى المؤمنون بعقيدتهم.. فلا يسلمون قلوبهم فريسة طيعة لدعاة الفساد من حزب الشيطان ذلك بأنهم : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[البقرة: ٤، ٥].

إنهم . ﴿ عَلَىٰ هُدًى ﴾ .. يقعدون منه مكانا عاليا فيرون من الكون مدى أوسع وأفاقًا أرحب . ومن ثم يقيمون حياتهم على أساس وطيد .. يجعل

منهم قوة تعتز بشخصيتها .. وتكشف النقاب عن كل محاولة يراد بها إنزالهم من فوق قمة عالية لا ترفع الكفار خصائصهم إليها : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ [النساء: ٨٩] .

واجبنا اليوم :

إن لحظات الخطر أقدر على جمع شمل الأمة أكثر من لحظات السرور .. وليس هناك خطر أكبر مما يتهدد أمتنا اليوم فلا بد أن نتحد فى مواجهة الخطر الداهم : لقد عرفت أجسامنا معنى التكيف .. احتفاظًا بسلامتها فكيف تغيب عنا آيات الله فى أنفسنا ؟

كيف لا نتحد .. وكل ما حولنا يعزف لحن الوحدة .. حتى يبقى؟! ومن إشارات بعض الباحثين هنا : أجسامنا .. لا تخلط بين العدو .. والصديق . ميكروب « التيفود » يستطيع قتل ميكروب « السيلان » إذا وجدا فى جسد واحد . لأن التيفود يرفع حرارة الجسد إلى حد يقتل ميكروب السيلان.

ولكن :

هل يقبل الجسد المصاب بالسيلان .. أن يدخله التيفود .. ليخلصه منه كلا ! لأن التيفود يعيش بالتهام خلايا الأمعاء .. فوجوده مدمر .. ولا يمكن أن تقبله لمجرد أنه عدو عدوها .. ما دامت مصالح هذا التيفود متناقضة مع أجسامنا .. وحياتها مرتبطة بالقضاء عليه .. وحياتها مرتبطة بالقضاء عليها!

ومع هذا فالأجساد على وفاق مع ميكروب آخر .. يعيش فى المعدة يلتهم بعض الفضلات التى لا يستطيع الجسم هضمها .. فالجسم يستفيد منه. لأنه يخلصه منها .. وأيضًا يفرز مادة يتغذى بها الجسم وهو يستفيد من الجسم . أجسامنا تفهم من هو الصديق .. وهو ما تتفق مصالحها معه . وتفهم أن عدوها من تتناقض مصالحها مع مصالحه ..

ترى : لماذا لا تفهم عقولنا ما لا تفهم أجسامنا ؟!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



الفهرس



•• الفهرس ••

الموضوع | الصفحة

تقديم ٣

الفصل الأول ٩

شبهة .. وردها ١٢

أهمية الدراسات الاجتماعية ١٦

متى بدأ التفكير الاجتماعى ١٩

منشأ هذه الظواهر ٢٣

العامل الجغرافى ٢٨

رد مزاعم الشيوعية بتفرد العامل الاقتصادى بالتغيير الاجتماعى ... ٢٩

طبيعة الصبى ٣٢

الولد البكر ٣٦

التربية الاستقلالية ٣٧

مسؤولية الوالد ٣٩

من معانى التربية ٣٩

غريزة الأبوة ٤٠

من آثار الزوج المتسرع ٤٣

رأى ابن خلدون ٤٥

خصائص الظواهر الاجتماعية ٥٥

منهج البحث الاجتماعى عند المسلمين ٥٦

الموضوع الصفحة

حتى لا تهب العاصفة ٦٠
الأساس القرآنى لهذا المنهج ٦٢
علم الاجتماع وتطبيق المنهج العلمى ٦٤
صرامة السنن الإلهية ٦٨
جناية الأجداد على الأحفاد ٧٠
حساسية دور الوالد ٧٢
من التطبيقات العملية فى « أحد» ٧٣
مسئولية رب الأسرة ٧٧
الأخلاق فى الإسلام ٨٠
الأسس الاعتقادية للأخلاق فى الإسلام ٨١
شبابنا إلى أين ؟ ٨٤
مقياس الأخلاق ٨٧
الضمائر الخربة ٨٩
المقياس الحقيقى ٩٠
المسئولية ٩١
الأمة ٩٤
مفهوم الأمة بين النظريات الاجتماعية والتصور الإسلامى ٩٧
الفرق بين هذه الآراء ٩٨
القومية فى الإسلام ١٠٠
العوامل الدافعة للأخذ بالقومية ١٠١
تكوين الوحدات فى الأمم والشعوب ١٠٥

الموضوع | الصفحة

أمة العرب ١٠٧

معنى الجاهلية فى العصر الجاهلى ١١٠

من مفاخر العرب ١١٣

إذا لم تستح ١١٥

أمة الجهاد ١١٧

مسؤلية الأمة ١١٩

أنواع العقوبات ١٢١

مناقشة المعترضين على الحدود ١٢٢

معنى هذه الاعتراضات ١٢٨

تعقيب ١٣٠

مناهج البحث فى علم الاجتماع ١٣١

العوامل المؤثرة فى حياة المجتمع ١٣٣

ضلال علم الاجتماع المادى ١٣٤

التغير : قانون الحياة ١٤٣

قانون السببية ١٥١

الذبح على الطريقة الإسلامية ١٥٣

شبهة وردها ١٥٨

الحكم فى الإسلام ١٦٢

أساس الحكم فى الإسلام ١٦٦

أهمية الحاكم ١٦٩

هل الدين ظاهرة إجتماعية ؟ ١٧٤

الموضوع الصفحة

رد هذه المفتريات ١٧٦
مدى أقدمية الديانات ١٨٠
المبحث الثالث فى نزعة التدين وأصالتها فى الفطرة ١٨١
مصير الديانات أمام العلوم ١٨٣
التدين فطرة وليس ظاهرة إجتماعية ١٨٤
شبهات وردها ١٨٩

الفصل الثانى : من صور التكافل الاجتماعى « الزكاة » ١٩٥
من أسس الاقتصاد الإسلامى ٢٠٢
غريزة التملك ٢٠٥
الأخلاق .. تحكم الأسواق ٢٠٦
عقيدة التوحيد ٢٠٧
تأثر الظاهر .. بالباطن ٢١٤
كلمة لابد منها ٢١٩
على رأس السنن طاعة الله سبيل الفوز ٢٢٠
والعصيان سبيل الهلاك ٢٢١
لا خصومة بين الإنسان والحياة ٢٢٤
كلهم فى الهم سواء ٢٢٧
كيف يقاوم الإسلام الفقر ٢٢٩
التاجر المسلم ٢٣٠

الفصل الثالث : داء الترف ٢٣٣
فصل فى أن الترف يزيد الدولة فى أول أمرها قوة إلى قوتها ٢٤٥

الموضوع الصفحة

الفصل الرابع ٢٤٩

درس ... من هناك ٢٥٢

الحل الإسلامى ٢٥٤

الترهيب من عقبى الترف ٢٥٥

كلمة بالغة من وادى النيل ٢٥٨

من صور الترف ٢٦٠

الحكام ... والحكماء ٢٦٢

من ذكرياتى ٢٦٣

سبب الشقاء ٢٧٤

الفصل الخامس : الظلم من عوامل انهيار الأمم ٢٧٩

دركات الظلم ٢٨٤

من آثار الظلم ٢٨٦

خطورة الظلم ٢٨٩

مسؤولية الظلم ٢٩٥

حوار المجرمين ٢٩٨

حكمة تحريم الظلم ٣٠٠

الشرك أعظم الظلم ٣٠٢

الترغيب فى العدل ٣٠٦

ضمان الاستقرار ٣٠٧

التحذير من الركون إلى الظالمين ٣٠٨

من ملامح المنهج الإسلامى فى التحذير من الظلم ٣٠٩

الموضوع الصفحة

التحذير من الظلم ٣١٠
بل العدل : من شيم النفوس ٣١٣
رد هذه الدعوى ٣١٤
الفصل السادس ٣١٩
من أساليب الطغاة ٣٢٠
بين السياسة الإسلامية والإسلام السياسى ٣٢١
الفهرس ٣٧٥

تم الصف والإخراج الفني
بمركز الصفا للكمبيوتر
مصر - منية سمنود - دقهلية
ت : ٠٥٠٦٤٩٢١٧٨ محمول : ٠١٢٧٥١١٠٠٣